محمد الطمار

سلسلة الدراسات الكبرى

الروابط الثقافية

بين الجزائر و الخارج



ديوان المطبوعات الجامعية

محمد الطمار

الروابط الثقافية
بين
الجزائر و الخارج

ديوان المطبوعات الجامعية

للأمانة الكتاب من مصورات الأخ هشام عمور أحسن الله إليه، والشكر موصول أيضا لكافة أعضاء موقع طلبة التاريخ تلمسان، فقط قام العبد الضعيف بتنسيقه وتخفيض حجمه وأضفنا له فهرسة لتيسير مطالعته.

رقم النشر : 4.07.4727

رقم ر.د.م.ك.(I.S.B.N.) : 978.9961.0.0875.1

رقم الايداع القانوني : 05/2202

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

قد وعدنا القراء الكرام في كتابنا «تاريخ الأدب الجزائري»، ص: 39، بأن نتحدث لهم عن الأدباء والعلماء الذين نزلوا بقطرنا مقيمين أو عابرين، إذ إن مكوثهم طويلاً كان أو قصيراً، بالجزائر كان خير عون على ازدهار الثقافة الوطنية. فقد وفينا بعهدنا في هذا الكتيب الذي يسرنا أن نقدمه لهم اليوم، بل تعدينا ما كان المواطنون يرجون منا، فتحدثنا فيه عن علاقات بلادنا مع مختلف البلدان في القديم والحديث، وذلك في الميدان الثقافي ولم ننس الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، إذ لا نتخيل نهضة ثقافية لم تلابسها نهضة اجتماعية واقتصادية.

ولقد طرق سمعنا قول بعضهم: إن الجزائر لم يكن لها ثقافة، فلعمري أنه لمن السخافة بمكان أن يجول بخلدهم هذا، والكل يعلم أن الجزائر كانت آهلة منذ عهد سحيق، وأن أهلها قد كان لهم اتصال دائم بغيرهم في الشرق وفي الغرب. ولا نتصور شعباً من الشعوب يبقى منكمشاً في معزل عن الأحداث التاريخية والتيارات الحضارية التي تلم بغيره، ولا سيما بجيرانه، ويخبرنا التاريخ بأن الجزائري مجبول على حب العلم. فقد قام بالرحلات في سبيل اقتنائه، وقد استقبل الداخلين من الأجانب بصدر رحب، اللهم إلا إذا اشتم منهم رائحة سوء النية فيثور حينئذ في وجوههم. وهذا الاتصال بالغير، في الداخل وفي الخارج، كان عنصراً حاسماً في تطويره وتمكنه من الوصول إلى حياة الأفضل مع تمسكه طبعاً بشخصيته التي لم تعرف البتة مسخاً ولا ذوباناً. شارك الشعب

الجزائري قديماً في بناء صرح الحضارة الإنسانية، ولا زال يبذل الجهود الجبارة حتى لا يكون متخلفاً عن ركب هذه الحضارة التي تزداد تطوراً وازدهاراً يوماً بعد يوم، بل لا يهدأ له بال إلا إذا ساهم في هذا التطور وفي هذا الازدهار بقسط وافر مهما كلفه ذلك من تضحية. وفّقه الله إلى بلوغ ما يصبو إليه من عزة ومجد ورفاهية وجعله في يومه وغده كما كان في أمسه حاملاً من حملة لواء الحضارة الإنسانية عامة والحضارة الإسلامية خاصة.

تمهيد

عزمنا على تناول الحديث عن الروابط الثقافية بين بلادنا والبلاد الأخرى منذ القديم. وقبل أن نتتبع خطوات الثقافة فى الجزائر نود أن نبسط الكلام على مفهوم لفظة ثقافة، وإن كان غيرنا قد تحدث عنها قبلنا، فإن المفاهيم المتجددة واتساع أفق المعرفة تدعو إلى ذلك.

فالثقافة لغة هي مصدر ثقف أي صار حاذقاً خفيفاً، وفي الاصطلاح هي المكاسب العقلية والأدبية والذوقية والتكنولوجية. وعندما تأسس علم الأنثروبولوجية الحديث غدت اللفظة تطلق على مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات. وهذا هو المعنى الاصطلاحي الذي تحويه كلمة ثقافة اليوم عند علماء الاجتماع والأنثروبولوجية، ونفس المعنى الذي يعطيه العالم المتحضر للثقافة. وقد اعتاد الناس ألا يفرقوا بين العلم والثقافة. فالعلم مهما يكن نوعه والاختصاص فيه ما هو إلا وسيلة للثقافة وليس هو الثقافة. قد يكون الإنسان عالماً في مادته ولا يكون مثقفاً، فالثقافة هي أكثر تشعباً مما يظن. وحيث الأمر كذلك، فما هي الأسس التي تقوم عليها الثقافة؟ فلا شك أن المعرفة أهم أسسها، ولكن بكل ما توحي به الكلمة من شمولية، لا تعرف حداً ولا قيداً، يصل بها الإنسان إلى عالم أفضل، ويحصل كذلك على شخصية خلاقة، متى اتصل بثقافات غيره استطاع هضمها. فالثقافة تنتقل من مكان إلى مكان عن طريق الاحتكاك، فتستضيء بثقافات سبقتها أو عاصرتها أقوى وأكثر ازدهاراً منها. فيستطيع الإنسان هكذا أن يخرج من الآفاق الضيقة في

تفكيره وأعماله اقتصاديةً كانت أو اجتماعية أو عمرانية. وقد تصطدم بثقافات أقل منها آفاقاً فتمدها بما ينقصها ، فبالرحلة وبالتجارة وبالغزو يكون التبادل الفكري والثقافي. وهذا التبادل يربط المكر بمعين لا ينضب من الإمدادات الملهمة التي تبعث الحركة والانفعال والانطلاق على العالم الفكري[1]. فتتطور الثقافة ويتسع نطاقها فتضيف إلى إنتاج الإنسانية شيئاً جديداً من عقل وقلب أصحابها.

وهي عملية انطلاق. والحرية أساس في التفكير والتعبير، لا تكون ثقافة بدون حرية. رزحت بلادنا تحت نير الاستعمار ومنع على أبنائها التفتح، فجمدت ثقافتهم، وكان من هذا التجمد تخلف لا يمكن محوه إلا إذا استرجع الشعب حريته الكاملة. وها هو قد استردها ونراه الآن يسعى حثيثاً في سبيل الخروج من التخلف الذي فرضه عليه عدوه، وذلك بنشر الثقافة. والثقافات الوطنية المتواصلة المتفتحة تمهد للشعوب السبيل نحو التقدم والرقي وتؤهلهم للتحضر. فأصل الحضارة إذاً الثقافة. ويجدر بنا أن نسجل هنا أن بين الثقافة والحضارة ارتباط وثيق[2]. فالثقافة التي لا تفضي إلى الحضارة لا تعد ثقافة. والحضارة التي لا تغذّيها ولا تنميها باستمرار الثقافة مصيرها الانحلال والزوال. والحضارات تتواصل وتتفاعل وتتبادل العناصر والمؤثرات. فما الحضارة الراهنة إلاّ حصيلة الجهود الحضارية المتتابعة عبر تاريخ الإنسانية.

والحضارة عند العرب عموماً، كانت تدور على ذلك النوع من الحياة المتصف بفنون منتظمة من الملك والإدارة ومن مكاسب العيش ومن الصنائع والعلوم ومن وسائل الدعة والرخاء[3]. والحضارة عند «عبد الرحمن بن خلدون» هي غاية العمران. ويمكننا فهم الغاية هنا بمعنيين: من أنها تشمل خير نتاج المجتمع في الصنائع والفنون والعلوم ومظاهر

---

(1) معركة الحضارة قسطنطين زريق

(2) من المغلق إلى المفتوح: محمد عزيز العبابي صـ: 23.

(3) في معركة الحضارة.

الدعة والترف، ومن حيث إنها المرحلة الأخيرة للعمران. فالحضارة إذاً هي حالة الرقي والتقدم في الأفراد والجماعات. وتحولت في الأوساط الغربية إلى معنى الأنثروبولوجية صرف أي إلى الدلالة على حياة المجتمع بكاملها. فإذاً لا نرى عندهم تمييزاً واضحاً بين كلمة حضارة وكلمة ثقافة إذا اعتبرنا التحديد الأنثروبولوجي الذي أعطيناه للثقافة في أول هذا الحديث.

وقد اختلفت الآراء عند الغربيين في تحديد معنى الكلمتين وقامت مناقشة في الموضوع بين علماء الاجتماع والاقتصاد والفلسفة أيضاً. فالعالم الألماني «ويبير»[1] يقول بأن الثقافة هي الإنماء العقلي والأدبي وحصيلة هذا الإنماء. ويعرفها «كلام» بأنها تتضمن العادات والمعارف والمهارات والحياة المنزلية والعامة في السلم والحرب وتتضمن الدين والعلم والفن. والحضارة عند نفس المدرسة هي حالة الرقي والتقدم في الأفراد والجماعات.

أما المدرسة الأنجلوساكسونية والمدرسة المركسية فلم تقبلا رأي أولئك العلماء. فالثقافة عند الأستاذ الانجليزي «سايس» هي كل عضو حيّ وتشمل جميع نشاطات الإنسان ونتائج هذه النشاطات والمعتقدات والملابس والمنازل والطعام واللغة والموسيقى والعمل والرقص والحكايات والحياة الاجتماعية والعادات الاجتماعية كما تشتمل بصفة خاصة على أفكار الإنسان حول الطبيعة التي تحيط به وكذلك علاقته بعناصر الكون المرعية وغير المرعية[2]. وإذا أخذنا معجم العالم اللغوي الأميركي «وبستر»[3] وجدنا تعريف كل من الكلمتين بالأخرى، فلا فرق عنده بين لفظة ثقافة ولفظة حضارة. والأستاذ «سوروكين»[4] يقول: إن

---

(1) ويبير A. Weber: اشتهر في علم الاقتصاد وعلم الاجتماع بهيدلبرج (ألمانيا).

(2) سايس: R. U. Sayce. ترجمة فوز العنتيل الفكرول ما هو ص: 50.

(3) وبستر Noah Webster ولد بهارتفورد بأميركا سنة 1758 ومات سنة 1843.

(4) سوروكين P. Sorokin عالم اجتماعي أميركي من أصل روسي ولد عام 1889 ودرس علم الاجتماع في جامعات روسيا والولايات المتحدة، له عدة مؤلفات.

الثقافة هي عملية اكتساب الصفات المحمودة وبخاصة الأوصاف الفردية والاجتماعية، فالعلوم وتطبيقاتها من اختصاص الثقافة. والعلوم في نظر المركسية هي المظاهر العقلية والأدبية التي توجه الاعتقادات والنظام الاجتماعي السياسي.

إن المجتمع الجزائري يتألف من أمة لها ترابط داخلي ويتميزعن سواه من المجتمعات. وثقافته ليست روح الشعب فقط بل نتاج هذا الشعب العلمي ومكاسب هذا الشعب باحتكاكه بالشعوب العربية الإسلامية خاصة وبالشعوب الأخرى عامة وبالثقافات والحضارات المختلفة ووسائل الحياة المادية وتطبيقاتها. فكل كتلة بشريّة تظهر في وقت خاص من التاريخ بحضارتها يتمثل فيها الرقي الثقافي الذاتي وما داخلها من تأثيرات مدنيات أخرى. ولهذا التداخل تأثير على العقل والضمير والذوق فتتغير الأفكار ويتبدل السلوك وتتكيف النشاطات. وهذه القوى الثلاث التي تنميها الثقافة الاجتماعية هي الوسيلة للاتصال بالثقافات المختلفة وتفاعلها. فالثقافات إذاً تحتوي على آفاق إيديولوجية للشعوب وتمثل بتوالي الأيام معتقدات. والثقافات المتواصلة التي تعيشها الشعوب المتفتحة هي مرادف إيديولوجية. فالتواصل الثقافي يعتبر ظاهرة تقدم الشعوب والوصول إلى تمنياتها.

وليس ذلك بالعسير إذا توفّرت الإمكانيات العقلية ووسائل الحياة المادية. والعلوم والمعارف والحذاقة، لها دورها الخطير في نجاح السير في طريق التقدّم والتحضر.

والنظرية المركسية تبين أن تاريخ الإنسانية ليس تاريخ الوقائع الحربية بل التاريخ الحضاري، وأن تقدّم التاريخ منوط بتقدّم وسائل العيش. وكل مرحلة قطعتها الحضارة الإنسانية وكل تغيير اجتماعي حصل يوجد تفسيرهما في التنظيم والإبداع والوسائل الاقتصادية عند الشعب.

فإن المجتمعات البدائية لها حضارتها الخاصة بها يندمج فيها

المعتقدات والحقوق والأنظمة الاجتماعية السياسية التي تمتزج ويتمخّض عن هذا الامتزاج ما يدعو إلى الإعجاب. وهذا الامتزاج دليل على وجود مجتمع خاضع للطبيعة التي تفرض عليه نواميس تظهر للمجتمع مظهر سحر. قصف الرعد يمثّل غضب الجنّ، واليبس يمثل غضب الآلهة الذي يدعو إلى التضحية. فلا يستطيع الإنسان أن يفسّر لغز هذه النواميس إلاّ بالعلم. والتصنيع الذي هو تطبيق التكنولوجية يمكّن الإنسان من أن يسيطر على هذه النواميس ويجعل الطبيعة خاضعة لإرادته. فهذا الصراع بين الإنسان والطبيعة يمثل علم الاقتصاد. فإنّ الاقتصاد يفسّر تقدّم الإنسان الاجتماعي ويبحث عن الأساليب التي بها يستطيع الإنسان أن ينتظم وأن يحسّن الأساليب نفسها ليتغلب على محيطه الطبيعي، ويفسر كذلك التقدم الثقافي والحضاري لكل مجموعة وللمجتمع الإنساني كله. فإن مستويات الشعوب الاقتصادية تابعة لمستوياتها الثقافية ولمقدار سعيها للنمو والتفتح. فإذاً، ما دام نطاق الثقافة لم يتسع اتساعاً ولم يعم جميع طبقات المجتمع والفوارق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تبقى قائمة، بل يتفاقم أمرها كلما زاد نشاط الفئات المتقدمة المصنعة دون غيرها. فقد ساعدت الظروف بعض المناطق على أن تخطو خطوات سريعة شاسعة إلى حدّ بعيد في الميدان الثقافي في العصر الراهن، فأحرزت تقدماً لم يسبق له مثيل تقنياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً، فأصبحت بطبيعة الحال غنية قوية، فراحت تبسط إرادتها على شعوب متخلفة وتقف في طريقها نحو النمو والتقدم حتى تبقى دوماً فقيرة ضعيفة فيسهل عليها استغلالها. فيحدث من جراء ذلك ما يحدث بين الطرفين من التحدّيات والردود عليها بالمثل حيناً وبالعنف أحياناً. وضعية مؤلمة تتنافى ومبادىء الإنسانية. إلا أنّ علاجها ممكن على كل حال. فالتحرّر من النفوذ الأجنبي المباشر أو المقنّع منوط بالتحرر من أسباب التخلّف. فلا نرى دواء أنجع لحسم جذور هذه الأسباب من القيام بثورة ثقافية عارمة سريعة تدفع بأصحابها إلى الأمام تقنياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً. فهي أجدى الطرق الموصلة إلى القوة

والسيادة وإلى إرغام الطغاة على تبديل سلوكهم وذهنيتهم، فلا يعود يخطر ببالهم التسلّط على الناس والوقوف في سبيلهم إلى الحرية المطلقة والترقية الحقّة والسعادة الشاملة والكرامة الكاملة. فإنّ تجربة الجزائر للتحرر الكامل وللنمو وللحياة الأفضل لمشجّعة للغاية. فما على الشعوب المتأخرة إلّا أن تتبنّاها، فلا شك أنها تخرج من معركتها ظافرة وتعود تفرض وجودها في العالم الحر المتمدن الراقي. فليست الثقافة شيئاً يكتسب نتيجة للوراثة البيولوجية[1] وإنما هي قضية ضرورة مغامرة في حلبة العلم والخبرة وحذاقة وانطلاق مع مراعاة المحيط الجغرافي والتاريخ والدين أيضاً لما له من تأثير عملي في تنبيه المشاعر وتوجيه السلوك[2]. فإنّ المفارقات التي نشاهدها في الوضع الحضاري المعاصر لا تلبث أن تضمحلّ بتعميم الثقافة وبتعاون جميع الثقافات في آن واحد. فالروابط الثقافية الصحيحة تمحو المركبات وتزيل سوء التفاهم بين الناس وتثبت فيهم روح الصداقة والتكاتف والتفاني في القيام بما فيه خير الإنسانية جمعاء.

وعلى ضوء هذا البحث نشرع في الحديث عن الثقافة بالجزائر وعن اتصالاتها بثقافات البلاد الأخرى وعلى مرّ الأحقاب والعصور.

---

(1) الثقافة والتربية القديمة لوهيب إبراهيم سمعان صـ: 20.

(2) معركة الحضارة صـ: 138.

الفصل الاول

ثقافة الجزائر البدائية

عندما نتحدث عن مكانة الجزائر من الثقافة وعن صلة هذه الثقافة من ثقافات جيرانها أو البلاد النائية عنها، فإننا نجد أنفسنا مدفوعين للتساؤل: متى أخذت الثقافة تتكون في الجزائر؟ وما هي المراحل التي قطعتها؟ وما هي العوامل التي نشطتها ودفعت بها إلى التطور والتبلور؟

متى ثبت أن الجزائري مشى، منذ عمر هذه البلاد، في سبيل التطور والإبداع وثبت أنه ساهم دوماً في بناء صرح الحضارة الإنسانية تبدد كل شك في أن الجزائري عرف الثقافة وخاض في عبابها منذ عهد سحيق، منذ ما قبل التاريخ.

تشابهت حياة الإنسان الأول في معظم الأقطار، فالجزائري مر بالأطوار التي مر بها الإنسان الأول في إفريقية وفي آسيا وفي أروبا. إن الإنسان في طوره الأول كان شبه الحيوان، ولكن، مع توالي الأيام، بزغ في عقله شعاع للوعي، فأخذت الأفكار تلم بذهنه الساذج يشوبها شيء من الغموض ولكنها لا تلبث أن تتضح عن طريق التجربة والتبادل بينه وبين غيره، إذ لم يعش منفرداً بل اتصل بأمثاله فتآنسوا وتعاشروا وتولد من هذا التقارب قوة تقيهم أيسر ما ينبغي أن يتقوا من عاديات الطبيعة وأذى الضواري. وبقيت حياته خشنة طويلاً، ثم سعى في تحسينها تدريجياً وفي تمهيد العقبات التي تحاول أن تصده عن التقدم نحو حياة ناعمة في جماعة راقية. وعلى هذا النحو تدرج الإنسان الجزائري في مدارج الرقي، وأخذت مظاهر الثقافة تبدو في جميع حركاته، و الثقافة

إلّا نتاج الفكر الإنساني منذ أخذ هذا الفكر يبحث باستمرار عن الأفضل لذاته وبيئته.

والجزائر جزء من إفريقية الشمالية وإقليم الحوض الأبيض، وكل يعلم أن على ضفاف هذا الحوض انبعثت حضارات زاهرة، وأضف إلى ذلك ما ذهب إليه بعض العلماء ومنهم العالم «أرامبورغ» أن إفريقية الشمالية هي الموطن الأصلي للإنسان إذ عثر على هيكل إنساني يعود إلى حوالى خمسائة ألف سنة، ولا نعجب من ذلك نظراً إلى ما امتازت به بلادنا من مناخ معتدل وحياة نباتية مزدهرة خلال العصر البليوسيني الأعلى، فاستقر بها عدد كبير من الجماعات البشرية في الأماكن الخصبة، فمن الطبيعي أن تنشأ بينهم حضارات وتتطور.

ويستنتج من الآثار التي اكتشفت في (معسكر) بأن الجزائر هي مهد العنصر البشري المتحضر، إذ وجدت عدة آلات وأدوات تدل على مدى تقدم الجزائري في تلك العصور القديمة. إن حياة جزائري العصر الحجري الأول، على حسب ما خلفه لنا تحت الأرض وفي المغاور وفي الكهوف، كانت بدائية بسيطة، ولكنها تنم عن إدراك وخلق وحذاقة. كانت تجابهه مشاكل فيسعى في حلها، وقد صنع آلات من الحجر سد بها حاجاته وخفف صعوبات حياته الخشنة شكل 1. وإذا هذا الإنتاج يكسبه خبرة ويزيده فطنة بحيث لم تأت أواخر هذا العهد حتى اتقن الجزائري، كسواه من الحوض المتوسط، صناعة الحجارة واتخذ منها الأرحاء وأدوات النقش وصنع السهام شكل 2 ورسم عليها الرسوم العجيبة، وعرف الحياكة والنسيج. وما عثر عليه من الآلات الحجارية يشبه ما عثر عليه في مصر. فليس من شك أن صلات ربطت بين الجزائريين والمصريين منذ الآلاف من السنين، إما تأثر المصريون بالجزائريين، إن صح ما قلناه آنفاً إن إفريقيا الشمالية هي الموطن الأصلي للإنسان، أو تأثر الجزائريون بالمصريين عند مرورهم بمصر للالتحاق بهذه الديار، إن كان أصلهم من الشرق كما ذهب بعضهم.

وقد سكن الجزائري البدائي الكهوف التي حفرها بين الصخور والجبال، ثم كان سكناه الخيم والأكواخ. وما لبث أن تعلم الزراعة، ولقد كانت بلاد الجزائر إذ ذاك تتمتع بمناخ يساعده على ذلك، فاضطر حينئذ إلى الاستقرار وبناء البيوت من طين وحجارة.

وذوقه الفني أخذ يتكون ويتطور وذلك بعلاقاته بالحوضين الشرقي والغربي من البحر المتوسط. فالطين المحروق يعطينا فكرة عن محاولاته الأولى في ذلك. فما وجدنا من الشقف فهو لقدور وصحاف وأقداح. وعمد إلى العظام (شكل 3) فصنع منها الإبر والمسلات والملاعق والسكاكين، ولم يكتف بنقش الطين اللين بل عمد إلى الحجر فنقشه.

في شمال البلاد، بجبال زكار نجد صخوراً عليها نقوش، وهذه النقوش تمثل الإنسان والحيوانات مثل الكبش والتيس والغزال والفيل شكل 4 وفرس الماء والأسد والكلب. فإنها بدائية ولكنها تدل على أنه كان للجزائري استعدادات فنية منذ عهد سحيق.

وفي جنوب البلاد نجد صخوراً أيضاً عليها نقوش، فقد عثر في ناحية «قالمة» على صور للأسد ولابن آوى وللخنزير البري وللغزال والنعام، وفي ناحية وهران، على صور لفيلة وأسد وصيادين على رؤوسهم إكليل من الريش ومتسلحين بالقسي والسهام (شكل 5). وعثر أيضاً على نقش جمال مصحوب بخط تيفيناغ ولكنه يعود إلى عهد أقرب، العهد الليبي البربري. إلا أن آثاره الفنية لم تتعد الإنسان والحيوانات والشمس والخطوط الهندسية، فلا أثر للصور النباتية فيما اكتشف من آثارات ذلك العهد بيد أنه استعمل الألوان من أحمر إلى أصفر حديدي إلى أخضر زيتي. وزادت حياة الجزائري البدائي تطوراً بتوالي الأيام. فاكتشف النار وقد ساعدته على استخدام المعادن كما ساعدته هذه المعادن على تطوير الأسلحة والأدوات. فقد ظهر النحاس والبرونز والحديد على السواحل الجزائرية، اكتشف أثرها في الأرض، ولم تظهر فيما وراء البحر المتوسط إلا في القرن الثالث قبل الميلاد فيما

يخص البرونز. أما الحديد فلم يظهر هناك إلا في القرن الأول المسيحي. فنرى حينئذ أن حياة الجزائري ماضية تدريجياً وبدون انقطاع في سبيل الرقي، ولم تترق مادياً فحسب، بل روحياً أيضاً. فقد عبد آلهة متنوعة. كان يرى المظاهر الطبيعية بعين التقديس ويعبد حيوانات كالتيس والكبش. فقد عثر في جبل راشد بناحية «قسنطينة» على صورة تيس على رأسه هالة تمثل دائرة الشمس، وبقبيلة «زناقة بفجيج» على صورة كبش تحيط برأسه هالة تعلوها حيتان؛ ونجد مثل هذا الأثر بمصر، مما يجعلنا نعتقد أن العقائد الدينية لا تختلف وقتئذ عند أجدادنا وأهل الشرق وأن هناك روابط متينة كانت بين الجزائريين وجيرانهم، منذ عهد سحيق. وكان الجزائري، كالمشارقة، يعتقد في الحياة الثانية. فإنه يموت ولكن، سيولد من جديد أي يخرج من الأرض ليحيا حياة أخرى، وما عثر عليه في شتى القبور من آلات وآثاث يؤيد هذه النظرية. ولعل أجدادهم كانوا يؤمنون بالبعث لظهور الأنبياء عندهم، فنقلوا العقائد من الشرق إلى هذه الربوع أو تسربت من جيراننا المصريين. ولعل أقدم المخلفات الجنائزية الموجودة بالجزائر تلك التي تسمى بالحوانيت[1] وهي عبارة عن مقابر محفورة في جنبات صخور نجدها خاصة بمناطق قسنطينة وتبسة والتي لها مثيلات بصقلية وسردانية مما يدل على اتصال بلادنا بالحوض الشرقي من المتوسط. ومما يدل على اتصال بلادنا بالخارج أيضاً إننا نرى «بجلفاء» و«بو نوارة» و«بو مرزوق» وركنية (قسنطينة) أنصاباً تسمى (دولمان)، عند الافرنج، تشبه الدولمانات الموجودة في أوروبا وآسيا (شكل 7). فقد تحقق الأثريون أنها قبور تحتوي على جثث مصحوبة بحليها ونقودها وأدوات منزلية فخارية. ولا يبعد أن تلك الصخرة المربعة المسماة باللات عند العرب في الجاهلية نوع من تلك الدولمانات، إذ إنها لم تكن تمثالاً وإنما كانت أثراً من مكان معظم، ولا شك أن هذا المكان المعظم يحتوي على جثة خيّر أو سيّد.

(1) وتمادت هذه العادة حتى عهد الرومان (شكل 6).

فيتراءى لنا مما تقدم أن الجزائري في ذلك العهد قد نما عقله، وتوطدت أفكاره، وأخذت شخصيته تتكون وتتميز وخطا خطوة مباركة اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً. ولم يقف في تطوره عند هذا الحد بل واصل جهوده ليخطو خطوات أخرى أوسع نحو الأمام إلى أن دخل عصر التأريخ.

هذا حظ الجزء الشمالي الجزائري من التطور في تلك العهود القديمة فما حظ المناطق الصحراوية من ذلك إذاً؟

الفصل الثاني

حظ المناطق الصحراوية
من التطور في العهود القديمة

إن الصحراء جزء من الوطن، وسكانها جزائريون فلا مندوحة عن أن نتعرف إلى حياتهم عن أن نتعرف إلى حياتهم وإلى الأطوار الحضارية التي مروا بها في مختلف،العصور ولا يهدينا إلى ذلك إلا تلك الرسوم والصور المنقوشة على الصخور والتي امتلأت الصحراء بها.

فقد زعم بعضهم أن الصحراء كانت بحرا. فهذه المزاعم لا أساس لها من الصحة. فالذي أدى بهم إلى هذا الغلط هو تلك الأصداف التي وجدوها في أرضها، وما هذه الأصداف إلا آثار العهد الترياسي الذي عم فيه الماء جميع أرجاء الأرض. ألم يعثر على مثل هذه الأصداف في نواح شتى من المعمورة.

لم تكن الصحراء بحرا أبدا،فكانت تتمتع بمناخ لا يختلف عن مناخ الحوض المتوسط تنعم بالأمطار الغزير والازدهار النباتي، ويدلنا على ذلك ما أكتشف من هياكل الحيوانات مثل الفرس وفرس الماء والزرافة (شكل 8)، ونعلم أن هذه الحيوانات تحتاج إلى أعشاب ومياه وأثر الأنهار التي كانت تخترق مناطق الصحراء لازالت ماثلة للعيان وما بعد العيان بيان، ويجد إلى أيامنا هذه أشجار مثل السرو والزيتون والفستق في أعالي جبال (تاسيلي) (والهقار) مما يبدد كل شك في أن الصحراء تابعة جغرافيا إلى باقي الأرض الجزائرية.فالصحراء حينئذ لم تكن بحرا البتة منذ ظهور الإنسان على وجه الأرض،فقد عرفت الأقطار الأخرى أيام خصب وأيام قحولة، ما جاءنا عن علماء الإغريق والرومان أن الصحراء كانت في طور اليبوسة في القرن الخامس

ق.م. فإن «هيردوت»[1] الذي عاش في ذلك الوقت ذكر أن الصحراء كان بها كثبان رملية وواحات وأقاليم مأهولة وتلال الملح.

ويُخْبرُنا «بلين»[2] في القرن الأول بعد الميلاد بأن الفيل والزرافة والضواري كانت توجد بليبيا.

وهناك شاهد أكبر على أن الصحراء كانت عامرة وقامت وتوالت فيها حضارات، هو تلك النقوش التي عثر عليها على المئات من الصخور والتي تمثل الأشخاص، والحيوانات فرادى وجماعات، وشتى مناحي الحياة المادية والمعنوية والدينية لأقوام مختلفة سكنت تلك الربوع التي نراها اليوم خالية إلا ما كان من جماعات قليلة من التوارق يعبرون أرجاءها أحياناً. (شكل 9-10).

وهذه الصور عجيبة بأساليبها المتنوعة ومواضيعها المختلفة. نشهد تارة أشخاصاً عظاماً، وتارةً أشخاصاً قصاراً، وطوراً جماعة من الرماة (شكل 11)، يتحاربون على قطيع، وأخرى أشخاصاً يتضاربون بالعصي، ونرى هنا صيادين (شكل 12)، يطاردون غزلاناً وهناك رجالاً على متن زورق يحاولون الاستيلاء على فرس الماء، وهناك مناظر للرقص (شكل 13)، ولمجالس اللهو، كأنك، وأنت تتمتع بروعة وجمال هذه الصور، أمام متحف للآثارات القديمة. وإذا أمعنا النظر في هذه الصور، يتجلى لنا أنها تنتمي إلى مدرستين الأولى رمزية وهي أقدمها عهداً والأخرى طبيعية فإنها أكثر أهمية من مثيلاتها في إفريقية الجنوبية أو في أوروبا، إلا أننا نلمس فيها تأثيرات مصرية أو إغريقية. فهي سجل يدلنا من ناحية، على الجاليات المختلفة التي عمرت الصحراء وعلى الرعاة الذين جابوها؛ ومن ناحية أخرى، يحيطنا علماً عن الحيوانات التي عاشت فيها. ومن ثم نكون على بينة من التغيرات التي طرأت على الصحراء. فإن نقوش وصور تاسيلي وحدها مكنت الأستاذ «لوط» من أن

---

(1) Herodote

(2) Pline

يميز الأطوار التاريخية التي عرفتها الصحراء من العصر الحجري الأول إلى قبيل العهد التاريخي. بدأ حديثه في كتابه القيم[1] عن عصر الصيادين، ثم انتقل إلى عهد الرعاة الذين كانوا يقدسون البقر (شكل 14)، فجاء فنهم حافلاً بصور لهذا النوع من الحيوانات تدل على ذوق ومهارة فنية دقيقة رائعة مستوحاة من الطبيعة.

فيما يخص القرون والآذان والحوافر والذيول. ويمتاز هذا الفن بألوان من أحمر إلى أصفر إلى أخضر إلى أزرق إلى أبيض، ويبدو أن هذه الألوان زيتية صنعت من ألوان أرضية ومزجت بدهن الحيوان. وبجانب الصور البقرية صور أخرى تمثل أشخاصاً عليهم ثياب متنوعة ويقومون بحركات شتى: هؤلاء يرمون الطرائد أو يتقاتلون، وأولئك يرقصون جماعات، وتعطينا نظرة عن الحياة البيتية وعن دور المرأة في ذلك المجتمع: انظر معي إلى هؤلاء النساء الجالسات في عقر أكواخهن ويدهن على يد الرحى، وإلى تلك الراكبات وراء بعولهن على متن البقر، فكلها مناظر حية تنبئك بمهارة الفنان ودقة ملاحظته. ومن هم هؤلاء الناس الذين عمروا وقتئذ مناطق تاسيلي والهقار وأدرار؟ فلا شك على حسب رممهم، أنهم ينتمون إلى سلالات مختلفة. فلا شك أن هؤلاء الرعاة قد جاءوا من الشرق واكتسحوا الصحراء. ويظهر أنهم اتصلوا بالحضارة المصرية. وما يؤيد هذا الظن أن صوراً تمثل زوارق (شكل 15) مصرية عثر عليها الأستاذ «لوط» كما عثر أيضاً على أرحاء وفؤوس حجرية تجعلنا على بينة من درجة رقيهم. فإن ثروتهم تعتمد على البقر على الخصوص. وهذه الآلاف من البقر التي عاشت القرون الطوال، في تلك الأجمات المترامية الأطراف وفي تلك المراعي المملوءة عشباً، لا يستبعد أنها كانت عاملاً من العوامل التي أثرت في مناخ تلك الربوع، فأدت بها إلى الجدب والقحولة. فقد أتلفت الأشجار الكثيفة التي من شأنها أن تكثر الندى والرطوبة. ولكن، ما أصاب هؤلاء الرعاة وهذا

---

(1) A la découverte des fresques et Tassili

البقر؟ ألم ينتقلوا إلى نواح أخرى أكثر خصباً عندما بدأت القحولة تلم بالصحراء؟ ففي مناطق السودان الآن توجد قطائع وافرة من البقر، فلا يستبعد أن أولئك الرعاة أووا إلى هذه الجهات المجاورة حينئذ، ولا زال أثرهم فيما وراء الصحراء.

وينتقل بنا الأستاذ «لوط» إلى عصر قبيل التاريخ، ويذكر لنا أنّه اكتشف بنواحي «جبارين» نقوشاً تمثل أشخاصاً عماليق ذوي رؤوس مكورة، وأخرى تمثل أربع نساء رأسهن على شكل رأس الطير (شكل 16)، وتحاكي تلك الصور التي نراها على بعض الهياكل المصرية. فمن نقش، يا ترى، هذه الصور؟ لعل أصحابها مصريون جاءوا إلى الصحراء ونقشوها وقلدهم في ذلك أهل البلاد، أو ليبيون كانوا بمصر نزلاء أو أسرى فتأثروا بالثقافة المصرية وأدخلوا إلى بلادهم الفن المصري، وكل يعلم أنه كان بين المصريين والليبيين اتصالات هادئة حيناً ومضطربة أحياناً، ويجعل الأستاذ نصب أعيننا صورة أخرى تخبر عن زي المرأة في ذلك الوقت. فلنلتفت إلى هذه المرأة ونمعن النظر فيها. فإن ملامحها تنبئنا أنها من عائلة نبيلة تحلي رأسها بتاج وتلف جسمها بملاءة لا تختلف عن الملاءة التي تلبسها الترقية في الأفراح. و«بصفار» وقعت يد الأستاذ «لوط» على صورة تمثل كلاباً. فالكلب كان يصحب القطيع أو يحرس البيت. فوظيفته هي هي، لا تختلف قديماً وحديثاً، وأخرى تمثل نساء يساعدن بعولهن في خدمة الأرض كما نراهن أحياناً في البوادي. وثالثة تمثل رجلاً عملاقاً وعلى يساره نساء يتقدمن بين يديه الواحدة تلو الأخرى رافعات يديهن نحوه كأنهم يتوسلن إليه، وعلى يمينه غزال وامرأة راقدة على ظهرها وساقاها متفرقتان وبطنها ناتىء، تظهر أنها حامل على وشك أن تلد. فلا شك أن هذا الرجل يمثل إله الخصب والضنء ومن أهم ما اكتشف الأستاذ لهذا العهد الأخير تلك الصور التي تمثل عربات ملونة (شكل 17)، كان أصحابها يستعملونها في صيدهم وحروبهم. فإن «هيرودوت» يحدثنا أن قوماً من الفزان بليبيا كانوا يستعملون في حروبهم عربات ذات عجلتين يجرها حصانان أو أربعة يركبونها ويطاردون بها قوماً

آخـــرين يسكنـــون الكهـــوف أو المغـــاور. وعلى حسب (دوســـار)[1] و(ريناش)[2] أن هذه العربات مثيلات العربات التي جاءت في فن جزيرة (كريت)[3]. ونعلم أن في القرن الثاني ق.م. أبحر أقوام من جزيرة (كريت) ونزلوا بليبيا قاصدين بذلك الهجوم على مصر ثم بقوا بليبيا.

فإن توارق تاسيلي قد لعبوا دوراً هاماً في التاريـخ. شجاعتهم وعرباتهم الحربية جعلتهم سادة تلك الربوع: يراقبون الطرق المؤدية من طرابلس إلى السودان. فحماية القوافل التجارية كانت تغل عليهم الثراء الوافر. كانوا يسمون الغرميين نسبة إلى غرمة عاصمة الفزان. فقد ذاع صيتهم في كل مكان وحتى في أوروبا حيث حاربوا في صفوف «هنيبعل» في معارك ضد الرومان(بتريبي)[4] و(كان)[5]، وأبلوا بلاء حسناً.

ويظهر مما تقدم أنّ معلوماتنا حول الصحراء قد تغيرت رأساً على عقب. فلم تكن بحراً فنضبت مياهه، وإنما كانت دائماً أرضاً آهلةً عمرتها أقوام مختلفة الأرومة والحضارة والثقافة. والفضل في ذلك يرجع إلى الأستاذ «لوط» باكتشافه هذه الذخيرة من الصور والنقوش. فبها صرنا على بينة من حياة تلك الجماعات التي تعاقب نفوذها في تلك الأوساط اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً ومن الاتصالات التي ربطتها بالأقطار الأخرى فالجزائر إذاً ذات حضارة عريقة، وذلك يرجع إلى نشاط أبنائها وإلى احتكاكهم الدائم بالغير فيستفيدون ويفيدون.

---

(1) Dussard

(2) Reinach

(3) Crete

(4) Trébie

(5) Cannes 316 ق.م.

الفصل الثالث

الجزائر المازيغية

1) أصل السكان

2) ثقافة السكان: اللغة ـ الأدب ـ الفنون

قدْ سبق أن قلنا إن الجزائر كانت تتمتع دوماً بمناخ معتدل وأمطار وافرة وخصب كثير، فمن البديهي أن وفد عليها أجناس مختلفة اما طلباً للعيش أو للتجارة واما قصداً للغزو للسيطرة على سكانها وللاستيلاء على خيراتها. فطابت لهم الحياة في ربوعها، فاستوطنوها وامتزجوا بأهلها ونجم من هذا الخليط شعب ذو شخصية وعقلية وخصال تميزه من غيره.

في العهد الحجري اكتشف هذا الوطن عن طريق مصر جماعات عرجت إلى الصحراء كالرعاة الذين تفرقوا في نواحي تاسيلي وكالتوارق الذين استوطنوا الفزان ومن ثم تفرقوا في المناطق الصحراوية من البلاد وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فيما تقدم. ويرى المؤرخون أن من القبائل التي وردت من الشرق في القرن الثلاثين أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح. وهاجر بعدهم أقوام متعددة في أوقات مختلفة منها قبائل فلسطينية فرت أمام (يوشع) ومنها عرب يمانيون جاءوا مع «افريقش» أحد ملوك اليمن التابعة في غزوة لليبيا وأعجبتهم البلاد فاستوطنوها، فكان منهم قبيلتا كتامة وصنهاجة على قول الطبري وغيره من النسابين، ومنها الفرس والميد والأرمن أتوا إلى الأندلس في جملة جنود ملك اليونان. ولَمَّا توفي هذا الملك عبر هؤلاء الناس إلى افريقية الشمالية واستقروا بها الا ان «فزال» يستنكر هذا القول. وأقوال المؤرخين متضاربة في شأن أصل سكان هذه البلاد، والذي نعول عليه هو أن شعب الجزائر أصيل عريق بقي على مر الأحقاب متمسكاً بأصالته ضاناً بجنسيته، ومن طبيعته الا يندمج في الجنسيات التي تحل ببلاده بل يبلعها فتصير جزائرية بتوالي الأيام. والغالب

من القبائل التي عمرت الجزائر وامتزجت بأبنائها الأولين هو متفرع عن ثلاثة شعوب عظيمة صنهاجة وكتامة وزناتة. وهذه الأقوام الوافدة على هذا القطر أتوا بثقافاتهم. فانتشرت هذه الثقافات المختلفة بالاحتكاك مع أهل البلاد. فالثقافة التي حصل عليها الجزائريون في أطوارهم الأولى بفضل عقلهم الثاقب وتجاربهم الشخصية وتبادل بعضهم مع بعض أخذت تقوى وتنمو، وزادوا فطنة واستنارة، وخطوا خطوات أخرى أوسع نحو التقدم، ولم نسمع قط أن ازدهرت ثقافة وهي في عزلة تامة عن غيرها من الثقافات، فمن حسن حظ الجزائريين الأصليين أن اتصلوا بهذه الأقوام الطارئة على بلادهم، فلا وسيل لنموهم العقلي الا هذا الاتصال الذي ينجم عنه تفاعل وتبادل الأفكار والمعلومات، وكان للجزائري استعداد فطري لكل شيء جديد نافع، فاساغ واستوعب كل ما أتى به أولئك الأجانب من ثقافة وأخلاق تواكب طبعه وتدفع به إلى الأمام في ميدان الحضارة والرقي، وهذه الثقافات والثقافات الأخرى التي سنتحدث عنها مختلفة المنابع، فقد تأثرت بعضها ببعض وأثرت بعضها في بعض، والثقافات بكيانها تتواصل وتتفاعل وتتبادل. وهذه الخاصة الأساسية من خواصها مستمدة من كيانها الانساني والاجتماعي. فمن طبيعة الانسان أن يأخذ ويعطي. فبهذا التبادل المشترك تكوّن المجتمع الجزائري ونشأت ثقافته وزهرت وأثمرت.

أصبحت البلاد تضم عناصر مختلفة ولكن هذه العناصر امتزجت بعضها ببعض وتكون من هذا الخليط شعب ممتاز له مقوماته أطلق عليه اسم البربر[1].

وقد ترقّت حياة هؤلاء البربر كثيراً بالنسبة إلى العهود الحجرية، ولكنها لا زالت، مع ذلك، بسيطة تحتاج إلى تطوير وترقية. فسيتصلون بشعوب أخرى متحضرة تساعدهم على هذا التطوير وهذه الترقية كما سنرى بعد. وهذا الشعب البربري كان له لغة هي عماد ثقافته الأولى، وهي لغة

(1) أطلقه عليهم اليونان ثم الرومان، وذلك لأنهم أجانب عنهم لا يتكلمون بلغتهم ولا يخضعون لسطانهم.

حامية مشتقة من الليبية وقريبة من المصرية، وتفرعت إلى لهجات أهمها الزناتية والصنهاجية تختلف بعضها عن بعض في بعض مظاهرها. ويطلق على هذه اللغة اسم تمازيغت أي لغة الأمازيغ وهم البربر، فما دامت حياة هؤلاء بسيطة فهذه اللغة كانت تكفيهم في معاملتهم وتبادلهم، الا أن هذا الشعب لم يلبث أن اتصل بشعوب ذات حضارة أقوى من حضارة البربر، فصارت بطبيعة الحال عقولهم تتفتح وأخذ وسطهم يرقى ودائرة حضارتهم تتسع. فمن البديهي أن يروا من لغتهم عجزاً لتأدية ما تطلب حياتهم الجديدة، فعمدوا إلى الوضع والاقتباس من الأمم التي اتصلوا بها كالفينيقيين والاغريق والرومان والواندال والمصريين. ولكن هذه الألفاظ المقتبسة لم تبق على هيأتها الأصلية، فصاغها البربر على قواعد لغتهم فبربروها. ورغم اهتمامهم بلغتهم فلم يصلوا بها إلى درجة اللغة الراقية لذلك العهد. فبقيت فقيرة من حيث الصور الخيالية، لا تتسع للمعاني التجريدية ولا للتأليف بحيث لما بلغوا درجة الكتابة نرى المثقفين من أبنائها يعمدون إلى لغات أجنبية لأنها لغات علم وأدب. ولا ننفي ما لهذه اللغة من محاسن، ولكن، كيفما كانت هذه المحاسن لا تجعلها في مصاف اللغات الراقية ذات الثقافة الواسعة والحضارة المزدهرة. كان لهذه اللغة خط، لا يستبعد أن البربر اقتبسوا بعض حروفه من المصريين لاختلاطهم بهم والاحتكاك بثقافتهم. ولا نعجب من ذلك إذا البربر أو بعبارة أصح زناتة والمصريون القدماء من أصل واحد، كلهم حاميون، فبين لغتهم قرابة وتشابه، زيادة على أنهم جيران، فلا بد من أن يؤثر بعضهم في بعض ويتأثر بعضهم من بعض. ولهذا الخط ثلاثة وعشرون حرفاً كما أخبرنا به روماني من العهد الروماني الا أن حروفه في البدء قبل أن يتحضر البربر كانت قليلة لا تتجاوز عشرة حروف. فقام «مصينيسا» في القرن الثالث قبل الميلاد واخترع حروفاً أخرى على نمط الحروف الهجائية الفينيقية، فبلغ عدد الحروف الذي ذكرناه. وما يدفعنا إلى تأييد هذه النظرية أن «مصينيسا» كان يعمل ما في وسعه. لئلا تكون دولته متخلفة بالنسبة إلى قرطاجة وروما وغيرهما من البلدان، يحدثنا التاريخ أنه كان

حريصاً على تنمية شخصية رعيته وتدعيم استقلالها اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً. هذا من جهة، ومن جهة أخرى اننا اذا لاحظنا الخطين وجدنا الشبه بيّنا بين بعض حروف ذا وذاك، فقد عثر الباحثون على خمسمائة كتابة في شتى الأمكنة من البلاد ولا سيما في المنطقة الشرقية. فلا زال ذلك الخط ظاهراً للعيان نجده في المناطق الصحراوية عند التوارق ويعرف بتيفناغ. والفضل في بقائه إلى أيامنا هذه يرجع للمرأة الترقية. فإن الأغلبية الساحقة من نساء التوارق يقرأن ويكتبن بتيفناغ، الا أن هذا الخط يستحيل تدوين الكتب به على قول «فوكولد»[1].

كما أن المرأة كانت سبباً في حفظ الخط البربري من الضياع فهي أيضاً التي حفظت اللغة البربرية من التلاشي، فبقيت ضاربة عروقها في الأوساط البربرية، فالمرأة لا زالت متمسكة باللسان الذي ورثته عن آبائها وبه تخاطب أبناءها وهي المدرسة الأولى لهم، فمن البديهي أن يتعلموه ويتكلموا به ومن ثم يستمر استعماله ويبقى حياً مجابهاً التأثيرات في ثبات ما دامت المرأة متمسكة به.

لا شك أن البربر كان لهم نوع من الأدب يتمثل في أغانيهم في أفراحهم وخطبهم في مختلف الظروف كالولائم والانتصارات في حروبهم، ولكنهم لم يسجلوا شيئاً من ذلك، فإن قلة حظ الكتابة عندهم واختلاف اللهجات لم يعينا أدبهم على البقاء والوصول الينا، فأدبهم كان أدب المناسبات ولا يعتمد الا على الحفظ، فمن البديهي أن يزول ويذهب أثره بذهاب هذه المناسبات. لو فطنوا إلى مزايا الخط فتعلموه كلهم وبالغوا في نشره لوصل الينا الشيء الكثير من هذا الأدب ولا سيما الشعر منه، فإن للبربري استعداداً فطريّاً كبيراً للغناء يخترع له شعراً يناسبه فإن القصبة الليبية أو الشبابة ان شئت التي يحدثنا عنها «اوربيبد»[2] وغيره من شعراء الاغريق في القرن الخامس قبل الميلاد لحجة دامغة على أن البربري كان يتعاطى الموسيقى، والموسيقى يصحبها الغناء والغناء يستمد ألفاظه المؤثرة

---

(1) Foucauld

(2) Euripide

من الشعر الساحر المتدفق من أعمق منابع الطبيعة التي يعيش في حضنها الواسع حراً طليقاً. ولم يُتَّخذ قرض الشعر حرفة وانما يقوله الجميع عفواً كلما سنحت لهم الفرصة لذلك.

وكان للبربر إلمام بالفن؛ فمتاحفنا مملوءة بالأواني والآلات كلها تدل على ذوق فني لا بأس به. وتلك الزخارف المرسومة في المنسوجات البربرية وذلك الوشم على ظاهر اليد وفي الوجه والساق ما هي الا آثارات من الفن البربري العتيق الذي يجانس في أشكاله الفن الايجي واليوناني والمصري وجزر البحر المتوسط. شكل (18).

فيتجلى لنا من هذا كله أن الثقافة أخذت تشيع وتتوطد أركانها في الوسط الجزائري مما قد يؤدي به إلى ما يصبوا إليه من سعادة وكرامة، واذا هذه الثقافة تشتد وتقوى باتصال بلادنا بشعب عريق في الحضارة هم الفينيقيون.

فمن أين أتوا؟ وكيف كانت ثقافتهم؟ وما نتيجة احتكاك البربر بهذه الثقافة؟.

الفصل الرابع

اتصال الجزائر بالفينيقيين

1) تأسيس قرطاجة

2) تأثير البربر بالحضارة الفينيقية

3) مصينيسا ومشاريعه ونتاج سياسته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية

4) اتصال مصينيسا بالإغريق

5) أبناء مصينيسا يتابعون خطة أبيهم.

الفينيقيون أمة سامية ينسبها المؤرخون إلى الشعب الكنعاني. وطنهم يقع بين جبل لبنان والبحر المتوسط، كانوا قوماً تجاراً سافروا كثيراً واتصلوا بالأمم الراقية لذلك العهد كالمصريين والبابليين والهنود والصينيين. فتأثروا بحضارتهم ونقلوا الشيء الكثير من ثقافتهم إلى ديارهم.

وقد مخرت سفنهم عباب الحوض الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنتيكي، وأسسوا عدداً كبيراً من المراكز التجارية بسواحل أوروبا وإفريقيا، وأخذوا يتبادلون مع الأهالي مختلف السلع، وهذه السلع تحمل طبعاً معها آثارات حضارات شعوبها، فالتجارة كانت من أقدم العصور سبيلاً واسعاً منتجاً من سبل التبادل الحضاري الثقافي. فاستفاد الفينيقيون وأفادوا بفضل هذه الاتصالات التجارية مع هذه الأمم المختلفة. وفي سنة 803 ق.م. أسسوا قرطاجة الواقعة قرب تونس الحالية، وأصبحت القوة الفينيقية في الحوض المتوسط. ومن مراسيها في الجزائر هيبون وجيجل وصلداي واقسيوم وشرشال ووهران. أسسوا في عاصمتهم المدارس، واعتنوا بالفلاحة والتصنيع (شكل 19)، فأخرجوا الحديد والنحاس والرصاص، وصنعوا منها الأواني والآلات والأسلحة وأنواع الحلي، وحذقوا في الحياكة وصناعة الزجاج. فأصبحت تجارتهم لا تكتفي بنقل سلع المشرق إلى المغرب والعكس بالعكس، فصارت قرطاجة بفضل ثقافة أبنائها الواسعة الناتجة عن عقولهم المتفتحة وعن احتكاكهم بالأقطار المختلفة الراقية منبعاً لا ينضب معينه للصادرات :

وكان على منتوجاتهم إقبال عظيم در عليهم ذلك الأرباح الطائلة والتجارة تتطلب من أصحابها الخلق الطيب وحسن المعاشرة والمعاملة، والفينيقيون قد توفرت فيهم هذه الخصال، فحببتهم إلى غيرهم، فانتقل إلى قرطاجة جماعات من الأمم المجاورة من يونان ورومان وغال وأسبان وصقليين ومالطيين. وتعايش هذه الأجناس سبيل من سبل تفاعل الحضارات والثقافات وتبادل المؤثرات. فكان منهم عمال وصناع ماهرون انتفعت بهم قرطاجة وسقتهم بدورها من حياض علومها وحضارتها، وقد رحب أجدادنا بهؤلاء الفينيقيين وامتزجوا بهم في المدن والأسواق، وتكونت بين العنصرين صداقة وثقها الإخلاص المتبادل والنية الصالحة والمصاهرة. فشارك البربر في حضارة قرطاجة وانتقل إليها كثير من أعيانهم فتعلموا لغتها. ولكن هذه اللغة داخلها كثير من الكلمات البربرية ولهجتها[1] فصارت تسمى لهذا البونيقيَة لأنها مزيج من اللغتين، وكرعوا من حياض ثقافتها حتى أصبحوا ينافسونها في الميدان الحضاري. نعم قد تأثروا بالحضارة القرطاجنية. ولكن لا يجعلنا ذلك ننفي أنه كانت لهم حضارة هي نتاج العصور التي مر بها الشعب بفضل عقله وتجاربه ومجهوداته المتواصلة. والفينيقيون، هم أيضاً، تأثروا بهذه الحضارة، وإن كانت أقل ازدهاراً من حضارتهم. فمن طبيعة الإنسان أن يقلِّد ويُقلَّد. تواصلت الحضارتان وتفاعلتا وتمخضت عنهما حضارة ممتازة سميت بالبونيقية. وقد قيض الله للبلاد أمراء تفانوا في نشر هذه الثقافة في ربوعها. وكان في طليعتهم ذلك الرجل الفذ «مصينيسا بن غولا»، وكان هذا الأخير سيد نوميديا آنئذ. أرسل: ولده إلى قرطاجة فتعلم مصينيسا البونيقية وتزود من العلوم ما أكسبه وعياً ثقافياً كبيراً. كان أميراً، فأصبح عند عودته إلى بلاده أميراً واعياً مدركاً لأهمية رسالته بعد أبيه، فلا بد من أن يمتزج بشعبه ويسعى في تنمية شخصية رعيته وتدعيم استقلال بلاده اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً. رأى أنّ تفوق قرطاجة في

(1) سالوست Salluste: Lingua modo convorsa conubio Numidarum legum cultusque plerarque Sidonica.

اء
ب
ج
د
هـ
و
ز
ح
ط

م
ن
س
ع
ف
ص
ق
ر
ش
ت

ا
ب
ت
ث
ج
ص
س
ق
ف
ز
ص

ل
م
و
ع
ش
هـ
خ
د

الميدان الحضاري ومكانتها الاقتصادية المزدهرة لم يتحققا إلا بالثقافة. فشمر حينئذ عن ساعديه وراح يبني الأسس التي تقوم عليها ثقافة متينة من شأنها أن تؤدي بدولته إلى مضاهاة قرطاجة وروما. فاخترع الخط كما رأينا آنفاً لأن الثقافة الحقة عمادها الخط، فيه تدون العلوم وبه تكون المعاملات التجارية المثمرة وغيرها. وأرسل البعثات العلمية إلى قرطاجة. وانكب هؤلاء الشبان على المعارف انكباب الظمآن على المعين وتخرجوا في معاهدها، وعادوا إلى بلادهم، وانبثوا في أرجائها ينشرون العلم باللغة البونيقية طبعاً، لأنها لغة العلم. وقد أعد لهم «مصينيسا» لذلك مدارس عديدة. ففشى العلم، وفشت اللغة البونيقية في جميع القطر حتى صار أهل «قرطة» عاصمة نوميديا لا يتكلمون بغير البونيقية وأصبحت هي اللغة الرسمية بدواوين الحكومة. بها قدم «مصينيسا» تحياته إلى آلهة مقدسة بجزيرة مالطة[1] وبها كتب اسمه على النقود (شكل 20)، والملوك الذين جاءوا بعده اقتفوا أثره (شكل 21-22-23)، وحتى خصمه «صيفاقس» وابنه «فرمينا» استعملاها في دواوينهما ورسما بها اسمهما على نقودهما (شكل 24)، وقد عثر على نقود، ووجدت كتابات «بقالمة» و«قسنطينة» و«ميلة» على ضرائح بهذه اللغة. وفي الأوساط الملكية نجد أسماء بونيقية مثل هيمبصال ومستنبعل وآذربعل وهير بعل. ولم يأخذ هؤلاء الأمراء والأعيان بتلابيب اللغة البونيقية فحسب بل تعاطوا الأدب القرطاجي أيضاً فأتقنوه. فالبونيقية أصبحت لغة الأكثرية البربرية لا يجهلها المدنيون ولا البداة إلا ما كان من أولئك الذين كانوا يسكنون قمم الجبال البعيدين عن القرى والأسواق، فبقوا متشبثين بلغة الأجداد بحيث إن الرومان كانوا يلجأون إلى مترجم عارف بالبونيقية عندما يضطرون إلى مخاطبتهم، والقديس (أوقسطين) كان هو الآخر يحتاج، عندما كان على رأس أسقفة (هيبون) إلى أساقفة يحسنون هذه اللغة لبث التعاليم الدينية بها. وخلاصة القول: إن اللغة البونيقية غزت الوسط الجزائري وتمركزت فيه، وقدر لها أن

---

(1) سيسرون Ciceron

تعيش بالجزائر بعد سقوط قرطاجة ما يزيد على ستة قرون، فلم يذهب أثرها حتى جاءت العربية، والفضل يرجع في ذلك إلى «مصينيسا» وإلى شعبه الواعي الطموح إلى العلا والحياة الفاضلة.

و«مصينيسا» رجل واع يعرف أن الثقافة هي نتاج العقل والقلب فلا بد من تثقيف الإنسان الجزائري وتربيته التربية الواعية، يحثه على البحث عن الأفضل من جهة وعن الخير من جهة أخرى، فهكذا يصبح لا يستأثر بثقافته بل ينزل بها إلى المجتمع فيستغلها الجميع وتأتي بأكلها المرتجى.

وقد أدرك «مصينيسا» أن الوثنية كما هي عليه لا تجدي نفعاً، بل قد تكون سبب تأخر فلا بد من إصلاحها. فدعا قومه أن يعبدوا آلهة قرطاجة وأثينة وروما، تلك الأوثان التي ترمز إلى أسباب الحضارة[1]، فيغرس فيهم تمجيد القوة والخير والجمال والحكمة والفن وغيرها من المعاني التي بها يسمو الفكر وتتحسن الأخلاق وتتقوى الشخصية، ولكن الأكثرية الساحقة من الشعب بقيت متمسكة بالعقائد التي ورثتها عن آبائها بيد أن يأتي الإسلام دين الحق والإنسانية الكاملة، فلا يتولى تهذيب الإنسان إلا طهارة العقيدة والاعتصام بالفضيلة والتشبث بحبل التقوى والعلم أي الخصال التي من خصائص هذا الدين الجديد الذي سينشره العرب في جميع أنحاء البلاد والذي سيجد فيه الشعب ضالته المنشودة ويعتنقه بكل حماس ويذود عنه بالنفس والنفيس.

ولم يقف اعتناء «مصينيسا» بأمر الثقافة عند هذا الحد. فثورته الثقافية كانت عنيفة شاملة تعم جميع أنواع النشاط بعد أن غذى عقل شعبه وغرس في قلبه الفضيلة، واصل سعيه إلى تحقيق ما بقي من مخططه الحضاري، تحقيق شروط نجاح ثورته ضد الجهل والفقر والمرض. فولى اهتمامه بالدرجة الأولى إلى القطاع الفلاحي لأن الفلاحة لعامل رئيسي في التنمية الاقتصادية وبالتالي في رفاهية الناس. فإنها تمد

---

(1) سطرابون Strabon

الصناعة والتجارة. فالثورة الصناعية لا بد من أن تسير جنباً إلى جنب مع الزراعة، ولا يمكن تحقيق الثورة التجارية إن لم تتحقق ثورة في الميدانين الزراعي والصناعي. فلفت «مصينيسا» رعيته إلى نفع الفلاحة: فتدر عليهم الخيرات الوافرة وتوجب عليهم أن يقيموا في أرضهم. وبالفعل رغد عيشهم وتعلموا الاستقرار والتمدن وبناء المنازل والقرى والمدن، فقال (سطرابون) في هذا الصدد: «إن «مصينيسا» مدّن النوميديين وحبب إليهم خدمة الأرض.».

قسم «مصينيسا» عليهم الأراضي ودعاهم إلى إصلاحها واستخراج كنوزها، وأبى إلا أن يكون لهم قدوة. فعمد إلى أراضيه الشاسعة فزرعها فاقتدى به البداة وفلحوا أراضيهم. فازدهرت الزارعة وغلت على أصحابها الثروات الضخمة حتى أصبحت الجزائر قادرة على إصدار ما يربو على حاجاتها من الحبوب. والشاهد على ذلك قول «بولبس» المؤرخ الروماني: «كانت نوميديا قبل «مصينيسا» لا تجدي نفعاً ولا تأتي بفائدة وتعتبر غير قادرة، نظراً إلى طبيعتها، على إعطاء شيء من المنتجات الفلاحية. فكان «مصينيسا» هو الرجل الأول الذي أظهر أن نوميديا قادرة على إعطاء جميع تلك المنتجات مثلما تعطيه أية جهة أخرى من القطر لأنه أحيا مسافات شاسعة وتعهدها بالحرث والزراعة».

وزادت هذه الزراعة انتشاراً وازدهاراً على مر الأيام بفضل مجهودات الأمراء الذين تولوا أمر البلاد بعد «مصينيسا».

ومن أسباب غنى البربر أيضاً الصناعة. كانت النساء يصنعن ما يحتاجه البيت من الأواني والأثوبة الصوفية والزرابي، أما الصناعات التي تتطلب مرافق وأجهزة ومعلومات تقنية ومواصلة العمل مثل صناعات الأسلحة والآلات المعدنية والحلي والخزف قصد التجارة، فالرجل هو الذي كان يمارسها، وغالباً تكون في المدن، ولكل مهنة طائفتها ومكانها، كانت تنسج الثياب الأرجوانية المشهورة بالتل[1] وكان بقرطة

---

(1) سولين Solin XXVI. I "Chullu purpuraris fuco Tyriis velleribus comparata".

سباك اسمه عبد الملجرت[1]، وعثر بالقل و«بكو نوكو»[2] على آثارات خزفية ممتازة مما يدل على أن البربر تعاطوا هذه الصناعة ومهروا فيها. وهذه الصناعات أثرية كانت قبل مجيء الفينيقيين إلى إفريقية (شكل 25)، ولا زالت هذه الصنائع المسماة الآن بالتقليدية. فنجدها في أصحابها الثروات الضخمة حتى أصبحت الجزائر قادرة على إصدار ما في القبائل ، راينا عند زيارتنا للقبائل صناعة الفضة (شكل 26) بني يني وصناعة الخشب (شكل 27) المنقوش والزرابي الجميلة والأواني الخزفية الجيدة ورثوها خلفاً عن سلف. وبجانب المصانع كانت دكاكين تعرض فيها المنتوجات الأهلية والمنتوجات الواردة من الخارج. وكانت التجارة تكثر في الأسواق التي كانت تقام في بعض المدن مثل فاقا (باجا) وسيكار (الكاف) وقرطة. وكان البربر يقومون برحلات تجارية إلى المستعمرات الفينيقية وإلى ما وراء البحر. فقد عثر على نقود نوميدية كثيرة بأسبانيا ولا سيما في جنوبها[3] وعثر على أخرى بفرنسا. ووجد كنز بمازن بكرواسيا (يوغسلافية) يعود إلى العام الثمانين ق.م. يحتوي على 328 نقداً نقشت عليها صورة «مصينيسا» و500 نقد قرطاجي. واكتشف بالجزائر نقود «لأثينة» و«برقا» و«رودس البلاطسة» و«مرسيليا». وعثر على كنز يعود إلى السنة 79 ق.م. يحتوي على نقود فضية أثينية ومرسيلية واسبانية ورومانية[4]. وهذه النقود تدل على أن التجارة كانت نافذة بين الجزائر وبلاد الحوض المتوسط قد أعد لها «مصينيسا» أسطولاً تجارياً هاماً معززاً ومشفوعاً بأسطول حربي. والتجارة سبيل واسع منتج من سبل التبادل الحضاري الثقافي. ومالقة وقادس (اسبانيا) كان لهما اتصال متين بإفريقية الشمالية[5] والايطاليون والإغريقيون هم الآخرون كانت لهم اتصالات وثيقة ببلادنا. ففي جزيرة ديلوس (اليونان) أقيم تمثالان «لمصينيسا» الأول شيده «ديلوس» وكان صديقاً «لمصينيسا» ، والآخر بناه

(1) شابوط Chabot

(2) Gunugu

(3) مولار Muller.

(4) مونصو Monceaux صـ: 136.

(5) سطرابون.

«رودس». لا شك ان خيوطاً تجارية وثقافية كانت تربط عاهل الجزائر بأعيان البلاد الإيجية. ويخبرنا «سطرابون» أن «مصينيسا» أسكن جماعة من الإغريق بعاصمته قرطة. وقد عثر على كتابات تعود إلى ذلك العهد بهيبون (عنابة). وفي عهد «يوغورطة» استوطنت فاقة (باجا) جالية إيطالية تشتغل بالتجارة[1]. وكان بقرطة إيطاليون كثيرون قد ساعدوا أهل المدينة على صد يوغورطة[2]. وكان يسكن بزاما، عاصمة يوبا الأول، رومانيون. وكان يرد على البلاد أثاث وأسلحة وأوان معدنية فاخرة. فقد اكتشفت قناديل وأوان أخرى مطلية سوداء في «القل وقراية وباجا ومغراوة». ومن أهم الصادرات: القمح والشعير والزيت والجلود، فإن «باجة» حيث كانت جالية إيطالية كانت تصدر الأطنان من القمح؛ والحبوب كانت تصدر بكثرة منذ عهد «مصينيسا». وياقوت وعقيق «ماصيصيليا» والعاج وعرعار سيتروس[3] من الأشياء التي كان يرغب فيها. أما المرمر النوميدي فكان مشهوراً يصدر إلى الخارج، وهذه التجارة كانت تدر على المدن والمراكز التجارية أموالاً وافرة نتج عنها الرفاء والبذخ. فالأمراء أخذوا يبنون القصور. فقد ذكر «تيت ليف»[4] تلك القصور «لصيفاقس» و«مصينيسا» بقرطة. وأخبرنا «سالوست» بقصر يوغرطة «بتالة»، و«فيتروف»[5]، بقصور يوبا الأول «بزاما». ولم ينسوا آلهتهم وموتاهم، فقد شيدوا لهم الضرائح، ومن بقاياهم معبد «دقة»[6] وصومعة الخروب[7](قسنطينة)، وامدغسن[8] (شكل 28)(قسنطينة)، وضريح النصرانية[9] (شكل 29) (طيبازة)، ولم يكن للبربر فن معماري أثري،

(1) سالوست.

(2) سطرابون.

(3) سطرابون.

(4) Tite-Live

(5) Vitruve

(6) بناه الشعب إحياء لذكرى مصينيسا بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته وذلك لأنهم كانوا يحبونه. أشرف على تخطيطه وتشييده مهندس قرطاجي سنة 139ق.م. على حسب (شابوط) فإنه يعد نموذجاً للفن المعماري البونيقي.

(7) ضريح مصينيسا.

(8+9) يطرح الفقيد في لحد واسع تعلوه جثوة من الحجر على شكل مخروط يحيط بها جدار على =

فقد تأثروا بالفن القرطاجي. فليس من شك أنهم استعملوا لتشييد قصورهم مهندسين قرطاجيين في أول الأمر، ولكن، لم يلبثوا أن تعلموا وصاروا يبنون عماراتهم بأنفسهم تارة على الطراز البونيقي وأخرى على الطراز الهيليني، فالقصور المرسومة على نقود يوبا الثاني تذكرنا بالهندسة الإغريقية وقد كان مفتوناً بحضارتهم. كل هذه البنايات تدل على حضارة راقية. كثير من الأمراء النوميديين تزوجوا بقرطاجيات من الوسط البرجوازي. لو لم يعشن في بيئة تنسيهن الغربة وما تعودن من الرفاهية عند أهلهن لسئمن الحياة مع بعولهن البربر. ويخبرنا المؤرخ (بلين) الأكبر بأن جميع مكتبات قرطاجة عندما قضى الجيش النوميدي ـ الروماني على هذه المدينة استولى عليها النوميديون. وهذه الكتب كانت تحوي علوماً كثيرة استفاد منها أمراء البربر والأجيال التي تلتهم. لم ترق البربر الأموال، فقد تركوها لجشاعة الرومان واختاروا الكتب، مما يدل على نضوجهم وحبهم للثقافة. فقد كتب «هيا مبصل» كتابين باللغة البونيقية، وحفيده «يوبا الثاني» قرأ الكتب البونيقية[1]. فأمراء النوميد استفادوا كلهم من الحضارة البونيقية، ولكنهم لم يقنعوا بذلك، فاتصلوا بالإغريق وتأثروا بثقافتهم.

لقدربى «مصينيسا» أولاده تربية إغريقية ليغرس فيهم حب الفلسفة والقوة، فتعلم «مستنبعل»[2] لغة اليونان وأتقن آدابهم إتقانه الآداب البونيقية وأصبح ذا شهرة واسعة في الأوساط الإغريقية، فإنه أرسل مرارا جياده إلى حلبة السبق «بأثينة» وكانت ترجع دائماً ظافرة[3]. وأخوه «مصيبسا» كان يحسن ثلاث لغات أجنبية: البونيقية والإغريقية والرومانية. وكان يميل إلى الفلسفة يناظر فيها الفلاسفة اليونان الذين يزورونه بدعوة

= شكل دائري ويتميز هذا الهيكل بمدخل وسرداب يؤدي إلى اللحد.

(1) سولين Solin.

(2) بيت ليف: Tite-Live: Mostabanalem qui etiam graecis litteris eruditus erat.

(3) كان مصينيسا يمجد القوة والفروسية ويغرس في شعبه تمجيدها ونقوده لبرهان قاطع على ذلك، فقد رسم فيها مع صورة الفرس السلاح وهما عبارة عن القوة التي تضمن لهم حريتهم وشرفهم والشرف عندهم أثمن من الحياة. (شكل 20).

منه أو رغبة في مجالسته لسعة علمه وعمق إدراكه لأسرار الفلسفة[1] وقد توج أثناء (البناتيني)، تلك الحفلات التي كانت تقام «بأثينة» إكراماً «لمينارف»[2] آلهة الذكاء والحكمة والفنون. وقد اعتنى كثيراً بعاصمته قرطة يريد أن يفاخر بها قرطاجة وروما، وكان له مهندسون من رعيته، فلم يكتف بهم. فجلب من اليونان حذاقاً أعانوهم في البناء والزركشة وكانوا لهم قدوة حسنة إذ اقتبسوا من أساليبهم في الهندسة والفن المعماري. فصارت قرطة لا تقل جمالاً وروعة عن العواصم الأجنبية. والمدن الأخرى أخذت حظها من اعتناء «مصيبسا» بالفن. في وقت هذا الملك ظهرت نتائج جهود أبيه، فخرجت البلاد من التخلف اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، وكان اليونان يترددون على البلاد ويتصلون بالنخبة المثقفة التي قد تأثرت بالحضارة البونيقية المتأثرة هي الأخرى بالثقافة اليونانية .

ويوبا الثاني هو أكبر ملوك البربر تأثراً بالأخلاق والثقافة اليونانية، وقد تشبع بهذه الثقافة لا في بلاده بل بروما كما سنحدثك عنه بعد.

اتصلت ثقافة الإغريق بثقافة البربر عن طريق الوفادة وطريق الاجتلاب دخلت مع تجار وعلماء وفنانين. وكان هذا الاتصال على سبيل التقدير والاحترام، لم يلاحظ البربر في اليونان تكبراً وخيلاء ولا مركب تفوق. فلهذا أقبلوا على ثقافتهم، وكان اتصال الثقافة البربرية بالثقافة اليونانية منتجاً. احتكوا بالبونيقيين، فكان من هذا الاحتكاك يقظة فكرية وثقافية واعية، واتصالهم بالإغريق أذكى عقولهم ونشط ثقافتهم وقوى نهضتهم. وخلاصة القول إن اتصالاتهم المتواصلة مع البونيقيين والإغريق واعتناءهم بالزراعة والصناعة والتجارة كل ذلك كان لهم أحسن معين على الرفاهية وعلى النضوج الفكري والتدرج في مدارج الرقي. ولقد اتصل البربر بالرومان أو بعبارة أصح تسلط الرومان على البربر، فما هي نتيجة ذلك يا ترى؟

---

(1) على قول «ديودور» الصقلي: إن مصينيسا كان يعيش مع علماء الإغريق الذين لا يفارقونه.
(2) Minerve...

الفصل الخامس

الجزائر والنفوذ الروماني

1) موقف الجزائريين من الثقافة الرومانية
2) الشخصيات الجزائرية التي تمثل الثقافة لذلك العهد:
يوبا الأول، يوبا الثاني، مانيليوس، أبوليوس، فلوروس، أبطات، أوقستين، فرونطوس، سيدونيوس، أوريليوس، مكروب.
3) استيلاء الوندال والروم على الجزائر.

كان اليونان أمة راقية قوية، بسطت نفوذها في شمال إيطاليا وفي صقلية، وأهم مدنها نابولي وتارانت وسرقوسة، وكانت هذه المدن تتمتع بما كانت تتمتع به بلادهم من ضروب الثقافة، وفي وسط إيطاليا كانت قبيلة خشنة تقيم بناحية «اللصيوم»(1). فاتصلوا بالإغريق وتأثروا بحضارتهم، فترقوا. وبنوا مدينة كانت عاصمة دولتهم 21 إبريل سنة 753ق. م.، ووحّدوا بلادهم، وقويت شوكتهم، فتولد فيهم حب التوسع، فغزوا جيرانهم فأخضعوهم لسلطانهم، وامتلكوا اليونان والغال والأندلس ومصر والشام وصقلية وسردينية وجزر الأبيض المتوسط، فأصبح كثير من مراكز القرطاجيين بيدهم. فنجم من ذلك عداوة ومغايرة بين روما وقرطاجة، ونشبت الحرب بينهما، ودارت الدائرة على قرطاجة. وبعد انهيار الدولة البونيقية التفت الرومان إلى الدولة الأمازيغية وقد طاب لهم المقام بتلك الربوع لما فيها من خيرات، يريدون الاستيلاء عليها، ولكنهم وجدوا أمراء واقفين أمامهم بالمرصاد. وكانوا لا يجهلون شجاعة البربر، فقد اطلعوا عليها أثناء الحروب البونيقية وفي المعارك الطاحنة التي دارت رحاها بينهم وبين يوغورطة، فعدلوا عن استعمال القوة ولجأوا إلى المخادعة. فقضوا هكذا على يوغورطة وكسروا شوكة المقاومة واستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على الأهالي وسلبوهم حقوقهم الطبيعية وأهانوهم وانتزعوا منهم معظم أراضيهم الخصبة وأثقلوا كاهلهم بالمغارم. فقد قال «غروت»: «إن الرومان

(1) Le Latium

ألزموا البربر بالعمل في أراضي المعمرين من تحت قوانين ثقيلة».

وهذه الإجراءات تتنافى وطبيعة البربر، فلا نعجب إذا رأينا الشعب يعرض عنهم وينفر من حضارتهم ويأخذ ذلك الموقف العدائي الذي دوخ الرومان وأقلق راحتهم طيلة إقامتهم بالمغرب. قد بنوا وشيدوا، ولكن الشعب لم يستفد من ذلك. فكل ما أنجزته من أسباب الحضارة كان للمعمرين وأذيالهم. لم يكن تواصل بينهم وبين معظم الشعب، والتواصل لا يحصل إلا في جو من السلم والثقة المتبادلة.

وللرومان لغة راقية تليق للعلم والأدب. وكان للرومان اعتناء بالفصاحة والخطابة، وقد استفادوا من كل الأمم الراقية التي اتصلوا بها ولا سيما الإغريق الذين تشبعوا بالثقافة الشرقية، والشرق الأوسط كان المهد الأول للحضارة العالمية. وكان ظهورهم على أرض اليونان نتيجة لمؤثرات قوية مستمدة أساساً من الحضارات القديمة في الشرق[1] فقد أغرم الرومان بأدب الإغريق وتأثروا به. فكان لهم أدب راق. وبما أن اللغة هي مظهر شخصية الدولة ومفتاحاً لقلوب الأمم أخذوا يبثونها في الأوساط البربرية التي تحت نفوذهم. «فإن الدولة الرومانية تعرف كيف تسوس الشعوب، لم تفرض نفوذها السياسي فحسب بل لغتها أيضاً»[2]. فالبربر الذين كانوا يعيشون في المدن جنباً لجنب مع الرومان اضطروا إلى تعلم اللغة اللاتينية، فهي لغة التخاطب في الأسواق والمحاكم والإدارات والمدارس.

ولكن الشعب في البوادي وفي الجبال ظل بعيداً عنها متشبثاً بالبربرية أو البونيقية بحيث إن الرومان كانوا يلجأون إلى مترجم عارف بتينك اللغتين عندما يضطرون إلى مخاطبة البداة، فأقام المترفون من المعمرين والبلديات المدارس، وحذوا في التدريس حذو الرومان والإغريق، يجلس التلاميذ إلى معلم خشن يعلمهم القراءة والكتابة والحساب في عنف

(1) فؤاد زكريا.

(2) القديس أوغستين Saint Augustin.

وقساوة، ثم يتابعون دراستهم لدى الأستاذ يلقنهم اللغة والنحو والآداب ويدربهم على الكتابة وتحرير الخطب. إلا أن هذه الأساليب البيداغوجية كان الطلبة عنها غاضبين فالقديس «أوقستين» عندما يتذكر الدروس التي تلقاها في تلك المدارس والضرب الذي قاساه كان يقول: «فمن ذا الذي لا يكره الرجوع إلى سن الطفولة وأن لا يفضل الموت على أن يستأنف تلك الحياة الدراسية؟» وكان الطالب عندما يناهز السنة السابعة عشرة يغادر تلك المدارس ليقصد المعاهد بالمدن الكبرى كقرطة وتبسة ومداوروش، ولا سيما قرطاجة التي كانت العاصمة الثقافية السياسية وقتئذ فكان (أبوليوس) البربري يقول للهاتفين باسمه في المسرح: «لا أرى في حاضرتكم غير كهول أخذوا حظاً وافراً من الثقافة وشبان منكبين عليها وشيوخ يلقنونها، فقرطاجة هي المدرسة المبجلة في قطرنا، وعروس إفريقية السماوية و«كامن» آلهة الشعر». وهؤلاء الطلاب جلهم من الأوساط البرجوازية تتكون منهم الإطارات من حكام وموظفين ومحامين كلهم يعملون لصالح المعمرين والقوات المرابطة بالبلاد. إلا أن هناك برابرة تخرجوا هم كذلك من تلك المدارس وتأثروا بالمذهب الأفلاطوني في الفلسفة اليونانية وقرأوا (سالوست) وغيره من الأدباء وأحبوهم. وتعلموا علم البيان والبلاغة والفصاحة، وزاحموا الرومانيين في هذا الباب. وأولئك الذين تعلموا اللاتينية عن غير المدرسة، صبغوها بصبغة الوطن وغيروها عن أصلها، فهي اللاتينية الدارجة. ذلك دأب البربر في كل ما أخذوا عن غيرهم، وبذلك حافظوا على جنسيتهم وابتلعوا الأمم التي أحلتهم وأرادت أن تبتلعهم، وهي مزية لا تعرف لسواهم من الأمم.

وعلى كل حال، فإن الرومان لم يؤثروا على البربر في اللغة تأثير القرطاجيين مع أن اللغة اللاتينية أوسع، والسر في ذلك أن البربر لم يروا في القرطاجيين مطامع استعمارية فأقبلوا عليهم، وأن الرومان احتلوا أرضهم ليستغلوهم ويستعبدوهم فنفروا منهم، اعتنى الرومان بالمعمار الذي يتجلى أمامنا في هذه المدن الرومانية المنتشرة في الجزائر وفي القطرين الشقيقين، أنشأوا فيها هياكل يعبدون فيها أوثانهم قبل ظهور المسيحية،

ومسارح للتمثيل الهزلي والجدي. الأول يتناول الروايات التي ترفه عن النفس والآخر الروايات التاريخية لتجسيم الأمجاد، والاجتماعية لتربية المجتمع، وملاعب يتبارى فيها المصارعون مع الحيوانات المفترسة. وشيدوا فيها أيضاً حمامات واسعة تحتوي على قاعات للنظافة الأولى باردة، والثانية دافئة، والثالثة حارة. وعلى قاعات أخرى للراحة واللباس والاجتماع والمطالعة، من ورائها بستان تزينه الأشجار والرياحين. تتوسط المدينة ساحة واسعة الأطراف مزينة بالتماثيل وأقواس النصر ومدارة بالأقواس الجميلة والدكاكين، فهي سوق ومحل اجتماع، وبها دار القضاء ودار البلدية، وتقام فيها الألعاب والحفلات العمومية، وتقرأ فيها البلاغات الحكومية، وكانوا يطلقون عليها اسم «الفوروم»[1]. ولعل «تمقاد» (شكل 30) هي التي لا تزال تحتفظ بهيكل المدينة الرومانية. والفن المعماري الروماني في الجزائر هو مزيج الفنين الإغريقي والروماني نفسه، ويتمثل في أعمدة وأقواس الهياكل المختلفة والقصور وفي القناطر العتيقة ذات الأقواس المتداخلة الأحجار وقناطر حمل المياه وفي القاعات المبلطة بالفسيفساء، وهذه البنايات تنم عن ذوق فني رائع، إلا أنه يغلب عليه العظمة التي يريدون أن تكون ميزة حضارتهم وشارة عزهم وسلطانهم. وقد ساهم في إقامتها أبناء البلاد من بنائين ونحاتين ونجارين وغيرهم من أهل الحرف. فلا شك أنهم تعلموا الهندسة الرومانية. فكان منهم المهندسون الكبار[2] والصناع الحذاق. والطبقة المثقفة الراقية من الشعب لا بد أن تتأثر بهذه الحضارة فتتطور في أفكارها وعاداتها، فتأخذ حظها من النعيم والرفاهية التي يتمتع بها الرومان، إذ كما سبق أن قلنا، من طابع البربري أن يأخذ، بواسطة الاحتكاك، ما يراه سبباً للترقية، مع الاحتفاظ، طبعاً بمقوماته الذاتية.

كان البربر وثنيين كما سبق الحديث عن ذلك، وقد تأثر القرطاجيون بعقائد البربر واتخذوا إلههم «عمون» رباً وسموه «بعلمهون» وعبدوه حسب

(1) Le Forum.
(2) أبوليوس Apulée

تقاليدهم، وصنعوا له تماثيل أخرى وقلدهم البربر في تلك التماثيل وعبدوا آلهتهم تانيت. ودعا «مصينيسا» البربر إلى عبادة آلهة اليونان فهي أجدى لهم. وجاءت وثنية الرومان فتعاشرت تلك الأديان وعاشت بين ظهران سكان الجزائر متآخية، وبقيت هكذا حتى ظهرت النصرانية.

نشأت المسيحية في المشرق وشاعت، فتسربت إلى الأوساط الرومانية بإيطاليا، ومن ثم انتقلت إلى إفريقية الشمالية حيث تزعمها الراهب القديس «سيبريان»[1]، وهذا الدين يدعو إلى الأخوة والعدل والمساواة، فاستبشر به البربر واعتنقوه حتى يكونوا أخوة الرومانيين في العقيدة فيكفوا عن اضطهادهم ويعاملوهم معاملة حسنة كما يأمر بذلك دينهم المشترك، لكن بدون جدوى، فبقوا يعانون من تعسّفات الرومان. فلم يلبثوا أن تركوا النصرانية الارثوذكسية يوم اعتنقها الرومان كدين رسمي في عهد «قسطنطين»[2] سنة 312م. فانشقوا هكذا عن الكنيسة تحت شعار «دونا تيسم» نسبة إلى راهب قرية بربرية يسمى «دونات»[3]، وما كاد القرن ينتصف حتى كان جل بربر المدن دونا تيسين. فإن سكان الجبال ظلوا بعيدين عن النصرانية، متمسكين بوثنيتهم إلى أن أشرق الإسلام في هذه الربوع فآمن به جميع البربر. وقد تنصر أولئك البربر لأغراض سياسية، غايتهم أن يقضوا على ظلم المتغطرسين الرومان الذي يتنافى والتعاليم المسيحية.

وقد تسربت اليهودية إلى بلادنا وكان الرومان النصارى يناهضونها. فتهودت بعض الفئات في جبال أوراس مثل قبيلة جراوة، وذلك مغايظة للرومان ومعاكسة لهم.

وإليك الآن بعض عباقرة البربر اشتهروا في الميدان الثقافي منهم :

---

(1) Saint Cipérian

(2) Constantin

(3) Dorrat

يوبا الثانـي:

هو ابن يوبا الأول: ولد سنة 50ق.م. ولما توفي والده سنة 46ق.م. كان ذا أربع سنين. فأخذه «يوليوس قيصر»[1] وتبناه، وسماه يوبا إحياء لاسم أبيه، وأعطاه تربية رومانية ليكون في المستقبل صديقاً للرومان. ولما توفي «يوليوس» خلفه «أغسطس قيصر»[2] فاعتنى هو الآخر «بيوبا»، فأعطاه لأخته «أكطافية»[3] زوجة «أنطونيوس»[4]. فاعتنت به وملأت قلبه بحب الرومان فنشأ رومانيا في عواطفه وعاداته واتجاهه. وكان يحمل وراثة أبيه. وقد لاحظ قيصر فيه ذكاء حاداً وطموحاً مفرطاً، فغرس فيه حب العلم، وعمل ما في وسعه ليضعف شخصيته الحربية حتى لا تسول له نفسه يوماً أن يثور على الرومان. فتلقى «يوبا» العلوم والفنون في معاهد روما من أساتذة رومانيين ويونانيين، فتضلع من اللغتين اللاتينية والإغريقية، وفتن خاصة بحضارة اليونان وشغف بأدبهم وفلسفتهم وفنونهم. فأصبح بعد حين من أكبر العلماء والأدباء، وأثنى عليه معاصروه والأجيال التي تلته لغزارة علمه وتفوقه في الأدب. فإن سكان أثينة أقاموا له تمثالاً بقرب مكتبه اعترافاً بفضله ونبوغه، ويرى فيه «بلوتارك»[5] أحسن مؤرخ أتت به الأيام، وقال في موضع آخر: «فهو عندنا من أكثر المؤرخين اليونانيين علماً بالتاريخ». ووصفه آخرون بتضلعه في العلوم المختلفة وبحياة قضاها في البحوث الأدبية.

وهذه الرغبة في العلوم التي اتصف بها هي وليدة مقامه بإيطاليا[6]، ولا غرو فإنه كان غريباً بعيداً عن الأهل والبلد، لم يشغله شيء عن المطالعة والبحث بروما ولا حين جلس على عرش آبائه، وكان يقول الشعر، ولا زالت بين أيدي الأدباء أشعار بعث بها إلى «ليونتوس»[7]، وكان هذا لم يحسن دوره في تمثيل مأساة «هسيبيل» لأنه أكثر من الأكل قبل

(1) Jules César
(2) Auguste
(3) Octave
(4) Antoine
(5) بلوتارك Plutarque.
(6) بلوتارك (césar) Plutarque.
(7) أثيني Athénée.

أن يمثل، فسخر منه لنهمه، فكان ذا ثقافة واسعة. نبغ في التاريخ والجغرافية والطبيعيات والنحو والفنون الجميلة وفي جميع أغراض الشعر، وكان يميل خاصة إلى العلوم اللسانية وكان يعتقد أن اللاتينية هي اللغة الإغريقية قد غيرها اللاتينيون بتوالي الأيام وأدخلوا فيها من لغتهم ، فأخذ يبحث عن أصل المفردات اللاتينية ، وكان يجمع المفردات الأجنبية ، فتعلم ألفاظاً عربية وهندية وحبشية[1]. فلا شك أن (بلين) قد أخذ عنه بعض الكلمات البربرية. واحتاج يوبا لبحوثه وتأليف الكتب إلى مكتبة وإلى خطاطين ، وكانت مكتبته غنية تحتوي على مخطوطات لاتينية ويونانية ومخطوطات بونيقية، وعلى كتب جده «هيمصال» والكتب التي استولى عليها غلوسة بن مصينيسا إثر سقوط قرطاجة[2]، وكان مغرماً بالبحث والاطلاع، فأرسل بعثات علمية للبحث عن منابع النيل[3]، وعن أصل جزر كناريا (الخالدات)[4]. لم يستفد وحده بما قرأ، أبى إلّا أن ينفع الناس ببحوثه. وكان في ذلك العهد ، عند اللاتينيين وعند الإغريق ، كتاب يقضون حياتهم في البحث والتأليف مثل «تيت ـ ليف» و«ديودور الصقلي»، وكان يوبا يحذو حذوهم. فوضع تآليف شتى كلها بالإغريقية، وكان «بلوتارك» يعده من الكتاب اليونانيين (قيصر). ولكن لم يبق من مؤلفات يوبا الثاني إلا شذرات منتشرة في كتب «بلوتارك» و«بلين» و«أثيني» وغيرهم. وجمع «مولار»[5] بعضها تحت عنوان: قطع تاريخية. والكتاب الذي يؤسف عليه هو ذلك الذي أسماه ليبيكا (ليبيا). فلا شك أنه أتى فيه بمعلومات مهمة جديدة حول بلاده. ويتألف من أجزاء في الجغرافية وفي الطبيعيات وفي الوثنية. فأكبر الظن أن ما وصل إلينا من حديثه عن النيل وجزر الخالدات والحيوانات التي تكثر في موريتانيا، والنباتات مثل الليمون[6] مصدره ذلك الكتاب. ويذكر اللغوي «اتيان بيزانص» كتاباً ليوبا تحت عنوانين: التاريخ الروماني أو الفن المعماري الروماني. وقدم «يوبا» تأليفاً عن الجزيرة العربية

(1) بلين Pline.
(2) سالوست Salluste.
(3) بلين Pline: Juba rex potuit exquirere.
(4) بلين Pline: Juba de Fortunatis ita inquisivit.
(5) مولر Muller.
(6) أثيني Athénée.

«لقايوس»[1] وقد اكتشف طبيبه «أوفرب»[2] عشباً يحد البصر وينفع ضد السموم. ففرح به الملك وأطلق على ذلك العشب اسم (أوفورب) وألف فيه كتاباً[3]. ولم يصل إلينا مؤلف آخر في ثمانية أجزاء يتحدث فيه عن الصباغة بقي منه قطع تتحدث عن آلات العزف لأقطار مختلفة وعن الرقص الإغريقي وغيره، وعن تاريخ المسرح. ومن كتبه أيضاً «فساد اللغة» في جزءين.

كان «يوبا» يحسن اللغة البونيقية التي لم تزل سائدة حينئذ في الشواطىء وفي الداخل، ولكنه لم يستعملها في نقوده، وكان يحب الإغريقية حبه للاتينية ، ومع ذلك لم يكتب اسمه على نقوده إلا باللاتينية يريد بذلك أن يبين وفاءه وإخلاصه للرومان الذين ربوه وأجلسوه على عرش آبائه، أما زوجته «كليوباترا سيليني» فكانت تكتب اسمها على النقود بالإغريقية (شكل 31). لم يتبنَ «يوبا» اليونانية بصفة رسمية مثل «كليوباترا»؛ ولكنه يفضلها على غيرها . فقد تعلمها بروما كما تعلم اللاتينية ، فهي أكثر أصالة من اللاتينية ، وهي لغة العلم والفلسفة والفنون فلا بد من استعمالها بجانب اللاتينية في بلاطه . فجميع أسماء العبيد كانت إغريقية تدل على ذلك الكتابات الموجودة على قبورهم باللاتينية . والقيصرية (شرشال) هي التي تركت لنا مع قرطاجة، أكثر كتابات عثر عليها في إفريقية الشمالية.

كان «يوبا» يعيش في جو هيليني[4] لا يفارقه طبيبه «أوفورب» وممثله «ليونتيوس»[5] وكتابه وصفوة المهندسين والفنانين.

جميع البنايات التي شيدت في عهده لنماذج للفن الكلاسيكي لا علاقة له بالفن البونيقي ـ الإغريقي القديم.

وكان يهوى التمثيل وألف فيه كتاباً تناول فيه الفن الدراماتيكي وشيد له مسرحاً.

---

(1) بلين Pline.

(2) Euphorbe

(3) بلين Pline.

(4) يوناني.

(5) Leonteus.

وقـد استقدم من إيـطاليا لفن الـزخارف اختصـاصيين وصقليـين ومشارقة قد عملوا بروما قبل أن يحلوا بالقيصرية.

أما تماثيل القيصرية فلم يعثر على مثلها عدداً وحسناً في أي بلد من بلدان إفريقية، وذلك يرجع إلى ذوق يوبا الفني (شكل 32). ولم يكفه ما أتى به من تماثيل اليونان. فقد استقدم أكبر النحاتين والنقاشين لصنع تماثيل أخرى عنده يزين بها القصور والمعابد والهياكل. وقد جاء هؤلاء الفنانون بآيات لا تقل روعة وجمالاً عن مثيلاتها في اليونان.

بشرشال الآن متحف وأطلال كلها تدل على مدى سعي «يوبا» في تزيين عاصمته ليفاخر بها أثينة وروما وقرطاجة. ولكن، كيف كانت حالة الشعب الجزائري في ذلك الوقت؟ فقد كان رازحاً تحت نير الاستعمار الروماني، كان المعمرون يسخرونه في مزارعهم ومعاملهم ويمتصون دماءه. أهمل «يوبا» رعيته ورماها في حمأة العبودية من جهة، ومن جهة أخرى أراد أن يبث فيها حب الثقافة والثقافة تتنافى والعبودية، فإن «يوبا» كان مثقفاً ثقافة واسعة وغير واعية في نفس الوقت.

كانت ثقافته بعبارة أصـح سلبية لأنـه لا يدرك قيمـة الشخصية الإنسانية، ولو كان يدرك حقيقة قيمة الشخصية، لأدرك قيمة بلاده وقيمة رعيته فلا يسعى في تخدير عقولها ومن ثم لا يكون ضدها وضد كيانها بل السعي لرفع مستوى المجتمع حتى يسلك طريقـه المستقيم حُرّاً نحو حيـاة قيادة واعية كأجداده الأولين، ولكن «يوبا» فقد وعيه إبان مقامه بروما فصار عاجزاً عن إنقاذ كرامة بلاده وكرامة رعيته من ظلم الرومان، وعن السعي لرفع مستوى المجتمع حتى يسلك طريقه المستقيم حُرّاً نحو الحياة الأفضل المبنية على الثقافة الواعية الخلاقة المنتجة.

إن الوضع كان في الجزائر يرثى له، ورغم ذلك قد أنجبت بلادنا كثيراً من العلماء الأدباء زاحموا علماء وأدباء روما.

من الشخصيـات التي تمثل الأدب في القـرن الأول الميـلادي

شخصية «مانيليوس»[1]. كان كاتباً بارعاً اشتهر بكتابة الفلكيات[2] عبر فيه عن أفكاره نظماً. ويمتاز هذا الكتاب بأسلوب منطقي يتفنن فيه بالنظام الطبيعي، ويصف مظاهر الطبيعة. يتحدث في أوله عن التنجيم مبيناً تأثير النجوم في حياة الإنسان. وفي الجزء الرابع يمجد ما وصل إليه الفكر الإنساني ويبين عظمة الإنسان وحقارته في وقت واحد. يقول كما قال «باسكال»[3] العالم الفرنسي: «تحتقر قوتك لأنها توجد في جسم ضعيف، فإن قوتك لعظيمة جداً، والعقل لقدير على كل شيء».

وبعد تمجيده العقل وتقدم العلوم يبين أن العبقرية تتولد من الاجتهاد، والحضارة من العبقرية. وبالاجتهاد والتأمل والحذاقة يتغلب الإنسان على الصعاب التي تعترض في طريقه وتحاول أن تصدّه عن الارتقاء إلى السماء. فلا بد من أن يصل إلى ما تصبو إليه نفسه، وذلك بفضل عقله، إننا شيء من هذا العالم الذي منحنا الحياة ونعرف مع ذلك ماهيته، نحن أبناء الكواكب فالارتقاء إليها ليس منه بد[4]

وهناك شخصية أخرى ظهرت في القرن الثاني الميلادي، وهذه الشخصية تتمثل في «أبوليوس»[5]. ولد «بمداوروش»[6] بين عامي 123 ـ 125م بنوميديا من أسرة ثرية عريقة الأصل إذ كان أبوه يشغل في بلده مداوروش منصباً ممتازاً (Duumvir) وهو يقابل وظيفة قنصل في روما حينئذ. تتلمذ أبوليوس لأساتذة بلدته، ولكنه لم يقنع بما أخذ فيها من العلم، فراح يبحث عن مناهل أخرى. فشخص إلى قرطاجة، وأقبل على العلوم فأتقنها وأصبح بارعاً في كل فن، يلقي المحاضرات القيمة فيستحسنها الناس ويقرون بنبوغه وغزارة علمه. وانتقل إلى «أثينا». ودرس هناك الشعر والهندسة والموسيقى والجدل وتأثر بالفلسفة الأفلاطونية، وكتب فيها كتباً أصبح بها أفلاطون مداوروش. ويظهر أنه

(1) Manilius
(2) Les Astronomiques
(3) Pascal.
(4) Monceaux
(5) Apulée
(6) Madaure.

جعل من أثينا مقراً له فيما بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين من عمره، وإن كان في أثناء تلك الفترة قد قام برحلات متعددة يطلب العلم ويسعى للإلمام بالمعارف الدينية والدنيوية الموجودة هنا وهناك. وفي الخامسة والعشرين من عمره غادر أبوليوس أثينا متوجهاً إلى روما حيث أخذ في دراسة اللاتينية ويكتسب قوته اليومي في نفس الوقت عن طريق الاشتغال بالمحاماة. والغالب على الظن أنه قام أثناء تلك الفترة القاسية من حياته بتأليف قصة الحمار الذهبي. وقبل أن يكمل عامه الثلاثين غادر مدينة «روما» قاصداً مسقط رأسه، لكنه سرعان ما اشتاق إلى السفر. فقصد الاسكندرية عن طريق ليبيا، لكنه مرض في الطريق، فلم يصل إليها وتوقف في بلدة «أويا»[1] الواقعة الآن بالقرب من مدينة طرابلس هناك تزوج «ايميليا بودنتيلا»[2] رغم إرادة أغلب أفراد أسرتها. وسرعان ما رفع أقارب «بودنتيلا» دعوى ضدّ «أبوليوس» يتهمونه بأنه استخدم السحر والشعوذة كي يخضع قلب «بودنتيلا» الأرملة العجوز ويجعلها توافق على الزواج منه، وعرضت القضية أمام حاكم الإقليم، لكن «أبوليوس» استطاع إثبات براءته في خطاب عنيف رائع وصلنا تحت عنوان الدفاع[3] أو السحر[4]. ويبدو أنه قد قام بعد ذلك بزيارة بعض الأقطار في آسيا الصغرى، ثم حضر إلى مصر، ثم اتجه بعد ذلك إلى قرطاجة حيث استقر هناك وعين كاهناً عظيماً[5] لعبادة «أوزيريس»[6]. فإن كتب التاريخ تنبئنا بأنه أصبح خطيباً مصقاعاً لدرجة أنه كانت تقام له التماثيل وتخلع عليه الألقاب الفخرية في المناطق التي يقوم بزيارتها. كان يتقن اللغة اللاتينية واليونانية على السواء، فنشر كتبه بكلتا اللغتين، وكان حاذقاً في الشعر والنثر وملماً بالأحداث التاريخية والمذاهب الفلسفية، ولقد انعكس كل ذلك على مؤلفاته المتعددة. فقد وصلتنا خطبته الرائعة التي ألقاها أمام الحاكم «كلوديوس ماكسيموس» حيث ينفي عنه تهمة ممارسته السحر

(1) Oea

(2) Aemilia Pudentilla

(3) Apoligia

(4) De Magia

(5) Sacerdos provinciae

(6) أحد آلهة مصر القديمة Osiris.

والشعوذة: تعتبر هذه الخطبة، وعنوانها الدفاع، من أطرف وأقدم الخطب التي كتبت باللغة اللاتينية، إنها وصف فريد للحياة في الأقاليم الرومانية وتصوير مشوق للخرافات التي كانت سائدة في عصر «أبوليوس»، وخلف لنا أيضاً مجموعة مختارة من الخطب الملتهبة التي تتناول موضوعات متنوعة تحت عنوان باقة من الزهور[1] ويحتمل أن يكون قد قام بإلقائها في فترة ما بين سنتي 160 ـ 170م.

وقد طرق موضوعات فلسفية في أعمال أخرى مثل مذهب أفلاطون[2] الذي يتحدث فيه عن سيرة أفلاطون ومذهبه الطبيعي وفلسفته الأخلاقية، وكتاب إله سقراط[3] ثم كتاب الكون[4]. وله كتاب في الأرتماتيك وآخر في التنجيم وثالث في الفلاحة. وقد بحث في أمراض الأعصاب، وسجل ما حصل عليه في كتاب سماه: البحوث الطبية، وقد اهتم بالفيزياء، وألم خاصة بعلم البصريات[5] يدل على ذلك المرايا الكثيرة التي كانت تملأ مخبره. أما أهم أعماله التي وصلتنا كاملة فهي قصته التي عنوانها كما جاء في المحفظوات القديمة: «التغييرات لأبوليوس المداوروشي»[6]، لكنها أصبحت تعرف فيما بعد بالحمار الذهبي، يصف فيه مجتمع قرطاجة. ويقارن هذا الكتاب بتاريخ «بنطاقرويال» لرابولي[7]، ومخاطرات «دون كيشوط» لسرفانتس[8]. فكلا الكتابين صورة ناطقة لمجتمع كاتبه. فإن الهدف من قصة أبوليوس لا بد من أن يكون هدفاً دينياً: فإن نهاية القصة تشير صراحة إلى أن مؤلفها لا بد أنه كان يقصد الدعوة إلى عبادة إيزيس[9] التي كانت منتشرة في العالم الروماني في ذلك الحين والتي كانت تنافس الديانة المسيحية. وكان لهذه القصة تأثير كبير على مجموعة من المفكرين والعلماء الروائيين.

---

(1) Florida

(2) De dogmate Platonis

(3) De deo Socratis

(4) De mundo

(5) L'optique

(6) Apulée Madaurensio metamorphseon

(7) Pantagruel (Rabelais)

(8) Don Quichotte (Cervantes)

(9) آلهة بمصر القديمة زوجة أوزيريس آلهة الطب والزواج والفلاحة.

ففي إيطاليا يظهر تأثيرها جلياً في أعمال كل من بوكاتشيو[1] وبوايااردو[2] وفي اسبانيا في أعمال كل من سرفانتس وكالذرون[3]، وفي فرنسا في أعمال كل من «رابولي» و«لافونتان»[4] و«فونتنل»[5] وفي ألمانيا في أعمال «فيلاند»[6] وفي بريطانيا في أعمال كل من «سبنسر»[7] و«هايوود»[8] و«كيتس»[9] و«وليان موريس»[10] و«بريدجز»[11]

قلنا أن أبوليوس قد أصبح كاهناً وبالرغم من ذلك فقد واصل ممارسته لمهنة الخطابة والمحاماة بل إنه في أواخر حياته كان يتولى بنفسه تنظيم مباريات المصارعة وعروض الحيوانات المفترسة التي كانت تقام في جميع مناطق إفريقية الرومانية، وكان أقوى الدعاة للفلسفة الأفلاطونية ومن أشد المتهكمين على المبادىء المسيحية.

فإن تآليفه الكثيرة تدل على عظمته العلمية، فإنها تعد في الجامعات الأوروبية اليوم، من أمهات المصادر اللاتينيــة. قال «أوقستين»[12] متحدثاً عن نبوغ «أبوليوس»: «إن أبوليوس هو الرجل الإفريقي الوحيد الذي يتمتع بالحظوة الواسعة لدينا، نحن الأفارقة»[13] وقال عنه بيروني: «إنه من أكمل الرجال وأعظمهم فائدة في عصره». وفعلاً هو أنبغ علماء عصره ورجل مؤسس لمبادىء كثيرة. قد زار مناطق كثيرة ذات ثقافات وتقاليد متنوعة. ولقد ساعده ذكاؤه الخارق على استغلال كل ذلك. فأصبح ذا خبرة واسعة وكفاءة منقطعة النظير لم تتوفرا عند غيره من معاصريه.

وكانت هناك شخصية تعاصر أبوليوس وتلك الشخصية تتمثل في «فلوروس أنيوس»[14]، إنه إفريقي ويعتز بإفريقيته، وأقام طويلاً بروما،

---

(1) Boccacio
(2) Boiardo
(3) Caldron
(4) La Fontaine
(5) Fontanelle
(6) Wieland
(7) Spenser
(8) Hey Wood
(9) Keats
(10) William Maurice
(11) Bridges
(12) أوغستين (القديس) Saint Augustin
(13) رسالة رقم 138 ـ: épitre
(14) Florus Aniius.

ومارس اللاتينية حتى أصبح بارعاً فيها. خلف مختصراً بهذه اللغة في الحروب التي دامت سبعمائة سنة. يتحدث في هذا الكتاب عن أسباب عظمة الرومان وتقهقرهم. فإنه سبق «منتسكيو»[1] في هذا الباب بثمانية عشر قرناً. فإنه فهم التاريخ فهمًا عصرياً فلسفياً تميز بذلك من جميع مؤرخي عصره في الشرق وفي الغرب. فإليه يرجع ظهور فلسفة التاريخ. وكان يعاصره «فرنطوس»[2]، ولد هذا بقسنطينة، تعلم اللاتينية وتعاطى الرياضيات، فأصبح لا يشق له غبار في الهندسة وأستاذاً في البلاط الروماني. ولا زالت مشاريعه ماثلة في روما والمغرب. تولى خطة الجبايات ونظارة الأبنية والملاعب، وكان محامياً وعضواً لمجلس الشيوخ. وأمثاله في الهندسة كثيرون شاركوا كلهم في الأعمال المعمارية. وهذه المدن البالية المنتشرة في الجزائر تعطينا نظرة عما وصلوا إليه من المهارة في هذا الفن. توفي فرنطوس سنة 175م.

وممن اشتهر في القرن الرابع «أبطات»[3] راهب مدينة «ميلة». ترك تآليف كثيرة أهمها تاريخ مذهب «دونات» والرد على مخالفي الكنيسة في سبعة أجزاء كتبه سنة 366م فكان أكبر أستاذ في علم اللاهوت وأقوى مدافع عن النصرانية والوحدة قبل أن تبرز شخصية أخرى كان خطرها عظيمًا في ذلك القرن. وتلك الشخصية تتمثل في القديس «أوقستين» ولد أوقستين «بتاجست» سوق هراس الحالية في اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر سنة 354 من أم مسيحية وأب لم يدخل إلى النصرانية إلا في أواخر أيامه. تعلم بالمكتب الابتدائي ببلدته؛ ثم انتقل إلى مداوروش، تلقى فيها دروسه الثانوية؛ ثم شخص إلى قرطاجة العاصمة الثقافية الرومانية بعد روما وقتئذ. وأحب أن يتسنم ذروة العلم، ففارق المغرب وأبحر إلى إيطاليا وجال في مدنها، فتبحر في العلوم اللسانية اللاتينية وافتتن بالأدباء مثل «فرجيل»[4] و«طيرانس»[5]، وبالمؤرخين مثل «سالوست»، وبالخطباء مثل

---

(1) Montesquieu
(2) Fronton
(3) Optat
(4) Virgil
(5) Térence

«سيسرون»، ولكن، قصر باعه في الحساب، والهندسة، والطب. لم يتأت له أن يذهب إلى بلاد اليونان ليكرع مباشرة من حياض ثقافتها كما فعل «أبوليوس». فقد قرأ أرسطوطالس عن طريق الترجمة. أخذ الفلسفة عن سيسرون. وثقافته الواسعة ساعدته على أن ينتصب إلى التدريس. فكان أستاذاً «بروما» و«ميلان»[1] سنة 383م. ولم يتقيد مدة شبابه بالدين ولا بقيود العفة. اعتنق مذهب ماني[2]. والمانوية[3] تقول: إن الإنسان مكّون من المادة فلا يمكنه أن يتحرر من تأثيرها إلا بالمعرفة. أعجب «أوقستين» بهذا المذهب إذ إنه يدعو إلى المعرفة. فانتحله مدة ثمانية أعوام، ثم حاد عنه لأنه تحقق أن العلم الذي تشبث به المانيون يخالف العلم الحقيقي. فوقع بعدئذ تحت تأثير مذهب الشكاك[4] ولكن سرعان ما أن صد عنه بآراء (سيسرون) حول المذهب الأفلاطوني الجديد. إلا أنه لم يجد فيه ضالته المنشودة فانزوى «بكاسيسياكوم»[5] تاركاً نفسه تسبح في التفكير لعله يجد سبيلاً يقوده إلى الحقيقة واليقين. فدعاه ضميره حينئذ إلى الإيمان. فعاد إلى بلاده سنة 388م وانتحل من ذلك الحين النصرانية وقرر أن يهب نفسه لله، فانزوى بدير يتعبد على مذهب الأرثوذوكسية[6]. فذاع صيته وذلك بالتدريس والتأليف. وأصبح من أكبر رجال الكنيسة، فعين على رأس أسقفية هيبون سنة 391م. وكان للمذهب الأرثوذوكسي مخالفون أشهرهم «دونات» وقد سبق الحديث عن ذلك. فتصدى «أوقستين» إلى معارضتهم وإحباط آرائهم باللسان تارة وبالقلم تارة أخرى وبكل ما فيه من قوة.

وافق «أوقستين» بين «أفلاطون»[7] وآراء عصره، وعرف كيف يلائم بين الفلسفة والدين وبين العقل والروح. فالعقل يعين الدين، فإنه يهذب النفس بالعلوم ويرقيها بالمعرفة، ومن ثم يطهرها من الأدران والضغائن

---

(1) Milan
(2) Mani
(3) Manicheisme
(4) Probabilisme مذهب الشك
(5) Cassisiacum
(6) السلفية.
(7) Platon

حتى تسمو وتتحد بالله. فالإنسان غير كامل يمكنه أن يخطىء فقال: «إن أخطىء فإني موجود، فإن الذي لا يوجد لا يخطىء، فبما أني أخطىء إني موجود» فنفهم من «كوجيطو»[1] أوقستين بأنه موجود فإذاً لا بد من أن يخطىء، فيجب عليه أن يمشي في سبيل التكمل بالتدريج حتى يصل إلى الكمال فيتحد بالله الكامل. وهذا الكوجيطو يذكرنا بكوجيطو «ديكارت»[2]: «إني أفكر فإذاً إني موجود». في فلسفة «ديكارت» الأولى الدليل الواضح على وجود الله وعلى التفرقة بين بدن الإنسان ونفسه. وصفة النفس هي الإحساس والتفكير: «أنا كائن وأنا موجود هذا أمر يقيني، ولكن، حتى متى أنا موجود؟»، «أنا موجود ما دمت أفكر، فقد يحصل أني متى انقطعت عن التفكير تماماً انقطعت عن الوجود بتاتاً»، فإذاً وجود ديكارت نهائي وتفكيره نهائي أيضاً إذ ينقطع بانقطاع وجوده، فلا يعود يفكر أي يشك ويفهم ويتصور ويثبت وينفي ويريد ولا يريد ويتخيل ويحس. وتفكيره هذا لا يمنعه من أن يكون عرضة للخطأ في أغلب الأحيان. وكل هذا يدل على أن الإنسان غير كامل وأنه متناه، وأن الله وحده الكامل والمعصوم واللامتناهي، لا يمكن أن يحيط به تمام الإحاطة موجود متناه مثله. ويفرض «ديكارت» أن فيه قوة على تحصيل الكمال بالتدريج، وهذه القوة لا تقترب أبداً من الفكرة التي لديه عن الله أي عن موجود كامل لا نهائي.

فيستنتج من هذا أن الإنسان مهما بذل للوصول إلى الكمال الذي يتصف به الله لا يمكنه البتة أن يتحد به ويذوب فيه. فهذا المبدأ يخالف مبدأ «أوقستين» وبالتالي مبدأ الصوفيين الذين يريدون أن يتحدوا بالله فيصبحوا هم إياه قادرين على كلّ شيء يسيرون الأكوان، ويمدون الشمس نوراً من نورهم، ويمنحون الأكوان أرواحاً من روحهم. فأنشد «الحلاج» في اتحاده بالله:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا

---

(1) مبدأ Cogito

(2) Descartes

وابن الفارض يبحث دائمًا عن الله ليقترب إليه ويتّحد به ويفنى فيه ويصبح قادراً على كل شيء يسير الأكوان ويمنحها أرواحاً، فقال في اتحاده بالله:

وها أنا أبدي في الحادي مبدئي وأنهي انتهائي في تواضع رفعتي

وها النابلسي يتّحد هو الآخر بالله ويقول:

أنـا النـور المبـين أنـا الحق اليقـين
أنـا القـرآن أتـلى أنـا الحبـل المتـين
أنـا عـرش التجلي أنـا الـروح الأمـين

فلنرجع الآن إلى مترجمنا «أوقستين» فإنه كتب تآليف نفيسة منها: «الاعترافات»[1] وهو آية أدبية لم يأت بمثلها أحد من رجال الكنيسة إذا استثنينا «خواطر» باسكال. فلا يعرف كتاب أشدّ تأثيراً منه في كل نصراني، فيهزه هزاً ويدفع به إلى التشبث بدينه. ومن كتبه أيضاً «مدينة الإله»[2] في 32 جزءاً، يجيب بها الوثنيين عن اعتقادهم أن المصائب التي ألمت بالأمبراطورية ترجع إلى نبذهم دينهم القديم[3]. فهذا هو الكتاب الذي بعث «بوسوية»[4] على تأليف خطبة في التاريخ العام، وشهرته التي حظي بها تعود إلى الاعترافات أكثر منها إلى مدينة الإله. فإن الاعترافات تجعله في مصاف أكبر كتاب الكنيسة، بل تبوئه المقام العالي في كل زمان.

وكان يعد في زمانه أخطب خطباء عصره[5] وأكثرهم تأثيراً في مستمعيه. نافح بالحجج الدامغة والجدل والمناظرة عن الأرثوذكسية، وناضل ضد جميع المذاهب التي وقفت حجرة عثرة في تقدم الديانة المسيحية. وبفضله أصبحت هيبون كعبة طلاب العلم اللاهوتي، وكان من تلاميذه «أليبو»[6] و«أيفود»[7] و«أديودات»[8]. فترامت شهرته داخل البلاد

(1) Les Confessions
(2) La Cite de Dieu
(3) الوثنية.
(4) Bossuet
(5) قال بيروني: هو أخطب خطيب لطيني وأكبر مفكري كل زمان.
(6) Alipu
(7) Evode
(8) Adeodat

وخارجها. ولا زالت خزائن الكنيسة تحوي مائتين وستين رسالة من رسائله تدل على اتصاله بإيطاليا وغالة وأسبانيا والشرق وفلسطين ومصر، استفتاه الناس من جميع الطبقات، فأجاب الجميع وعن جميع الأسئلة، استفتاه الأساقفه وأكبر الموظفين، واستفتاه الرهبان كذلك، فكان نبراس الكنيسة، فقال فيه البابا يحيى الثاني[1] سنة 534م.

«إن أوقستين هو الذي طبع الكنيسة الرومانية بطابعه. فلا زالت تتبع أثره وتحتفظ بنظرياته» ولم يؤثر من الجهة الدينية فحسب، فإن أفكاره السياسية والاجتماعية أثرت تأثيراً بليغاً في بعض الضمائر والحوادث. وفي سنة 422م عين «بونيفاس» الروماني والياً على إفريقية. وفي سنة 427م أزمعت الأمبراطورة «بلاسيديه»[2] على عزله. فنهض أوقستين مدافعاً عنه أمام الأمبراطورة وعمل ما في وسعه على تحسين العلاقات بينها وبين «بونيفاس». وكانت حوادث بين «بونيفاس» والوندال، وقد دارت الدائرة فيها على «بونيفاس». فقام حينئذ «أوقستين» في وجه المعتدين، وكافح بجنب بني جلدته بكل إخلاص مدة 14 شهراً إلى أن توفي 27 أوت سنة 430...

فيتراءى لنا مما تقدم أن «أوقستين» كان أحد رواد الفكر في الجزائر وزعماء الوطنية.

وممن اشتهر بعد القديس «أوقستين» «سيدونيوس»[3] أبولينار قرطاجة استاذ «برتيناكس»[4] الذي صار امبراطوراً، و«أولوجيلي [5]» شرشال الذي اشتهر بالعلوم المختلفة، وكتب «ليالي أطيكا»[6] التي قارنوها بمحاولات «منتاني»[7] والمؤرخ «أوريليوس فكتور»[8] الذي قال عن البرابرة: «أظن أن سلالتنا مجدودة ومجبولة على إنجاب الفضلاء، فكل أبنائها الذين أنجبتهم وكونتهم نراهم يصلون إلى أعلى المناصب». وقد صدق في قوله هذا، فإن

---

(1) Le Pape Jean II
(2) Placidia
(3) Sidonius Apollinaris
(4) Pertinax
(5) Aulu-Gelle
(6) Les Nuits d'Attique
(7) Montaigne: Les Essais
(8) Aurelius Victor

إفريقية الشمالية كانت دائمًا منبتاً خصباً لرجال عظام وعلماء كبار في العهد القديم، وذلك بفضل ما جبلوا عليه من روح الابتكار والخلق[1]. ولا عجب أن يصبح هذا المنبت أكثر خصباً في العهد الإسلامي يزخر بالشعراء والكتاب والخطباء والعلماء والمفكرين. وإن ننس فلا ننس «مكروب»[2] المعاصر للقديس «أوقستين». كان والياً باسبانيا وغالة من قبل روما وكان فيلسوفاً وكاتباً، خلف كتاباً يدعى «ساتورنال»[3] يتناول فيه حواراً بين عباقرة مفكري عصره وتعليقاً كذلك.

هذه هي بعض الشخصيات التي نبغت من البربر فيما قبل الإسلام في السياسة والعلوم والآداب والفنون والدين، وعاشروا الفينيقيين وصاهروهم وامتزجوا بهم، وكان لهذا الامتزاج الأثر المحمود. فاستفادوا من أعمالهم العمرانية ومن نشاطهم التجاري ومن حرفهم وصنائعهم، وأخذوا عنهم غرس العود الرقيق وتربية الحيوانات، وحاكوا في بناءاتهم فنهم، فإن طول مكوث الفينيقيين بإفريقية وحسن معاملتهم مع الأهالي غرسا حضارتهم في نفوس أجدادنا غرساً لم يزل بزوال ملكهم، وتسلط الرومان على بلادنا وحافظوا على الحضارة الراقية التي أنشأها البونيقيون والدول البربرية وزادوا فيها واهتموا بالفلاحة، فازدهرت حتى صارت الجزائر خزينة «روما» تمونها قمحاً وزرعاً ثم ضرعاً، ولكن ذلك بفضل جهود البربر المسخرين في حقول المعمرين الأجانب. ونشروا ثقافتهم، ومن غرائز البربر أن يستفيدوا ممن عاشرهم، فاقتبسوا منهم عوامل الرقي، ولم يدفعهم إلى هذا الاقتباس إلا رغبتهم في التطوير ونزوعهم للكمال. فكان منهم عباقرة في العلوم اللسانية واللاتينية والرياضيات، والفنون، وذلك بدون أن تتغير شخصيتهم رغم محاولات الرومان أن يجردوهم منها وأن يذيبوهم فيهم. فبقي البربر متمسكين بها رغم السياسة الاستعمارية التي كانت الجزائر رازحة تحتها فإن البلاد كانت زاهرة. قال مرسي: «كان

---

(1) يقول مونصو: المنطقة التي انتشر فيها نفوذ اللاتينية هي التي أنجبت أكبر العلماء.

(2) Macrobe

(3) Saturnales

بروكوب المؤرخ البيزنطي، لما نزل إفريقية مع بليزار، قد دهش من عمرانها ونشاط تجارتها ونفاق أسواقها وازدهار فلاحتها». ولما سقطت حكومة «روما» واستولى الوندال على البلاد كثرت الاضطرابات والنوائب، ومن الطبيعي أن يزول ذلك الازدهار ويتقلص ظل الثقافة والعمران. فقال بروكوب: «لكن بعد عشرين عاماً لم يبق شيء من ذلك، وعم الخراب جميع إفريقية ويقال إن الحروب وحكومة «جستينيان» أرزأتا إفريقية خمسة ملايين من الأنفس» ولا ندهش من هذا العدد من جراء كثرة الحروب المذهبية والمعارك التي شنها الوندال ثم الروم على البربر ومخالفيهم في العقيدة، وها هو «بيروني»[1] يؤكد لنا ما قاله بروكوب: «القرن الرابع الذي سقطت فيه حكومة روما والقرن الخامس الذي استولى فيه الواندال على الجزائر والقرن السادس الذي مكن فيه البيزنطيون نفوذهم بإفريقية هذه القرون كانت قرون أهوال وحروب مبيدة»، ثم قال: «وقد كانت هذه القرون علة في مرض إفريقية مرضاً اجتماعياً واقتصادياً، ذهبت الفنون الجميلة، وعطلت الأراضي الفلاحية، وتنوسيت الأساليب العملية، وتكاثرت اللصوصية حتى صار الناس يفزعون إلى الغابات ويختفون بالشعاب، وتعطلت التجارة، وخشي الناس المجاعة». فلم ينتفع البربري من استعمار الوندال والروم في شيء، فالوندال لم يكونوا أهل حضارة، لم يفيدوا الوطن لا بعلم ولا بصناعة، وحكموا بالاستبداد، وأضروا بالأهالي، واتبعوا سياسة دينية متطرفة، أما الروم فكانت لهم حضارة، ولكن، لم يستعمروا بلادنا ليبثوا فيها هذه الحضارة، فالكنائس والبنايات التي خلفوها في البلاد لا ذوق فيها: ومن العجب أن برز في عهدهم من الأهالي الشاعر «كوريبوس» صاحب منظومة اليوحانية وهي ملحمة تاريخية مهمة جداً. لكن الضغط والقساوة والوحشية التي عاملوا بها السكان كانت خير معين على إيقاظ وعيهم وزيادة حبهم للحرية حدة. فثاروا ثورة عارمة كسرت أغلال العبودية وقهرت ودمغت العدو[2]، ومن حسن حظ الشعب

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي جـ - صـ: 376-377.

(2) ظهرت وقتئذ إمارة بنواحي فرندة تدل على وجودها تلك المخلفات الجنائزية، (شكل 33)

أن جاء وقتئذ قوم وبيدهم الكتاب المنير ينشرون العقيدة السمحة التي تأمر بالتقوى والعدل والإخاء والمساواة والخير للإنسانية جمعاء. فمن هؤلاء القوم الذين دخلوا هذه الأرض فأنقذوها من شر الاستعمار وأرجعوا لسكّانها حريتهم وسيادتهم؟

= وهي عبارة عن جثوة من الحجر على شكل مخروط يحيط بها جدار على شكل مربع ويُدخل الزوار إلى الهيكل من علٍ. والسلم يؤدي إلى سرداب يوجد على جوانبه غرف توضع فيها الجنائز.

الفصل السادس

الجزائر العربيّة

ظهور الإسلام
انتشار الإسلام والعربية في الجزائر.
الجزائر الأغلبية: طبنة.

في العهد الذي كان الروم بالجزائر وقع حادث كان له أثر خطير في مجرى التاريخ، ذلك هو مبعث محمد ﷺ، في الجزيرة العربية، ونزول القرآن الكريم وانتشار الإسلام وقيام العرب بالفتوحات: فدان لهم العراق وفارس ومشارق الشام شرقاً، ثم مصر وبلاد أمازيغ والأندلس غرباً. ولكن فتح العرب يخالف الفتوحات التي عرفها التاريخ من قبل. فهو فتح ثقافي، خرج العرب من الجزيرة العربية وبيدهم كتاب منير أنزله الله على نبيه محمد ﷺ، يريدون نشره وتلقين ما فيه من دين وأخلاق، وتطبيق ما فيه من سياسة وثقافة. ينادي بالمعرفة والحرية والإخاء والعدل والمساواة. وهذه المبادىء كلها تتفق وطبيعة الشعوب التي ترزح تحت استبداد رؤسائهم أو رجال الدين أو المعمرين. حمل الإسلام استقلال شخصية الإنسان. فالمسلم حر يتحمل مسؤوليته وحده ويخاطب ربه بدون واسطة. فوجد الجزائريون في القرآن ضالتهم الروحية، فتوحدت صفوفهم في العقيدة، فلم يبق هذا وثنياً والآخر مسيحياً، ووجدوا فيه ضمانتهم العقلية، فتعلموا وأصبح منهم العلماء والمفكرون، ووجدوا فيه أيضاً متنفسهم الاجتماعي، فقد سوى بين العنصرين العربي والبربري، فقال الله عز وجل: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وقال محمد ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى». ويتصف الإسلام بمساحة كل الأديان ولا يعادي عقيدة من العقائد السماوية. وإنما ينكر الوثنية. ولقي الجزائريون في السيرة النبوية رائداً للشخصية الإنسانية الكاملة التي تحث على الخير والمحبة والصلاح.

وهذا الكتاب قرآن عربي، وهذا الحديث عربي أيضاً، فلا يفهمها إلا من كان يعرف العربية، والبربر في ذلك الحين كانوا يتكلمون اللغة البربرية الممزوجة بالبونيقية، فلم يكن لهم بد من أن يقبلوا على لغة الضاد ليفهموا دينهم الجديد ويتفاهموا مع العرب إذ أصبحوا أخوة لهم وممتزجين بهم. فيسر لهذه اللغة أن تنتشر في الأوساط الجزائرية وبسرعة، إلا أننا لا نتعجب من هذه السرعة فلها أسبابها. فهي لغة راقية، لغة دين وثقافة، ثم شقيقتها الفينيقية التي سبقتها إلى هذه الديار مهدت لها السبيل للانتشار، لقد قال «كزال»: «يتحتم علينا أن نفرض أن البربر تبنوا لغة الإسلام لأنهم تعلموها بدون مشقة لمعرفتهم للبونيقية التي لا تختلف عنها كثيراً»[1] وقد بين «ابن خلدون» أن قبائل عربية وقبطية وكنعانية تجمعت في الشام وبها غزا فريقش الحميري ليبيا، وأعجبت البلاد هؤلاء الناس فاستوطنوها، فكان منهم قبيلتا كتامة وصنهاجة على قول الطبري وغيره من النسابين، وجاء في تاريخ زواوة «لأبي يعلى» أن علماء الأثر اكتشفوا الخط الحميري منقوشاً على حجر من قرى إفريقية. ومهما تكن قيمة هذه الأخبار، فالواقع أن لغة العرب والمشارقة وحضارتهم غزتا الوسط المغربي منذ عهد سحيق وظلتا كما يقول «كزال» تحت الرماد طوال عهد الرومان والوندال والروم إلى أن جاء الإسلام فوجد في قرطاجة جرثومة مشرقية لم تندثر بل كانت مستعدة للتفتح والازدهار. واستمرار البونيقية في إفريقية الشمالية كانت له في نظر «كزال» ذيول أخرى منها الديني ويتمثل ذلك في عبادة «بعل» مثل العرب. ومنها العادي. فاختلط العرب بالبربر وامتزجوا، بعضهم ببعض، فتصاهروا وتساكنوا وتعاشروا في المدن والبوادي. قال «قوطيي»[2]: «إننا نلاحظ خلال مجموع تاريخ إفريقية الشمالية تجاذباً بين الرحل والعرب، ذلك لأن تشابه مناهج الحياة والعواطف الجوهرية أقوى من اختلاف اللغات». وقال «رونان»: «إن دعائم الوطن الوحدة الروحية

---

(1) تاريخ شمال إفريقية جـ 4 صـ: Gsell 498.

(2) صـ: (254) E._F. Gautier عن مظاهر الحضارة المغربية. الطبعة اولى سنة1958 صـ: 6 لعبد العزيز بن عبد الله.

وأهمها وحدة الدين والعواطف، فالمغرب الذي احتك نحو ألف من السنين بالحضارة القرطاجية والبونيقية الشرقية قد احتفظ في قرارة نفسه بإحساسات واستعدادات فطرية نصف لاشعورية تتفتح للإسلام. لهذا فقد اندرج في بحبوحة الإسلام بالمغرب كل من له فكر مثقف، وكل من يحس بالحاجة الملحة إلى لغة مكتوبة وإلى أدب»[1] وأدب البربر قد حدثناك عنه فلا نسبة بينه وبين الأدب العربي.

فاللغة العربية غزت الوسط البربري وتمركزت فيه، وحضارة أي أمة بما فيها من عقائد وعوائد وأخلاق ومعارف إنما تسري لأمة وتثبت فيها على سريان لغتها بين أفراد تلك الأمة الأخرى وثبوتها في أجيالها[2] ولما دخل العرب إلى المغرب كان انتشار لغتهم به مسايراً لجنودهم، فما فتحت قطعة حربياً إلا انتشرت بها لغتهم، وكان لذيوع حضارتهم بين البربر نفس السرعة التي كانت لفتوحهم قال «كزال»: «هذا القطر الذي تقاتل عليه الشرق والغرب والذي ترك كل طابعه والذي اختلط فيه الرومان والروم ليغرسوا به المسيحية اللاتينية أصبح من هذا الحين كله شرقياً وانقضى بذلك عصر الاتحاد اللاتيني الذي كان حول البحر الأبيض»[3]

فأخذ البربر يقرأون القرآن ويتعلمون العربية باحتكاكهم المستمر بالعرب وبالإنصات إلى الدروس الدينية التي كانت تلقى طبعاً بالعربية منذ أن وطئت أرجل العرب أرض البلاد. إن «موسى بن نصير» قد أجدى بعد «عقبة بن نافع» في المغرب بجماعات الفقهاء التي يرسلها في النواحي التي يغزوها، فتفقه البربر في الدين وتنشر فيهم القرآن وتعلمهم العربية. وكان بعده «إسماعيل»، من كبار التابعين، كان يعتني بتلقين المسلمين الجدد تعاليم دينهم وتثقيفهم بالثقافة الإسلامية، فأسس كثيراً من المساجد في أنحاء المغرب، فأقام فيها الفقهاء للوعظ والإرشاد، وجعل بجانب كل

---

(1) نفس المصدر.

(2) الفتح العربي.

(3) الجزائر في القديم صـ: 142.

مسجد كتاباً لأبناء البربر يعلمهم العربية والدين. وقد أرسل «عمر بن عبد العزيز» مع «إسماعيل» هذا إلى المغرب بعثة علمية لتعين الوالي على تثقيف البربر تتكون من عشرة من علماء التابعين، وأمرهم أن يتوزعوا في أرجاء المغرب ويكونوا أركاناً وطيدة لهذه الرُّقعة الإسلامية الجديدة لتنوير العقول وتطهير المجتمع البربري من عاداته في الجاهلية. ولا زال العرب يفدون من المشرق على المغرب إلى منتصف القرن الثاني من الهجرة لتوطيد أركان سلطانهم وقمع ثورات البربر الخارجين عليهم. ثار البربر على العرب ولكن، لم يفكروا يوماً واحداً في رفض لغة العرب وديانتهم والرجوع إلى اللغة اللتنية والدين المسيحي أو اليهودي أو الوثني. فبقي مؤلفوهم في التوحيد والفقه والتاريخ يكتبون تآليفهم باللغة العربية وملوكهم شادوا قصورهم على الفن العربي وصارت بعض القبائل البربرية تلفق أنساباً تتصل بها من العرب»[1]. ويحدثنا التاريخ أن البربر سعوا دوماً في توطيد أركان الإسلام والذود عنه، فمن الأسباب الكبرى التي جعلت «موسى بن نصير» يقدم على فتح الأندلس القوة الجديدة التي تكونت للدولة الإسلامية من البربر المسلمين. إن الاثني عشر ألفاً من جند أوراس الذين ضمهم «حسان بن النعمان» إلى الجيش الإسلامي اقترحوا على «موسى» أن يقيم حرباً على الأندلس لينتقم من ملكها «رودريك»[2]. فكتب «موسى» إلى «الوليد بن عبد الملك» يستأذنه ، فأذن له. وساعد البربر أيضاً على فتح صقلية وسردينيا وإيطاليا. والحاصل أن البربر كانوا يميلون إلى الطاعة والنظام حينما تكون السلطة القائمة بالقيروان عادلة تسعى في سعادة المسلمين على اختلاف أرومتهم. ولكنهم لم يطيقوا صبراً بجور وتعنف بعض الولاة وعمالهم الذين أرادوا أن يتصرفوا في المغرب على حسب مزاجهم فاحتقروا البربر. والبربري غيور على حريته وشرفه ومبادىء إسلامه، يريد أن يكون الوالي، الممثل للسلطة الحاكمة، قدوة للشعب، لا يفرق بين عناصره، ويطبق تطبيقاً دقيقاً ما جاء به القرآن والسنة، وبلغ

(1) تاريخ الجزائر للميلي جـ 2 صـ: 36.
(2) Rodrigue.

السيل الزبى لما رأوا من الأمويين ميلهم للعرب، والإسلام قد سوى بين المسلمين إذ: إنما المؤمنون إخوة. فنفروا منهم، وثاروا عدة مرات. وزاد غضبهم حدة حيث ظهرت الخارجية في المغرب التي تدعو إلى ما يساير نزعات البربر من إباء وحب الحرية والديمقراطية والمساواة. فتأثروا بمبادئها وسعوا كل السعي في انفصالهم عن العباسيين، واستردوا شخصيتهم القومية، وكونوا دولهم، إلا أن هذا الانفصال عن إخوانهم المشارقة كان تعبيراً عن شخصية الوطن ليس غير، لأنه قام به ذلك المزيج العربي البربري المعروف باسم العرب الأفارقة.

إن الوفود التي كانت السلطة المركزية ترسلها إلى المغرب تقصد القيروان وتستقر بها ريثما يفرقها الوالي على المعاقل العسكرية في إفريقية ومناطق الزاب مثل طبنة وباغاية وبلزمة وبسكرة. ومن بين هؤلاء الجنود صناديد مشهورون بالشجاعة والفصاحة، وقد شهدوا وقائع بالمشرق، وحدثت في المغرب حروب ووقائع شاركوا فيها، فكانت تجيش قرائحهم أثرها بقطع من الشعر. وإليك نموذجاً من هذا الشعر من قصيدة قالها «سليمان بن حميد» الغافقي في أحد مواقفه مع بعض ثوار البربر.

وما إن صددنا عنهم خوف بأسهم — وحاشا لنا أن نتقي بأس بربرا
وأنا إذا ما الحرب أسعر نارها — لنلقى المنايا دارعين وحسرا
ونغدو بصبر حين تشتجر القنا — فلست ترى منا على الموت أصبرا
ولكن أردنا ذُلَّ قوم تطاولوا — علينا وأبدوا نخوة وتكبرا

وقد قال الحافظ «ابن الأبار» في «سليمان»: «فارس العرب قاطبة بالمغرب في عصره وأحسن الناس لساناً وأبلغهم إلى معرفة بأيام العرب وأخبارها ورواية لوقائعها وأشعارها، مع دعابة كانت فيه وعبث لا يدعه، حملت عنه في ذلك نوادر مستظرفة وحكايات مستملحة»[1]. وكان «بنو غافق» بالأربش التي كانت وقتئذ من أهم المعاقل الحربية للعرب في الناحية

(1) ابن عذاري جـ 1 صـ: 37.

الغربية من إفريقية إذ كانت واقعة على تخوم جبال أوراس العامرة بالبربر من كتامة وجراوة وغيرهم.

وإذا سكنت الحروب رجع هؤلاء الجنود إلى معسكراتهم واجتمعوا بإخوانهم العرب والبربر، سامروهم بأخبار الجاهلية والإسلام، ورووا لهم ما يحفظون من الشعر في أيام العرب. وهكذا تسربت إلى أبناء المغرب المستعرب معرفة أخبار العرب وآدابهم في الجاهلية والإسلام.

وتقاطر الشعراء على المغرب في عهد الأمويين والعباسيين، وأقاموا سوق العلوم واللغة والأدب في عصر الولاة. وهؤلاء الرواة الذين اجتهدوا في نشر العربية وآدابها بين طبقات المتعلمين من أبناء البلاد ومهدوا السبيل لظهور نهضة علمية وحركة فكرية بلغت ذروة الخبرة والازدهار في مدة كل من الأغالبة والفاطميين والأمراء الصنهاجيين[1]. أسس «عقبة بن نافع» القيروان سنة 51 هـ. وصارت دار علم يشد إليها الرجال من جميع أنحاء المغرب، يؤمونها لتلقي أصول اللغة وفروعها وقواعد الأدب وفنونه على أساتذة قادرين حذقوا العلوم اللسانية وتفننوا في تأليف الكتب في أغراضها بما يضاهي ما كان يصدر عن كبار النحاة واللغويين في المشرق.

وكانت قاعدة أخرى للمنفوذ العربي تقع في وسط إقليم الزاب، تلك الحاضرة هي «طبنة». فقد لعبت دوراً هاماً في عهد الرومان، وقد تضررت من إغارات البدو في عهد الفوضى والاحتلال الوندالي إلى البيزنطي، ولكنها استقبلت عهداً جديداً عندما فتحها العرب في عهد «موسى بن النصير»، وكان حاكمها وقتئذ «كسيلة». فأصبحت تابعة لولاة العرب وعمرتها أسر عربية إسلامية. ولكن، أثناء الحركة الخارجية تضررت كثيراً بالتخريب الذي قام به البدو، فجدد بناءها الوالي «عمر بن حفص المهلبي» بأمر «أبي جعفر المنصور» العباسي سنة 154 هـ. ولكن الثورة الخارجية وصلت إلى أقصاها حينئذ. فتجمعت أحلافها من كل مكان، وفرضت على طبنة حصاراً طويلاً، لأنها كانت تابعة للسلطة المركزية

---

(1) ورقات جـ 1 صـ: 165.

العباسية، والبربر كانوا ساخطين عليها متذمرين من حكمها. وكانت معقلاً حصيناً للمذهب السني، والخوارج كانوا ضده ويريدون محوه من المغرب. لكن طبنة صمدت للمحاصرين وأصبحت من أهم مراكز بني الأغلب الحاكمين باسم العباسيين في إفريقية ومنطقة الزاب. فحصنوها تحصيناً قوياً وحشدوها بالجنود وأنشدوا لحكمها خيرة رجالهم[1]، فأضحى لبني الأغلب ثلاث حواضر كبرى تزخر بالعلماء والأدباء: اثنتان بالقطر التونسي وهما القيروان وتونس والثالثة بالجزائر وهي طبنة. وكان يقابلها تيهرت وتلمسان بالجزائر أيضاً وسجلماسة ونكور بالمغرب الأقصى. هذه هي عواصم الثقافة في المغرب العربي لذلك العهد.

وظهرت الشيعة، واقتحم الشيعيون طبنة، ففقدت بذلك أهميتها كعاصمة إقليمية. وبظهور البدو الهلاليين تضررت طبنة ومدن الحضنة كلها بالإغارات التي كانوا يشنونها عليها من حين لآخر، فخربت ولم يبق إلا اسمها. ونشأت على أنقاضها بريكة. وسكان طبنة كانوا خليطاً كما شهد بذلك المؤرخون الذين زاروها وقتذاك، وما ذهبوا إليه صحيح لأن تلك المدينة كان يسكنها عناصر مختلفة في الأطوار التي عاشتها. كان بها البربر وعناصر من الجند الروماني والوندالي والبيزنطي ثم العرب ثم جنود بني الأغلب وهم كذلك خليط من فارسيين وسوريين وعراقيين وغيرهم. وفي القرن الخامس قصدها عرب بني هلال والأثبج وبني سليم وزغبة.

كانت طبنة دار علم، ولكن، لم تبلغ شأن القيروان في أوائل القرن الثاني، فإن القيروان منذ أسست أخذت تستقبل الفقهاء والوعاظ والشعراء لأنها كانت مركزاً للوالي، وكان حظ الجزائر من هؤلاء الرجال ضعيفاً، فلم يتح لها أن تمارس ضروب الثقافة مثل القيروان. ولكن، لم ينتصف القرن الثاني حتى أخذت مدن الزاب الجزائري تقلد عاصمة إفريقية الكبرى في العلوم الدينية واللسانية والأدب. فنشطت طبنة وصارت قاعدة الجزائر الشرقية في الحركة العلمية والأدبية. وأهل العلم سواء في القيروان

(1) المجاهد الثقافي عدد 6 شهر ماي سنة 1968.

أو في طبنة وغيرها من مدن الزاب كانت عيونهم متجهة إلى المشرق في اقتباس حضارته ومدنيته وفي تغذية عقولهم بثقافته العلمية الغنية.

والعلماء في هذه الفترة كانوا رواة ونقلة في أمور الفقه والتفسير والحديث. فقاموا برحلات إلى المشرق، فكرعوا أثناءها من حياض العلم في الحجاز وفي الشام والعراق ومصر أيضاً، بحيث لم ينتصف القرن حتى تكون شيوخ في مختلف العلوم، بل كان أكثر من هذا أن هؤلاء الشيوخ شرعوا في طريق التخصص وأقبلوا على التدوين في الفقهيات، ومن بين الجزائريين الذين شاركوا في هذه الحركة الأولى «أبو القاسم الزواوي» الذي روى عن «مالك»، وأخذ عنه «أبو العرب» صاحب طبقات علماء إفريقية، فأخذت الثقافة العربية الإسلامية تظهر جلياً في هذه الفترة. ولكن الفقه طغى على الفنون الأخرى بحيث نجد الفقهاء أكثر عدداً من الأدباء وأولئك أنفسهم لهم إلمام كبير بالفقه لأن الحالة الاجتماعية كانت تدعو إلى تعاطي العلوم الدينية أكثر من غيرها فتمحي بقايا الجاهلية من جهة ويندثر أثر الخارجية وغيرها من جهة أخرى، فتتوحد صفوف المسلمين وراء المذهب. وبذل الفقهاء جهوداً لا تنكر، لازموا الدروس في المساجد ومنازلهم، وكتبوا التآليف، وأصبح لهم مكانة عظيمة عند جميع الشعب الخاصة منه والعامة يستفتونهم في أحكامهم ويستعينون بهم على حل مشاكلهم. فهؤلاء الفقهاء قد نبذوا عقائد المعتزلة ومبادىء الخوارج، وقاوموها مقاومة عنيفة، وتمسكوا بالكتاب والسنة تمسكاً شديداً حتى أنهم رفضوا القياس والإجماع، وابتعدوا عن مذهب أبي حنيفة الذي اشتهر بالرأي والقياس. وأقبلوا على الأخذ بما جاء به من حضر مجالس مالك بن أنس بالمدينة.

وما يجدر بالملاحظة أن أمراء إفريقية من العرب في هذه الفترة إلى آخر عهد الأغالبة اعتمدوا على العراقيين من فقهاء المذهب الحنفي، وبذلك انقسم أهل المغرب إلى قسمين، فالحكام كانوا على مذهب أهل العراق والأفارقة وزعماؤهم من الفقهاء كانوا مالكيين.

تسربت في أيام «هشام عبد الملك» (105 ـ 125هـ) الخارجية إلى المغرب، وبث دعاتها مبادئهم في البربر، فأعجبت به طائفة عظيمة منهم مثل: زناتة وهوارة، وانقسموا إلى صفرية وأباضية، وبلغ عددهم أيام عمر ابن حفص أربعين ألفاً من الصفرية وعشرين ألفاً من الأباضية، وحدثت اضطرابات وفتن كان لها الأثر السيء على المجتمع. ودام الأمر كذلك إلى أن كون «إبراهيم بن الأغلب» ولاية إفريقية، وبنو رستم إمارة تيهرت، والعلويون إمارة تلمسان. تبعت الجهة الشرقية من الجزائر سنة 184هـ. الأغالبة وعاصمتها «طبنة» إلى أن قضى عليها «أبو عبد الله» الشيعي بدعوة الفاطميين سنة 296هـ. وكانت تمتد هذه الولاية من بجاية إلى الصحراء وتشمل ميلة وباغاية وتهودة وبوسعادة.

منذ مطلع المائة الثانية أخذت تدور بالمشرق مناقشات أثارتها الفرق المختلفة من مرجئة ومعتزلة وقدرية وجبرية زيادة على الخارجية، ومن البديهي أن تنعكس هذه المناقشات والمجادلات الكلامية على أهل المغرب. فعقول البربر قد تَفَتَّحتْ وتطورت حينئذ، والدين الجديد استقر في نفوسهم، وأرادوا أن يتعمقوا فيه ويستقصوا في زواياهُ. فكانوا يترددون في رحلات متعددة على أرض المشرق للحج حيناً وللدراسة والتوسع في العلوم وللتجارة أحياناً. فمن الطبيعي أن يعودوا إلى بلادهم مزودين بالأفكار التي سمعوها من إخوانهم المشارقة. وينقلوها إلى أهلهم وأصدقائهم. إلا أن هذه الآراء الكلامية لم تكن تمثل الآراء الغالبة على أهل المغرب، فالذين كانوا يناقشون فيها قليلون بالنسبة إلى المالكيين.

أنجبت الجزائر الأغلبية أعلاماً شاركوا في دراسة الفقه وروايات الحديث. فمنهم «إسحاق بن أبي عبد الله بن عبد الملك الملشوني» شيخ أمراء بني الأغلب ونديم بلاطهم. جالس الإمام (سحنون) بالقيروان وأخذ كل منهما عن صاحبه؛ «والفضل بن سلمة بن جرير الجهني» البجائي دخل هو الآخر القيروان وتخرج على يديه في الفقه عدد كبير من ذوي المكانة العلمية والتحقيق العلمي، و«أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي» دفين

تلمسان وقد ترجمنا لهم في كتابنا تاريخ الأدب الجزائري[1]؛ و«أبو الوليد مروان المسيلي» ترجم له «أبو العرب» في طبقاته وقال عنه: كان ثقة مستجاباً فاصلاً في مثل «سحنون بن سعد» وقد سمع من «عبد الرحمان بن مهدي» و«وكيع بن الجراح» الذي قال فيه «أحمد بن حنبل»: «ما رأيت أحداً أوعى من «وكيع» ولا أحفظ، «وكيع» إمام المسلمين».

كانت «طبنة» تنافس القيروان في الميدان الثقافي. أنجبت في عصرها الذهبي ما بين 154 و293هـ. أي من يوم أن رممها «المهلبي» إلى أن جهز عليها الشيعيون ـ أعلاماً في الفقه والعلوم اللسانية والفنية والأدب. بقي المذهب المالكي دوماً ثابتاً مرتكزاً بها رغم محاولة الشيعة أن يجبروا أهل السنة على التشيع ويضطهدوهم ويشردوهم. فإنهم صمدوا لهم وتشبثوا بمذهبهم لا يريدون عنه بديلاً، وغادروا من أجله موطنهم العزيز وانتقلوا إما إلى الأندلس وإما إلى مصر أو إلى العراق. وأشهر الأسر الطبنية التي خرجت أسرة «أبي مضر زيادة الله» الطبني في قرطبة وأسرة «أبي محمد القاسم بن علي» الطبني في مصر، وأسرة «علي بن منصور» الطبني في مصر أيضاً. وجاء في النفح عن رجال طبنة الذين التحقوا بالديار الأندلسية: «من أهل بيت اشتهروا بالشعر اشتهار المنازل بالبدر أراهم طرأوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة وانتشار شمل الطاعة، وأناخوا في ظلها ولحقوا بسروات أهلها»[2] وأول من بنى بيت شرفهم ورفع في الأندلس صوته بنباهة سلفهم[3] «زيادة الله بن علي التميمي» الطبني وولده يدعى «أبا مضر» وجاء في الذخيرة[4] عن «ابن حيان»: «وكان أبو مضر، نديم محمد بن أبي عامر، أمتع الناس حديثاً ومشاهدة، وأنصعهم ظرفاً، وأحذقهم شحذاً وملاطفة، وآخذهم بقلوب الملوك الجِلّة وأنظمهم لشمل الإفادة والنجعة وأبخلهم بدرهم وكسرة، وأذبّهم عن حريم نَشَبٍ ونعمةٍ له في كل ذلك

(1) صـ: 36-37.

(2) نفح الطيب جـ 3 صـ: 253.

(3) نفح الطيب جـ 3 صـ: 253.

(4) القسم الأول المجلد الثاني صـ: 52.

أخبار بديعة من رجل شديد الخلابة، طريف الخَلْوة يضحك من حضر ولا يضحك هو إذا ندر، رفيع الطبقة في صنعة الشعر كثير الاصابة في البديهة والروية[1]».

وقد روى عنه الحديث أكثر أبنائه وأشهرهم على الإطلاق «عبد الملك أبو مروان» الذي روى عن أبيه كثيراً من طرائفه، ومنها رسالته إليه وكان في مصر، التي تضمنت قوله:

يا أهل أندلس ما عندكم أدب ... بالمشرق الأدب النفاح بالطيب
يدعى الشباب شيوخاً في مجالسهم ... والشيخ عندكم يدعى بتلقيب

وجاء في النفح عن المطمح «للفتح بن خاقان» الأندلسي في «أبي مروان» الطبني ما نصه «من ثنية شرف وحسب، من أهل حديث وأدب، إمام في اللغة متقدم، فارع لرتب الشعر متسنم، له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق، ثم عاد وقد توج بالمعارف المفرق، وأقام بقرطبة علماً من أعلامها، ومتسنماً لترفعها وإعظامها، وتؤثره الدول وتصطفيه أملاكها الأول، ما زال فيها مقيماً، ولا برح عن طريق أحانيها مستقيماً، إلى أن اغتيل في إحدى الليالي بقضية يطول شرحها، فأصبح مقتولاً في فراشه مذهولاً كل أحد من انبساط الضرب إليه على انكماشه، وقد أثبت من محاسنه ما يعجب السامع، وتصغي إليه المسامع، ومن ذلك قوله:

وضاعف ما بالقلب يوم رحيلهم ... على ما به منهم حنين الأباعر
واصبر عن أحباب قلب ترحلوا ... ألا إن قلبي سائرٌ غير صابر

ولما رجع إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم، اجتمع إليه في المجلس خلق عظيم، فلما رأى تلك الكثرة، وما له عندهم من الأثرة، قال:

---

(1) البديهة ت، لب.

إني إذا حضرتني ألف محبرة | يكتبن حدثني طوراً وأخبرني
نادت بمفخري الأقلام معلنة | هذه المفاخر لا قَعْبانِ من لبن[1]

وكتب إلى ذي الوزارتين «أبي الوليد بن زيدون»:

أبا الوليد وما شطت بنا الدار | وقل منا ومنك اليوم زوار
وبيننا كل تدريه من ذمم | وللصبا ورق خضر وأنوار
وكل عتب وأعتاب جرى فله | بدائع حلوة عندي وآثار
فاذكر أخاك بخير كلما لعبت | به الليالي فإن الدهر دوار

أما «ابن بسام» فقال فيه في ذخيرته:

«كان (أبو مروان) من أهل الحديث والرواية ورحل إلى المشرق، وسمع من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز وقتل بقرطبة سنة سبع وخمسين وأربعمائة ولمقتله خبر طن «ابن حيان» به ولم يمنعه من قصصه استبشاعه وحسبك من شر سماعة ونلمَع منه بلمعة»[2] وهذه اللمعة تجدها في الذخيرة[3].

وجد «ابن بسام» في بعض تعاليق بخط أدباء قرطبة ما نصه، لما عدا «أبو عامر أحمد بن محمد بن أبي عامر على «الخديلمي» في مجلسه وضربه ضرباً موجعاً وأقر بذلك أعين مطالبيه، قال «أبو مروان» الطبني فيه:

شكرت للعامري ما صنعا | ولم أقل للخديلمي لعا
ليث عرين عدا لعزته | مفترساً في وجاره ضبعا
لا برحت كفه ممَكَّنَةً | من الأماني، فنعم ما صنعا
وددت لو كنت شاهداً لهما | حتى ترى العين ذل من خضعا

---

(1) وعن رواية أخرى أتى بها ابن بسام في ذخيرته قال أبو مروان الطبني:
إني إذا حضرتني ألف محبرة | تقول أنشدني طوراً وأخبرني
يا حبذا ألسن الأقلام ناطقة | هذي المكارم لا قعبان من لبن
(2) الجزء الأول المجلد الثاني صـ: 53
(3) الجزء الأول المجلد الثاني صـ: 53.

إن طال منه سجوده فلقد طال لغير السجود ما ركعا

إن شعر «أبي مروان» الذي بين أيدينا قليل، ولكنه ينم، مع قلته، عن مقدرة واسعة في هذا النوع من الأدب، وباعه يظهر جلياً في هذه المقطوعة، فهو فيها مادح وهاج في وقت واحد وأسلوبه واضح والصورة رائعة ملموسة، وأخواه «أبو الحسن عبد الرحمان»[1] و«عبد العزيز»[2] لم يدركا نباهته ولا علمه فلا يكاد يعادله في ذلك إلا ابن عمه «ابن محمد إبراهيم بن يحيى»[3]. فاشتهر الأول في الأدب والحديث والثاني بالبراعة في علم الطب. وكان الاثنان معاً معاصرين «لأبي محمد بن حزم» الأندلسي.

ومن شعر «أبي الحسن علي بن عبد العزيز بن زيادة الله» الطبني قوله:

كم بالهوادج يوم البين من رشا يهفو عليه وشاح جائـل قلق
وكم بـرامة من ريمٍ يفـارقنا لهفان يثنيه عن توديعنا الفَرَقُ
ونرجسٍ كفِرنْدِ السيف ساهَرَني معللا بنسـيم عـرفـه عَـبِقُ
نـادمته وشبـاب الليل مقتبـلٌ والنجم كفٌّ يحيينا بها الأفقُ
في فتيه كنجوم السعد أوجههم في أوجه الحادثات الجون تأْتَلِقُ
نلهو برقـراقة صفـراء صافيـة يكاد ينجاب من أضوائها الغسق
يسعى بها مُرهَنٌ كالغصن نَعَّمَهُ ماء النعيم عليه النور والورقُ

وأنشد أيضاً:

يـا سالياً عـاشقيـه وعـاشقاً كـل تيـهِ
ومن مـدامي ونقـلي بـوجـنتيـه وفـيـهِ
هـلا جزيت فؤادي ببعض ما لك فيـه!

(1) توفي سنة 401هـ.
(2) توفي سنة 326هـ.
(3) 396-461هـ.

وأنشد أيضاً:

عجباً أن يكون ساكن قلبي راتعاً منه في بساتين حبي
ويُجازى على الوفاء بغدر حَسْبِيَ الله ثم حسبي وحسبي
جازني كيف شئت لا أترك الذنـ ـب إذا كان فرط حبك ذنبي

يبدو «أبو الحسن» خلال هذه الأشعار أديباً مطبوعاً يبعد كل البعد عن التعقيد أو الغموض، يتجاوب شعره ونوعته العاشقة.

وناهيك برجل شارك «أبا سعد سحنون بن سعيد» في قضاء القيروان، وذلك الرجل هو «إبراهيم» الطبني. لو لم يكن بارعاً حاذقاً في الفقه لما كان قاضياً في بلد تزخر بالعلماء والفقهاء. لقد سمع لدروس «أسد بن الفرات»، وقد كانت وقتئذ المناظرات والمساجلات بين الفقهاء وحدهم وبين الفقهاء والخوارج والمعتزلة. وكان يخوض في ذلك هو الآخر.

وإن ننس فلا ننس «أحمد بن فروخ» الطبني وهو معاصر للفتح الشيعي لمدينة القيروان ولا أبا الفضل عطية بن علي بن الحسن وقد كان راوية للحديث وشاعراً مجيداً. ومن ذكرياته حملة الشيعة على طبنة فيقول:

سرنا وقد حل بقرب طبنة وصار منها أهلها في محنة

فقد استوطن طويلاً القيروان حتى لقب بالقيرواني.

وولدت شخصية أدبية أخرى بطبنة سنة 302، وهذه الشخصية تتمثل في «أبي عبد الله محمد بن حسين» الطبني. وصل إلى الأندلس سنة 335هـ. ولم يصل إليها أشعر منه على حسب «ابن بشكوال». وقد ترجمنا له في كتابنا تاريخ الأدب الجزائري[1].

وقعت اضطرابات وحروب أثارتها الخارجية قبل نشوء الدول الأغلبية والرستمية والعلوية وتعبت من جرائها البلاد: فسالت الدماء أنهاراً،

---

(1) صـ: 37.

وخربت الديار، وتعطلت الفلاحة والصناعة والتجارة، فانحطت الحالة الاقتصادية بانحطاط الحالة السياسية. في حين أن الحالة الثقافية عرفت ازدهاراً كبيراً. فإن الخصومات كانت سوقها رائجة بين أهل المذهب المالكي والفرق من جهة، وبين فرقة وفرقة من جهة أخرى، وقد شحذت قرائح الجميع إذ كل حزب يدلي بحجحه ليحبط حجج غيره. وذلك يتطلب التفكير العميق والمعرفة الواسعة والتعبير الذي يؤدي الفكرة بينه واضحة. فتقوى حينئذ بهذا الجدال وبهذا النقاش الملكة المفكرة التي نسميها العقل، والعقل يفكر ويسمو ويحتاج إلى أن يعلن تفكيره فيأوي إلى الكتابة والتأليف.

ومما هو جدير بالملاحظة أننا لا نجد المالكيين يهاجمون المعتزلة ويجعلونهم خوارج لأن المعتزلة لم يؤسسوا الدول الجمهورية ولم يستقلوا عن الملوك العباسيين كما فعلت الأباضية والصفرية.

ضعفت شوكة الولاة الحاكمين إثر تلك الثورات التي أشعلها المضطهدون من طرف الأمويين والعباسيين وأذكاها أهل البلاد الساخطون على السلطة المركزية للأسباب التي ذكرناها آنفاً، وقامت دول على حساب نفوذ بني عباس. فخمدت نيران العصيان وهدأت النفوس وطابت الحياة، وأصبح إقليم الزاب تابعاً للدولة الأغلبية، وقد عرف في هذا العهد دعة وأمناً، فمن البديهي أن تعود تلك الناحية إلى نشاطها الحضاري. فقد استأنف الفلاحون خدمة الأرض وتربية المواشي، وعاد الصناع إلى معاملهم يمارسون حرفهم في اطمئنان لا يخافون على أرواحهم ولا على منتوجاتهم ومحصولاتهم. فراجت التجارة وأصبحت القوافل والتجار يسيرون في قطر البلاد آمنين[1]. وقصارى القول، إن مدن الزاب صارت مدن تجارة ومال واقتصاد وثقافة. ومن طبيعة الأغالبة أن ينشطوا الثقافة ويعتنوا بأصحابها، فلم يكتفوا بما وجدوا من المعاهد وفي طليعتها مسجد القيروان، فقد وسعوا جامع الزيتونة، وجعلوا منه معهداً زاخراً بالعلماء،

(1) ابن الأثير.

وقد أسسوا دار الحكمة وخزائن الكتب، وأحدثوا بجانب هذه الخزائن دواليب تحفظ فيها الآلات الفلكية لحساب سر الكواكب ورصدها كالاسطرلاب والمقنطرات والجيوب. وإن بيت الحكمة كان مجلساً للدراسة والمطالعة ومحلاً لنسخ الكتب. والكثير من روّاده وخريجيه تفرقوا في أطراف البلاد وحملوا شعلته إلى الآفاق المغربية البعيدة[1]. ولقد التف أبناء الجزائر حول جامع الزيتونة وبيت الحكمة التفافهم بمعاهد القيروان مزاحمين أبناء إفريقية والمغرب الأقصى والأندلس وطرابلس وبرقة وصقلية لمتابعة دروسهم على مختلف المدارس النحوية واللغوية والفقهية والعلمية وقراءة الكتب التي أنتجها ذلك العصر كتفسير «محمد بن عبد السلام» ومدونة «سحنون» وأدب المعلمين «لمحمد بن سحنون» وكتب الطب «لابن الجزار» وكتب «إسحاق بن عمران».

(1) ورقات جـ ١ صـ: ١٩٧ لعبد الوهاب.

الفصل السابع

فترة الرستميين

نهضة الثقافة
الصلاة بين الرستميين والأغالبة والأمويين والعلويين وسجلماسة وبلاد السود: الثقافة - الاجتماع - الاقتصاد.
الشخصيات البارزة في الميدان الثقافي
الفنون في تيهرت وسدراته.

نشأت دولة الرستميين بجانب الدولة الأغلبية. وقد دان لسلطانها كل المدن والقرى الواقعة بين الزاب وفاس وسجلماسة على قول «الباروني». وقاعدتها «تيهرت» أسسها «عبد الرحمان بن رستم» الخارجي الأباضي سنة 160هـ. 776م. فهي أول دولة إسلامية جزائرية مستقلة تمام الاستقلال. رائد هذه الدولة كان الكتاب والسنة، ونظامها الديمقراطية الحقة، فالإمام يتعين في منصبه بالانتخاب، ويشترط فيه النزاهة والكفاءة، يعينه على القيام بالشؤون الإدارية مستشارون مخلصون وبالشؤون المالية أمناء محنكون. ولا يتوصل أحد إلى الوظيفة إلا إذا توفرت فيه شروطها من صلاح وورع وكفاءة. ولغة الدولة الرسمية هي العربية، إلا أن اللهجة البربرية كان لها خطر كبير وقتئذ، فكانت لغة التخاطب. فكثيراً ما كان يلجأ إليها العلماء لإلقاء دروسهم الفقهية والدينية. وعماد المجتمع الخلق الحسن والعادات الراقية والعلم الغزير، فبطبيعة الحال أن يكون راقياً.

أصبحت تيهرت العاصمة للمذهب الخارجي الأباضي وهو أبعد المذاهب الخارجية من الشطط والغلو. ولهذا بقي ضارباً أطنابه إلى اليوم بميزاب وعاصمته «غرداية». توافد الخوارج من مصر والعراق والجزيرة العربية وفارس على تيهرت التي أضحت مركز إشعاع قوي لجميع الخوارج. وكانت تيهرت تحتضن فرقاً أخرى كالصفرية، ولا زال أثرها «بتالغمت» بين الأغواط وغرداية، والأزارقة الذين لم يقدّر لهم أن يبقوا لأنهم أكثر تطرفاً من سواهم واشتطوا في الحكم على مخالفيهم حتى كفروهم

على الإطلاق، والواصلية المعتزلة على مقربة من تيهرت يبلغ عددهم «ثلاثة آلاف»[1]. كانت هذه الفرق والمذاهب تتمتع بحرية الفكر. فكان لكل منها مسجدها وعلماؤها وحلقات دروسها. فقال «ابن الصغير» متحدثاً عن هذه المجالس العلمية: «من أتى إلى حلقات الأباضية ناظروه ألطف مناظرة. وكذلك من أتى من الأباضية إلى حلقات غيرهم كان سبيله ذلك». وتحدث عن تسامح الأباضيين فقال: «ولا يمنعون أحداً من الصلاة في مساجدهم ولا يكشفون عن حاله ما خلا المسجد الجامع. فإنهم إذا رأوا فيه من رفع يديه منعوه وزجروه. فإن أعاد ضربوه».

إن بني رستم شملوا الثقافة الدينية والأدبية برعايتهم حتى نهضت نهضة عامة في تيهرت ونواحيها. ويظهر تنشطيهم لهذه الثقافة في أنهم كلما ظهر بالمشرق كتاب يهمهم جلبوه إليهم وزودوا به مكتبتهم «المعصومة» التي أسسوها لهذه الغاية. فكان كل هؤلاء الأئمة رجال علم وأدب وعلماء دين ورؤساء مذهب . يتطلب منهم كل هذا أن يكون لهم ثقافة متينة، وأن يكونوا على أهبة للدفاع عن آرائهم بالحجة الدامغة، وكان لهم خصوم يدافعون، هم الآخرون، عن آرائهم. فالغلبة في هذه المناظرات والمناقشات لمن كان أكثرهم ثقافة وأرجحهم عقلاً. وزيادة على ذلك أنهم كانوا يعقدون مجالس للعلم والتعليم يعلمون الناس ويلقون عليهم في المساجد دروساً في التفسير والحديث والفقه والكلام والأدب والعلوم الرياضية والتنجيم. فإذاً، لا بد لهم من اقتناء الكتب يملأون بها معصومتهم ويأوون إليها عند الحاجة. يقال: إن «عبد الوهاب» أرسل إلى أباضية البصرة ألف دينار ليشتروا له بها كتباً. فلما بلغتهم اشتروا ورقاً استنسخوه كتباً، وتلك الكتب كانت حمولتها أربعين جملاً كلها أرسلت إليه واتصل بها وأتحف بها المعصومة التي كانت تحوي الآلاف من المجلدات. ومما يؤسف له أنه لما أجهز الفاطميون على تيهرت سنة 299هـ. 911م أحرقوا تلك المكتبة القيمة، ولم تبق منها إلا كتب الرياضة والصنائع

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية (أدب المعتزلة لعبد الحكيم بَلْبَع صـ: 139).

والفنون الدنيوية. ويبدو أن هذه الدولة كانت تنافس الدولة العباسية، والدولة العباسية كانت وقتئذ لا يشق لها غبار في العلم والأدب والفلسفة والفنون. فصمم الأئمة على أن لا تكون دولتهم متخلفة ولا سيما في الميدان الثقافي. فأخذوا بتلابيب العلم، وأرسلوا البعثات إلى المشرق فيرجعون مزودين بالعلوم وبأنفس الكتب العربية والفارسية، وكانت العائلة الرستمية تعرف اللغة الفارسية وتحافظ عليها، إنها لغة أجدادهم ولغة العلم والحضارة القديمة. وكان لهم مترجمون يحسنون الفارسية يترجمون تلك الكتب، وآخرون يترجمون الكتب الرومية وكانت اللغة الرومية منتشرة في المغرب. وقد اهتم الأئمة بتثقيف سكان أعالي الجبال في الدين والشريعة الإسلامية بالعربية تارةً وبالبربرية تارةً أخرى إذا اقتضى الأمر إلى ذلك. وكانت الدولة الرستمية لا يفصلها عن الدولة الأموية إلا البحر المتوسط. فكانت تنافسها في أسباب الحضارة عامة وفي الثقافة بمعناها الضيق خاصة. وهاجر إلى الجزائر من المشرق تجار وبناؤون وذوو الكفاءة في الصناعة من أهل الكوفة والبصرة وأهل مصر ومن العجم في خراسان ، كان هذا كله من أسباب إسراع تيهرت في طريق الحضارة.

ولقد كانت الصلات متينة بين الرستميين وأمويي الأندلس، وكانت القوافل غادية رائحة بين الدولتين. وهذا التبادل التجاري له أثر قوي في تفاعل الحضارات والثقافات. وكانت علاقات الدولة الرستمية مسالمة بجيرانها الأغالبة، والتجارة بين الدولتين كانت رائجة. وكانت متصلة بالدولة العلوية التلمسانية، وعلاقاتها بالدولة الصفرية بسجلماسة كانت طيبة. فقد كانت بينهما مصاهرة، فقد تزوج أبو القاسم المكناسي الصفري، أمير هذه الولاية حينذاك، بابنة أحد الحكام الأباضية في تيهرت. فموقعها في المغرب الأوسط بين الأغالبة والأمويين والعلويين وسجلماسة جعلها تتأثر بحضارة وثقافة كل هذه الدول فتأخذ منها وتعطيها بدورها مما وصلت إليه من الحضارة الإسلامية.

وفي جنوب الدولة الرستمية بلاد السود. فأخذت تتصل بها، تخرج

الطرق التجارية الرابطة بين
الجزائر الرستمية وجيرانها

القوافل التجارية تارة إلى سلجماسة ومن هناك تقصد «تنبوكتو» مصحوبة بالقوافل التلمسانية والسجلماسية، وأخرى إلى «ورجلان» مجمع القوافل التجارية لشرق الجزائر وغرب تونس، ثم تقصد هذه القوافل جماعة السودان. وكانت «ورجلان» من القواعد التجارية للدولة الرستمية وأكبر سوق تجارية في الصحراء، قال «الباروني»: «وكان أكثر المسافرين لتجارة السودان في ذلك العهد من أهل مدينة ورجلان وهوارة [1]». وبقيت ورجلان سوق تجارة حتى بعد انقراض هذه الدولة إلى القرن الخامس أيام سدراته، فقال: «ورجلان مدينة فيها قبائل مياسيز وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانا وغيرها، فيخرجون منها التبر، ويضربون في بلادهم سكة باسم بلادهم أباضية، كانت هذه القوافل تغشى السودان والمالي وغانا وليبيريا والنيجر والنيجيريا والسنيغال وساحل العاج والداهومي والفلطا بسلعها المختلفة من منسوجات صوفية وقطنية وكتانية وفخار مطلي ومزخرف ، وحلي ذهبية وفضية. وأوان نحاسية، وخشب منقوش مرصع بالعاج، ومصنوعات حديدية كالأسلحة والأقفال، وأفاويح، وملح، وعطور وبخور، وتدفع بلاد السود إلى القوافل الرستمية الذهب الخام والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات ومواد أخرى تحتاجها بلادنا. وهذه السلع تحمل معها آثار شعوبها. والطرق التي كانت تسلكها التجارة بهذه السلع غدت بطبيعة الحال طرق تبادل حضاري وتفاعل ثقافي. والمحطات التي قامت على هذه الطرق «كالهقار» و«تنبوكتو»، أصبحت مدناً مهمة لا من حيث الازدهار التجاري المادي فحسب بل من حيث التلاقي والتلاقح الحضاري، فنشر تجارنا في رحلاتهم إلى هذه الأقطار الدين الإسلامي والأخلاق الفاضلة التي حلاهم بها الإسلام. قال «الباروني»: «وكان للإمام أفلح من أغلب الملوك (المجاورين له) مودة، ولا سيما ملك «كوكو» في السودان، وكان الإمام أفلح أهدى لهذا الملك هدية نفيسة ليوثق الصداقة بينهما ويشكره

---

[1] الأزهار الرياضية.

على ما يجد تجار دولته من حسن في المعاملة وإقبال في بلاده»[1]. قال «ابن الصغير»: «وكان بالبلد رجل يعرف بمحمد بن عرفة، وكان وسيماً قسيماً جميلاً جواداً سمحاً، وكان وفد على ملك السودان، (ملك كوكو) بهدية من (أفلح بن عبد الوهاب)، فأعجب ملك السودان مما رآه من هيبته وجماله وفروسيته إذا ركب الخيل بين يديه».

وكان نفوذ الدولة الرستمية يمتد إلى خليج سرت، وكان لهذه الناحية صلات تجارية مع مصر والشرق جعلتها تتأثر بالحضارة العباسية فتأخذ منها وتعطيها مما وصلت إليه من الحضارة الإسلامية.

فهذه التجارة، داخل البلاد وخارجها، درت على الشعب الثروات الضخمة وعمّ البلاد الرخاء. والفلاحة هي الأخرى شاركت في هذا الرخاء، فالبلاد عمها الاستقرار والطمأنينة، فاشتغل الفلاحون بأراضيهم والصناع بأعمالهم والفلاحة والصناعة كانتا عاملين مهمين في ازدهار هذه التجارة ومصدراً للسعادة التي كان الشعب ينعم بها. يحدثنا «ابن الصغير»[2] أن تيهرت كانت تسمَى عراق المغرب أو بلخ المغرب، كانت الحالة الاقتصادية زاهرة وسوق الثقافة رائجة، كان اتصال كبير بين مثقفي هذه الدولة والعالم العربي الإسلامي. زار واستوطن تيهرت كثير من ذوي العلم والأدب من الشرق والقيروان والأندلس. وإن ننس فلا ننس «مسعودا» الأندلسي و«عمران بن مروان» الأندلسي وهما من مجلس الشورى الذي عينه الإمام «عبد الرحمان» ليختاروا واحداً منهم للإمامة، وقد مال أغلب المجلس والأغلبية الساحقة من الشعب إلى «مسعود» الأندلسي لكفاءته وشخصيته وثقافته الواسعة فعزموا على مبايعته، ولكنه أبى واختفى.

نفق سوق العلم والأدب في ظل هذه الدولة، وظهر أول جيل من الأدباء الجزائريين الأقحاح عالجوا الشعر كباقي إخوانهم في طبنة وغيرها

---

(1) الأزهار الرياضية.

(2) سير الأئمة الرستميين.

من مدن الزاب، وقد سبق الحديث عنهم، وأحسنوا معالجته، ولكن، ظل يتسم بسمات المدرسة الشرقية المحافظة، وأساليب هذا الشعر متينة بحيث لا نجد فيه اختلافاً من حيث الصناعة كما يعرف من شعر المشارقة على ذلك العهد. وشعر «أبي بكر بن حماد»[1] صورة ناطقة للمدرسة الشرقية، ولا غرو فإنه فارق وطنه، وهو في حداثة سنه عام 217هـ، 732م، ونزل بالقيروان، يأخذ عن علمائها أمثال «سحنون» ، ثم ارتحل إلى الشرق، فدخل بغداد وكانت وقتئذ زاخرة بالعلماء والأدباء. فاتصل بهم، ولقي «أبا تمام» و«دعبل» الخزاعي و«علي بن الجهم» و«مسلم بن الوليد»، و«صريع الغواني»، و«ابن العربي»، و«الرياشي»، و«السجستاني» فصاحبهم، وكانت له معهم مساجلات أدبية أسفرت عن ثبوت قدمه في الأدب وفي صناعتي الشعر والنثر، واتصل بالخلفاء العباسيين وقال فيهم الشعر الرائق ونال حبهم وعطفهم وإحسانهم كجميع أدباء بلاطه، وقفل راجعاً إلى بلاده. وفي سنة 274هـ. 887م، دخل في طريقه إلى القيروان. فتصدر هناك للإقراء ، فانهال عليه الطلبة من كل فج وصوب حتى من الأندلس، وكان منهم «قاسم بن أصبغ البياني»، وقربه بنو الأغلب إليهم، فقال فيهم القصائد الرائعة، ونال منهم الجوائز السنية، ومن طريف ما حكاه أبو إسحاق الرقيق مؤرخ إفريقية قال: «كان بكر بن حماد - الشاعر الأديب - ينتجع «إبراهيم بن أحمد بن الأغلب» ويمدحه بغرار القصائد. فغدا يوماً إلى «رقادة» بمديح له، وقصد الفتى (بلاغ) خادم الأمير، فقال له الفتى: الأمير عنا مشغول في هذا اليوم، قال «بكر»: فلطف بي في إيصال رقعة إليه ، فقال: إنه مصطبح في جنان قصره مع الجواري، ولا يصل إليه أحد.فارتجل «بكر» مقطوعاً كتبه في رقعة واحتال (بلاغ) إبلاغها مساعدة للشاعر، وكان في الرقعة أبيات منها:

خلقن الغواني للرجال بلية   فهن موالينا ونحن عبيدها

---

[1] طالع ما أتينا من شعره في كتابنا الأدب الجزائري صـ: 42.

إذا ما أردنا الورد في غير حينه أتتنا به في كل حين خدودها

وكتب تحت الأبيات:

فإن تكن الوسائل أعوزتني فإن وسائلي ورد الخدود

وبلغت الرقعة إلى الأمير، فلما قرأها دفعها إلى الجواري، فأنشدنها وأظهرن سروراً بها، وشفعن إليه إلى أن أخرج إلى «بكر بن حماد» بصرة مختومة فيها مائة دينار. وقد علق «إبراهيم الرقيق» على هذا الخبر بقوله: «... ووصل إلى «بكر» من الأمير «إبراهيم» مال عظيم على مدائحه»[1].

وأما الانشاء فكان مرسلاً مطبوعاً لا يلتزم فيه سجع ولا يتكلف فيه توشية كمثيله في الشرق في ذلك الوقت. ويثبت التاريخ لأفلح رسائل وخطباً يتناولها بأسلوب سهل واضح يساير العصر ويواكب الظروف ويظهر فيها سياسياً محنكاً وناثراً حاذقاً وخطيباً بالغاً. ومن آثاره هذا النموذج من رسالة إلى ميال بن يوسف في حق «نفاث»[2].

«انتهى إلي الكتاب الذي كتب به إليك «تحية ابن عبدين» فقرأته وفهمت كل ما ذكره لك فيه عن كل خائب جاهل بما هو عليه متحامل ما علم له به، متخبط في أموره خبط عشواء، لم يبلغ العلماء فيقتبس منهم، ولم يصحب أهل الورع فنجزه آثارهم عن الهجوم على ما لا علم له به، لكنه نشأ وحيداً وأقام متوحشاً من العلماء، فتقلب في جوانحه الشيطان بنفخاته، فأورثه الكبر على قلبه، وتكلم به مصيباً كان أو مخطئاً، وما أصابه من شيء على غير علم فإصابته خطأ إذا تكلم بما لا علم له به، وما أصابه من خطأ فهو مخطىء فيه، إنه يتردد في الخطأ، إن أصاب لم يدر، وإن أخطأ لم يدر، وهو راكب مشكلات يخبط خبط عشواء كحاطب ليل لا يدري ما يحتطب ولعله يحطب ما فيه حتفه، أو

(1) ورقات جـ ١ صـ: 370.

(2) نفاث بن نصر النفوسي الذي أثار زوبعة كلامية في جبل نفوسة.

حية تأتي على نفسه. فنعوذ بالله من الفتنة ومن السلوك على منهاج ذلك الرجل، ولقد كان من قبلكم من المسلمين، لا يدعون مثل هذا يدخل مجالسهم ولا يشهد جماعتهم، وكان عندهم مقصى ومبعداً ومدحوراً، يهجرونه ولا يجالسونه حتى يرجع إلى سنة المسلمين، وأنتم متقون باتباع آثار سلفكم، والسلوك على منهاجهم، وأن تفعلوا بهذا التائه المتخبط ما يفعله سلفكم بمن كان قبله لكي ينزجر من أراد به خيراً، وينتبه غيره ممن يخالف عليه، الاقتداء به واتباعه، ولا تظهر سنن أهل البدع ولا تقوم للشيطان دعوة، وأنا مبدىء لكم ما ذكر وزادّ عليه ضلالته».

مرت الفترة الأولى من حياة الثقافة بالجزائر عقب الفتح العربي بمرحلة مخاض. ولما كان القرنان الثاني والثالث أخذ الجزائريون يفرضون وجودهم بإنتاج، في العلم والأدب والفنون، ولا يقل قيمة من إنتاج زملائهم في الشرق وإفريقية والأندلس كما رأيت.

خربت تيهرت ولم يبق منها إلا أطلال لا تعطينا فكرة واضحة على مدى حضارتها. إلا أن الله قد حفظ لنا كثيراً من هذه الحضارة بورجلان وسدراته، فإن الأباضية لما فرق شملهم «أبو عبد الله» الشيعي، أووا إلى ورجلان وسدراته وأنشأوا هناك قصورهم ومنازلهم واستأنفوا حركاتهم الحضارية. فصارت سدراته صورة ناطقة لتيهرت، ولكن سدارته قد خربت هي الأخرى في القرن السابع الهجري إثر الفتن والاضطرابات في تلك الربوع، واختفت آثارها تحت التراب والرمال، ولقد شرع الباحثون في اكتشاف[1] آثار قيمة من مبان على شاكلة المباني الأغلبية والطولونية والفاطمية. عثر على الجزء الأعلى من مسجد وبعض المنازل ذات الزخرفة الجميلة، وعثر على قصر يحتوي على 34 غرفة. ويبدو أن الغرف كانت مسقوفة بالأقبية ولا يزال جزء من هذه الأقبية قائماً في

(1) خرجها إلى الوجود كل من تاري (TARRY) وبول بلانشي (P. Blanchet).

إحدى الغرف، أما الأقواس فكانت على شكل حدوة الفرس، ولم يعرف هذا الشكل قبل تلك الآونة، والحنايا ذات الأقواس على شكل دائري. فما عثر عليه من نقوش مزخرفة وأشكال هندسية (شكل 34) وخطوط كوفية جميلة وأوان مختلفة تنم كلها عن رقي كبير. لا شك أنه كان بتيهرت أحسن من هذا في عصرها الذهبي، كان بها قصور بديعة تقوم على الزخرفة والرسوم النباتية والهندسية ومنازل مزينة بالقباب المنمقة بالنقوش البديعة، ولكن من العبث أن نبحث عن الصور الحيوانية والإنسانية في الزخرفة الرستمية فإن الدين نهى عن ذلك، وحضارة هذه الدولة يهيمن عليها الطابع الإسلامي، فالدين يوجهها في جميع مناحي الحياة حتى في فنونها الجميلة.

فلم يبق من عمران تيهرت إلا الخرابات ومن ثقافتها إلا بعض الكتب مثل الأزهار الرياضية «للباروني» وأخبار الأئمة الرستميين «لابن الصغير» وكتاب «يهودا بن قريش التاهيرتي» الموجود بمكتبة «اكسفورد» بانجلترا، وآراؤهم التي لا زال أهل غرداية ونواحيها متشبثين بها. دالت دولة تيهرت بهجوم «أبي عبد الله الصنعائي» على العاصمة سنة 399هـ. 911م. إن الرستميين كانوا يميلون دائماً إلى المسالمة وأهملوا تقوية الجيش، فلم يجد «أبو عبد الله» مقاومة تذكر في الاستيلاء عليها وضمها إلى رقعة الدولة الجديدة. فما هي هذه الدولة الجديدة، ومن أسسها؟ وما هي آثارها في الأوساط الجزائرية؟

الفصل الثامن

الشيعة

مذهب الاسماعيلية

الصراع بين الاسماعيليين والسنيين

الحالة الاقتصادية

الحالة الفنية

الشاعر ابن هانىء بالميلة

الشيعة هم أتباع علي وبنيه. ويذهبون إلى أن علياً هو الذي عينه النبي ﷺ، خليفة بنصوص ينقلونها ويؤوّلونها على مقتضى مذهبهم[1]. فالعلويون عندهم هم أحق بالخلافة من الأمويين والعباسيين. وأنها مستمرة في عقبه إلى النهاية. فهكذا نشأ مذهب الشيعة في المشرق بعقائده وقواعده، وأشهر فرق الشيعة: الإمامية والزيدية، ولكل منهما طوائف وفروع منها مذهب الاسماعيلية المتفرع عن الإمامية والذي تسرب إلى الجزائر، ولم يكن لهذا المذهب في القرن الرابع مذهب كلامي خاص بهم، بل كانوا يأخذون بمذهب الاعتزال في ذلك. وأول من نشر أفكار الشيعة في الجزائر «منيب بن سليمان المكناسي»، نزل بأعمال تيهرت ونواحي «وانشريس»، فنشرها هناك بين الناس. ثم جاء بعده «السفياني» و«الحلواني»، فنشراها أيضاً بين أهالي مرماجنة من بلاد «مجانة» و«سوق حمار» بنواحي «قسنطينة»[2] ولكن، لم يعظم خطرها حتى جاء «أبو عبد الله الصنعائي» وهو «الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا». أرسله «الحسين بن حوشب» داعي دعاة الاسماعيلية في اليمن. فنزل «أبو عبد الله الصنعائي» بقبيلة كتامة، وأخذ يبث الدعوة الشيعية الاسماعيلية، فنجح في أمره وتبعه خلق كثير من كتامة وهوارة. واستطاع أن يؤلف منهم جيشاً قضى به على الدولة الأغلبية، ونزل برقادة حيث

(1) المقدمة لابن خلدون صـ: 196.
(2) تاريخ الجزائر للميلي جـ 2 صـ: 112.

غادرها آخر ملوك الأغالبة فاراً إلى المشرق، فبعث حينئذ إلى «عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن إسماعيل بن جعفر الصادق» زعيم الاسماعيلية يستقدمه وهو يومئذ مستخفياً في مصر. فخرج المهدي مع ولده «أبي القاسم» و«أبي العباس أحمد» أخي الصنعائي قاصدين الجزائر على طريق الصحراء، فدخلوا في طريقهم سجلماسة. لكن صاحبها عامل بني العباس، قبض عليهم وإعتقلهم، فسمع بذلك الصنعائي، فقصد سجلماسة في جيش قوي، واستولى في طريقه على تيهرت. وبوصوله إلى سجلماسة قضى على صاحبها، وخلص المهدي ومن كان معه ورجع بهم إلى «رقادة». فجلس «عبيد الله المهدي» على عرش المملكة، وأخذ يباشر شؤون دولته بنفسه، وحاول نشر مذهبه بين الناس بالإكراه، وأمر أن يذكر اسمه في الخطبة، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين[1]، قامت ضده ثورات، ولكنه أخمدها، وأمكنه أن يبسط نفوذه بالمغرب الأوسط وبالمغرب الأقصى وبصقلية وبليبيا. وبلغت الدولة أوج عزها في «عهد المعز لدين الله» (341-365هـ). إن الدولة العبيدية عملت على نشر الثقافة وخدمة العلم. كثر الجدل والبحث بين علماء الشيعة ومعارضيهم من أهل المذاهب الأخرى. وكان المالكيون يكرهون الشيعة. ويظهر مقتهم لهم في خطبة «أبي الفضل» حيث قال: «اللهم إن هذا القرمطي الكافر الصنعائي، المعروف بأبي عبيد الله المدعي الربوبية من دون الله جاحد لنعمتك، كافر بربوبيتك، طاعن على أنبيائك ورسلك، مكذب لمحمد نبيك، ساب لأصحاب نبيك، سافك لدماء أمته»، وهذا الكره له أسبابه. فإن الاسماعيلية يعتقدون أن الفيض والإبداع شيء مستمر، ولهذه الفكر نتائج بعيدة المدى، إذ إنها تؤدي إلى القول بأن الوحي لم ينقطع عند «محمد بن عبد الله»، إذ جاء بعده «محمد بن إسماعيل» والأئمة من بعده ليكونوا مصدراً للتأويل وليفسروا القرآن تفسيراً باطنياً. فإنهم قد خلعوا على العقل الأول المبدع الأول

(1) ابن الأثير: الكامل جـ 1 صـ: 158-159، كانت له البيعة بأمير المؤمنين يوم الجمعة 31 ربيع الثاني 297 هـ (9 يناير 910م) فكان بذلك أول من أعلن مزاحمة الخليفة العباسي في لقبه.

بعض أسماء الحسنى، فهم يصفونه بالحياة وهم يقولون إنه الأول والكلمة والعالم الأول والقدرة والقادر الأول، ويجعلونه من صفات الحياة أصل الصفات ومركزها وهي تتقدم في الوجود على غيرها من الصفات وتدور حولها كل الصفات الإضافية[1]. فلهذا اتهم المالكيون بإنكارهم لله وبأنهم استعاضوا عنه بالعقل الأول.

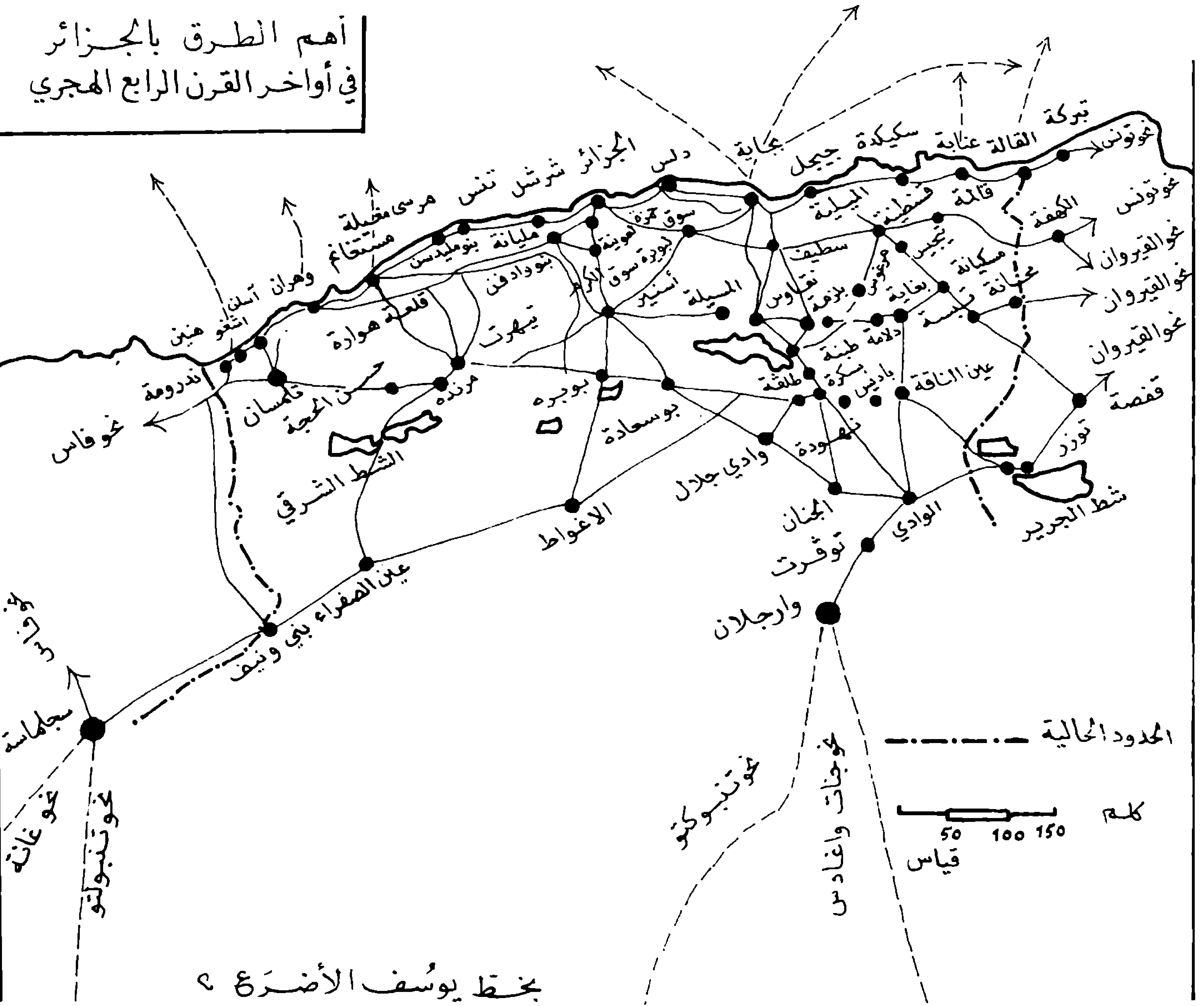
والاسماعيلية يعتقدون بأن الوحي لا ينقطع لأنه فيض من العقل الأول وهو الناطق على العقول المفارقة الأخرى. فأخذوا يوزعون الأسماء الحسنى على هذه العقول. ولهذا يقول الإمام جعفر الصادق: «نحن آيات الله الكبرى وأسماؤه الحسنى وأمثاله العلماء ولكلمات الصدق والعدل، فمن توسل بغيرنا لم يعط ومن دعا لغيرنا لم يجب»[2].

فالإمام عند الاسماعيلية هو الواحد الأحد الفرد الصمد المنتقم الجبار. ولهذا قال «ابن هانىء» في مطلع قصيدة مدح بها المعز لدين الله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

والإيمان عندهم هو الباطن، ويَشترط فيه المعرفة والتصديق القلبي، وهذه المعرفة قائمة في التأويل الباطني لآيات الكتاب. وقد جعلوها وقفاً على الأئمة من أهل بيت الرسول أي لم يفتحوا أبواب هذه المعرفة للمؤمنين، بل جعلوها وقفاً على الأئمة، وأتباع الأئمة لا بد لهم من المعرفة، إلا أنه محظور عليهم أن يعرفوا بأنفسهم واعتماداً على عقلهم عليهم أن يتلقوا المعرفة من منبعها الوحيد العارف بحقيقة التأويل الباطني أي الإمام، الأمر الذي يؤدي إلى وجوب اتباع الأئمة والانقياد لهم. فمبادئهم، كما ترى، متطرفة، أغضبت وأثارت أهل السنة عليهم، فناظروهم وساجلوهم، ولكن، قاسوا من جراء ذلك محناً لا تنسى، فاستشهد عدد عظيم منهم، ولم ينج أحد من أذى الاسماعيلية من أهل

(1) راحة العقل للكرماني صـ: 13.
(2) الرسالة المذهبة صـ: 3، القاضي النعماني بن محمد.


أهم الطرق بالجزائر
في أواخر القرن الرابع الهجري
الجزائر
شرشل
تنس
مرسى مغيلة
مستغانم
وهران
أسلن
أشغو
هنين
ندرومة
تلمسان
نحو فاس
حصن الجبة
قلعة هوارة
مرنده
الشط الشرقي
تيهرت
بنو وادفن
مليانة
بنو مليدسن
سوق حمزة
سوق لوبية
سوق كرام
أشير
المسيلة
بوجره
بوسعادة
الأغواط
عين الصفراء
بني ونيف
سجلماسة
نحو غانة
نحو تنبكتو
دلس
بجاية
جيجل
سكيكدة
عنابة
القالة
تبركة
نحو تونس
الميلة
قسنطينة
قالمة
سطيف
نقاوس
بلزمة
طبنة
دلامة
باغاية
مجانة
تبسة
مسكيانة
تيجس
الكهفة
نحو القيروان
قفصة
توزر
شط الجريد
طلقة
بسكرة
بادس
عين الناقة
تهودة
وادي جلال
الجنان
الوادي
توقرت
وارجلان
نحو تنبكتو
نحو غات وغدامس
الحدود الحالية
كلم
50 100 150
قياس
بخط يوسف الأضرع ©

المذاهب الأخرى، واعترى المذهب المالكي نوع من الركود نحو نصف قرن حتى كانت مناهضة الرافضية عندما اعتلى «المعز بن باديس» عرش المملكة 15 محرم سنة 407هـ. وكان يميل إلى أهل السنة. فهجم الناس على الشيعة الروافض وقتلوهم وانتهبوا أموالهم وخربوا ديارهم. وذلك كردّ فعل لما قاسوه منهم. فإن سياسة الفاطميين أضرت بالحياة الاجتماعية والدينية إضراراً كبيراً، ولكن الثقافة عرفت ازدهاراً كبيراً من جراء الصراع القائم بين علماء وأدباء الشيعة وزملائهم السنيين.

أما من الناحية الاقتصادية، فإن الجزائر عرفت في هذا العهد ازدهاراً لا بأس به. عاد إليها ما فقدته من الاستقرار إثر الفتن التي حدثت قبل أن تستتبّ أمور الدولة الجديدة. أنشئت معامل حربية لصنع الأسلحة والأساطيل «ببونة» و«القالة»، وتكونت معامل الزجاج ونسائج الصوف والحياكة. وكان يستخرج من مرسى القالة الصدف والودع والمرجان. فنشطت التجارة براً وبحراً. استأنفت القوافل حركاتها عبر الصحراء إلى بلاد السود. وكان مرفأ الأسطول للحط والإقلاع ببجاية ومراس أخرى، إذ كانت اتصالات بين الجزائر والأندلس وجزر البحر المتوسط وشواطىء أوروبا مستمرة والتجارة رائجة. بكل هذا أثر في اقتصاد البلاد التي عمتها الرفاهية والدعة. ونشطت الفلاحة كذلك، فقد استعان الخليفة الفاطمي بقمح «المسيلة» ونواحيها في حربه «لأبي زيد الخارجي» الذي ثار عليه واستفحل أمره حتى هدد الخلافة.

وكان الفاطميون يهتمون بالفنون، فاعتنوا بالزركشة والزخرفة فيما شيدوا من البنايات الفخمة، وأغرموا بصنع الأواني الفخارية والحياكة في المغرب ومصر. ومن آثارهم المعمارية بالجزائر مدينة المسيلة، اختطها «أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي» يوم الأحد 9 صفر سنة 315هـ. 15إبريل سنة 927م؛ وعهد بالقيام على بنائها إلى أحد قادته «أبي الحسن علي بن حمدون بن الأندلسي»، ولما تم بناؤها نسبها الخليفة إلى نفسه وأطلق عليها اسمه، فصارت تدعى «المحمدية» وأمر بنقل إدارة الزاب

إليهـا من طبنة. فـأصبحت المسيلة هي عاصمـة الزاب، وبلغت من الحضارة والعمران ماجعلها كعبة العلم والأدب، فقصدها أرباب الثقافة من كل فج وصوب، والفضل في ذلك يرجع إلى مؤسسها وواليها «علي ابن حمدون»، فكان ينشط الحركة الثقافية: يقرب إليه العلماء والأدباء، ويغدق عليهم صلاته إلى أن هلك. فخلفه ابنه جعفر، وقد غرس فيه أبـوه حب الثقافـة والاعتناء بـأهلها. قصـده العلماء والشعـراء، وكان بالأندلس الشاعر «ابن هانىء» كان شيعياً مشتهراً بآرائه الفلسفية، يستمع لما يرد من أحاديث جهاد الدولة الفاطمية في المغرب. فثار الفقهاء والشعب عليه. فالأندلس لم تكن تسمح لأحد من رجال الفلسفة أن يعيش فيها سالماً، فخاف إذاً على نفسه، وأزمع على الهجرة. فهاجر إلى بلاد مقر العقيدة التي أوذي في سبيلها. فاتصل هنـاك «بجوهـر الصقلي». ولكن صلات هذا القائد كانت قليلة. وقد سمع «بجعفر بن علي» وجوده، فقصده، فمدحه عام 347هـ. بقصيدة أشاد فيها بذكره، وأكثر فيها من الثناء عليه، ووصف فيها بطولته وسجاياه السامية، وشكا فيها ما قاساه من عسف الزمان، ومما يقول فيها:

خلقت شهاباً يضيء الخطوب ... ولست شهـاباً يضيء الـظلمْ
وإنـــك من معشـــر طفـلهم ... يُتـوَّج قبـل بـلوغ الحُـلُمْ
ويسعو إلى المجد قبل الفطام ... فكيف يكـون إذا مـا فُـطِم
تشيَّـعَ فيكـم لســانـي ومن ... تشيـع في قـولـه لم يُـلم
فلست أبــالي بـأيٍّ بــدأت ... بفخري بكم أو بمجد حي لكم
حمدت لقاءَك حمـد الربيـع ... وشِمتُ نـوالـك شيمَ الـدِّيَم
أذمُّ إليـك اعتـوار الخُـطوب ... وصـرف الحوادث فيمـا أذم
وممــا أعـان علي الــزمـان ... عفــاف يــدي وعلو الهمـم
لســاني من العرب الأكـرمين ... وفي أول الدهر ضاع الكرم

فهش الأمير لهذه القصيدة التي لم نذكر إلا بعضها، وفرح بقائلها، وضمه إلى مجلسه وأغدق عليه من نعمه، فأقام في ظلاله عامين يمدحه

ويشيد بذكره ويمدح أخاه «يحيى» وابنه «إبراهيم»، فاطمأن «ابن هانىء» وظل ينعم في كنف هذا الأمير وأسرته لا يخاف شر الحاجة ولا غائلة الأحداث. فتفرغ لفنه وشعره وقد استعذب الحياة في ذلك الإقليم الذي عنده جنة الخلد:

إنما الزاب جنة الخلد فيها ... من نداه غضارة التفويق

كيف لا وقد وجد فيه ألواناً من ترف الحياة وهدوئها في صحبة ذلك الأمير الكريم الأريحي وأخيه، فأصخ سمعك إلى تحدث «ابن هانىء» عن نفسه وعن صنع «يحيى» معه:

وما زِلْتُ ترميني الليالي بنبلها ... وأرمي الليالي بالتجلد والصبر
وأنجدني يحيى على كل حادث ... وتوجني تاجاً من العز والفخر
فلا تسألاني عن زماني الذي خلا ... فوالعصر إني قبل يحيى لفي خسر
ولما حططت الرحل دون عراصه ... أخذت أمان الدهر من نُوَب الدهر
فداؤك حتى البدر في غسق الدجى ... منيراً وحتى الشمس فضلاً عن البدر
أأدعو إلهي بالسعادة عندكم ... وأنتم دراري السعود التي تسري؟
أأبغي لديه طالباً من كفتيه ... وأسأله السُّقيا ودجلةُ لي تجري؟
أسرتُ بما أسديتم من صنيعة ... وما خلتكم ترضون للبحار بالأمر
فمهلاً بني عمي وأعيان معشري ... وأملاك قومي والخضارم من نجري
فلا ترهقوني بالمزيد فحسبكم ... وحسبي لديكم ما ترون من الوفر.

فهكذا ظل يمدح هذه الأسرة الكريمة التي أصطفته عن غيره، وتظهر عواطفه نحوها في هذه الأبيات التي نظمها من قصيدة في جعفر:

خليلي أين الزاب عنا وجعفر ... وجنة خلد بنت عنها وكوثر؟
فقبلي نأى عن جنة الخلد آدم ... فما راقه في ساحة الأرض منظر
خليلي ما الأيام إلا بجعفر ... وما الناس إلا جعفرٌ، دام جعفر

فكان مخلصاً صادقاً في مدائحه في «جعفر» وأسرته، وكان كذلك

في مراثيه في أمه وفي حفيده، فقال يرثي والدة «يحيى وجعفراً بن علي»:

إنا، وفي آمال أنفسنا ... طول، وفي أعمارنا قصر
لنرى بأعيننا مصارعنا ... لو كانت الألباب تعتبر!
مما دهانا أن حاضرنا ... أجفاننا والغائب الفكر
فإذا تدبرنا جوارحنا ... فأكلهن العين والنظر
لو كان للألباب ممتحن ... ما عد منها السمع والبصر
أي الحياة ألذ عيشتها ... من بعد علمي أننا بشرا!
خرِست، لعمري الله، ألسُنُنا ... لما تكلم فوقنا القَدَر

لم يكن الشاعر يحمل معه في هجرته إلا شاعريته، فأعانته على استجلاب قلب أسرة جعفر، فرعته وأذهبت آلامه وبؤسه، وكانت شاعريته يقظة قوية. وكان يريد الظهور في هذه البيئة المغربية الجديدة التي كان يعيش فيها أبطال من شعراء المغرب وأدبائه. «كل هذه البواعث كانت حافزاً له على تجويد فنه وصقل شعره والإبداع في ما يشعر به من قريض»[1]. فكان يعمل ما في وسعه ليخرج قصائد رائعة فتانة ساحرة، وكيف وهو يريد أن يتبوّأ المنزلة العالية في ذلك المجتمع تحت ظلال «جعفر» الوارفة، و«جعفر» من أبطال العقيدة الفاطمية وهي العقيدة التي أخلص لها «ابن هانىء» وفارق من أجلها بلده العزيز. فمدحه «وكأنه يمدح العقيدة التي آمن بها وكافح من أجلها طول حياته»[2]. فهو عنده ينير كالشمس والقمر:

والمشرقات النيرات ثلاثة ... الشمس والقمر المنير وجعفر

ومنزلته الممتازة عند الأمير أثارت حسد زملائه، لكن «ابن هانىء» لم يعبأ ببغضهم له، فشعره جيد ممتاز فنّاً وبَيَاناً وأُسلوباً وجمالاً ومعاني

(1) قصة الأدب في الأندلس جـ 2 صـ: 171.
(2) نفس المصدر.

ونزعات[1]، وكان معززاً مكرماً لدى الأمير، فإنه من أرومته:

فمهلاً بني عمي وأعيان معشري ... وأملاك قومي والخضارم من نجري

فهذه الصلة بينهما ومشاركته في العقيدة لقوة عنده تقيه شر خصومه وأذى أنداده الحاقدين عليه «كالوهراني» كاتب الأمير الذي أهمله «ابن هانىء». وقد صور «ابن هانىء» الخصومات الأدبية التي نشأت بينهما في قصيدته التي هجا فيها «الوهراني» إليكها:

طلب المجد من طريق السيوف ... شرف مؤنس لنفس الشريف
إن ذل العزيز أفظع مرأى ... بين عينيه من لقاء الحتوف
ليس غير الهيجاء والضربة الأخـ ... ـدود فيها والطعنة الإخطيف
أنا من صارم وطرف جواد ... لست من قبة وقصر منيف
ليس للمجد من يبيت على المجـ ... ـد بسعي وان ونفس عزوف
وعدتني الدنيا كثيراً فلم أظـ ... ـفر بغير المطال والتسويف
كلما قلب المحدِّدُ فيها اللحـ ... ـظَ وليّ بناظر مطروف
علمتني البيداء كيف ركوب الـ ... ـليل والليل كيف قطع التنوف
إن أيام دهرنا سخِفاتٌ ... فهي أعوان كل رغد سخيف
زمن أنت، يا أبا الجعفر، فيه ... ليس من تالد ولا من طريف
إن دهراً سموت فيه علواً ... لَوَضيع الخطوب وغْدُ الصروف
إن شأواً طلبتَه في زمان الـ ... ـملك عندي لشأوُ بين قذوف
إن رأياً تديره لُمعنىّ ... بضلال الإمضاء والتوقيف
إن لفظاً تلوكه لشبيهٌ ... بك في منظر الجفاء الجليف
كاذب الزعم مستحيل المعاني ... فاسد النظم فاسد التأليف
أنت لا تغتدي لتدبير ملك ... إنما تغتدي لرغم الأنوف
نلت ما نلت لا بعقل رصين ... في المساعي ولا برأي حصيف

(1) قصة الأدب في الأندلس.

ابق لي جعفراً أبا جعفر ترم يوميه بالنآد العسوف
أنت في دولة الحبيب إلينا فترفَّقْ بالماجد الغِطريف
فإذا ما نَعَبْتَ شرٌّ نعيب فعلى غير رَبْعِه المألوف
لست أخشى إلا عليه فكن بالـ ـأريحي الرؤوف جد رؤوف
إنما الزاب جنة الخلد فيها من نداه فضارة التوفيف
كيف قارنت منه بدراً تماماً وله منه جَوْ زَهِرٌ الكسوف
كيف صاحبته بأخلاق وغدٍ لا يني في يبوسة وجفوف
كيف راهنت في السباق على ما فيك من وَنِية وباع قَطوف
واعتزام يرى الأمور إذ ألـ ـقت قراعا بناظر مكفوف
وخِنيً حالفٍ بأنك ما أصـ ـبحت يوماً لغيره بحليف
ما عجيبٌ بأن لعبت بدهر نائم طرفُه وخطبٍ تريف
ولذا صار كل ليث هِزَبْر قانعاً من زمانه بالغريف
إن في مغرب الخلافة داءً ليس يبيريه غير أم الحُتوف
إن فيه لشعبة من بني مر وان تنبي عن كل أمر مخوف
إن في صدر أحمدٍ لبني أحـ ـمدَ قلباً يهيم بسم مدوف
مُتَخَلٍّ من اثنتين بريءٌ من إمام عدل ودين حنيف
ليس مستكثراً لمثلك أن يفـ ـرقَ بين الشريف والمشروف
يا معز الهدى! كفاني أني لك طود على أعاديك موف
وإذا ما كواكب الحرب شُبَّت لم أكن للرماح غيرً رديف
أنطوي دائماً على كبد حرّى على حبكم وقلب رجوف
أنا عين المُقِرّ بالفضل إن أنـ ـكر قوم صنائع المعروف
لم أحارب نور الهدى بالدَّياجي وحروف القرآن بالتحريف
مثل هذا العميد بالجِبْتِ والطا غوت منهم والهائم المشغوف
ما استضاف الهجاء حتى تأنّا ك، أيا جعفرا، بغير مضيف
إن تسترت عن عياني فما حيـ ـلة عينيك في الخيال المطيف؟

فمن البديهي أن يغطي خصومه، فهو شاعر المذهب الشيعي والمنافح عنه، ثم قد شدا بالشعر في الأندلس قبل أن يغادرها، ووفد إلى المغرب وهو شاعر مطبوع لا يقدر أحد من خصومه أن يباريه في ميدان القريض. والجزائر لا تقل جمالاً ولا ثقافة عن الأندلس وقتئذ، لكن البلاد كانت دائماً مسرحاً للاضطرابات، والأدب لا يخصب حقله إلا في بيئة يسودها الدعة والاطمئنان والاستقرار، وأضف إلى ذلك أن الخصومات المذهبية أشغلت الناس عن التفرغ إلى الأدب والفن، فبالطبع أن لم يتأت للأدب الرفيع أن يعايش تلك البيئة، فلا يكون فناً رائعاً ساحراً مثل شعر قرطبة وبغداد إلا إذا قام على اتجاهات أدبية مستمدة من حياة زاهية في بيئة مطمئنة هادئة. إلا أن الشخصية الأدبية الجزائرية بدأت حينئذ تتميز، وقد يعثر الباحث على شعراء قد فرضوا وجودهم في ميدان القريض، وستستكمل هذه الشخصية نضجها فتأتي بنتاج لا يقل روعة وجمالاً عن مثيله في الأقطار العربية على عهد ملوك صنهاجة الجزائريين الذين سيدفعون بالأدب في كل من الجزائر وإفريقية دفعاً إلى الأمام مشجعين أهله منتهى وسعهم مادياً وأدبياً. إن القصائد التي قالها «ابن هانىء» في «جعفر» وأسرته تعد من روائع الآثار الأدبية والفنية في حياة هذا الشاعر. فإن مكوث «ابن هانىء» بهذا الإقليم قد أفاد شخصيته الفنية، فإن ممارسته قول الشعر لاسترضاء الأسرة كلها وللظهور على خصومه قد شحذت قرائحه وأكسبت خياله سعة وبراعته حنكة، فأمكنه أن يأتي بتلك القصائد الفاتنة التي تحدث بها الناس ورواها الأدباء والرواة وأنشدت في مجلس «المعز» الفاطمي وهو في القيروان، فأرسل إلى «جعفر» يطلب منه «ابن هانىء»، وامتثل الأمير وأعد للخليفة هدية نفيسة أرسلها إليه، وكان فيها ابن هانىء الشاعر بل هو أغلى ما فيها من نفائس[1].

التحق «ابن هانىء» ببلاد «المعز»، وقلبه متعلق بسيده والمسيلة

(1) قصة الأدب في الأندلس جـ 2 صـ: 173، محمد عبد المنعم خفاجة.

التي تذكره بإشبيلية وقرطبة، وقد أقام بها جعفر معالم شبيهة بمعالم الأندلس.

أما «جعفر» فبقي على رأس ولايته، الزاب، إلى أن نافسه أمراء صنهاجة ، ونشأت بينه وبينهم حروب قتل فيها «زيري بن مناد» وذهب فيها ضحية عثر فرسه، فقام ابنه «بلقين» منتقماً لوالده، وظهر على «جعفر». فخرج هذا من عاصمته حينئذ يوم 18 رمضان 31-15تموز 971م، وتوجه إلى قرطبة، فأضاف «المعز العبيدي» ولاية المسيلة إلى «بلقين» فعمت ولايته إذ ذاك كلاً من ولايات الجزائر الثلاث «المسيلة» و«تيهرت» و«أشير» فلم تبق إلا «باغاية» فستصير تحت نفوذه حينما يفوض له «المعز» تدبير أمر البلاد عند مغادرته المغرب إلى مصر، وكان قد فتحها «جعفر بن فلاح الكتامي» الجزائري مصحوباً «بجوهر الصقلي». ودانت للفاطميين سورية، والفضل في ذلك يرجع كذلك إلى قائدهم الشجاع المحنك «جعفر بن فلاح الكتامي»، دخل الرملة واحتل «طبريه» ثم «دمشق» في شهر محرم سنة 359 (تشرين الثاني 969م). إلى أن كان ما كان من القرامطة . فقتل يوم الخميس 6 ذي القعدة سنة 360هـ. 31 آب 971م، وقد مدحه الشعراء قبل موته منهم «ابن هانىء» حيث يقول:

كانت مُساءلة الركبان تخبرني عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا، فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

الفصل التاسع

الفترة الصنهاجية

1) بنو مناد: زيري وباديس وحماد
2) أشير والقلعة
3) الشخصيات الجزائرية التي أسهمت في ازدهار الثقافة بالقيروان: ابن أبي الرجال، ابن رشيق، عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي، ابن قاضي ميلة، ابن الربيب.
4) دخول بني هلال وسليم إلى إفريقية وهزيمة المعز بن باديس.

إن صنهاجة قبيلة عريقة من كبريات القبائل الجزائرية، قد شاركت في أحداث البلاد. ومن زعمائها «مناد بن منقوش» الذي كان من عمال الأغالبة، وقد خلفه ابنه «زيري»، طلب منه «المنصور الفاطمي» أن يساعده ضد ثورة زناتة أحلاف أمويي الأندلس من جهة وثورة «أبي زيد» الخارجي من جهة أخرى. فلبى رغبته ونجح في أمره. فنالت بذلك صنهاجة مقاماً رفيعاً لدى الدولة الفاطمية، وأكرم المنصور الفاطمي «زيري بن مناد» وعينه أميراً على قبيلته ونواحي الزاب تقديراً لخدماته التي كانت سبباً هاماً لتوطيد دعائم ملكه. مات زيري، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل، وخلفه ابنه «بلقين».

ارتحل «المعز» الفاطمي إلى قاعدة ملكه الجديدة بمصر سنة 362هـ. واستخلف «بلقين» على إفريقية والمغرب الأوسط. فأخذ هذا زمام الأمر يوم الأربعاء 22 ذي الحجة 361 (4 اكتوبر 972م). وكان في أول أمره والياً على مدينة الجزائر أيام إمارة والده على صنهاجة. ولقد استطاع أن يحقق وحدة المغرب العربي على نحو لم يوفق إليه حكام المغرب قبله. لما مات «بلقين» خلفه ولده «المنصور»، وكان مقيماً بولاية أشير، وقد عهد إليه أبوه بالولاية. فبويع سنة 371هـ. (984م). وبعده بويع لابنه «باديس». وكان أول ما قام به هذا من الأعمال الإدارية أن عقد لعمه «حماد بن بلقين» على جميع ولاية الجزائر الشرقية، وأقطعه مقاطعة أشير، وأمده بالخيل والسلاح حتى يكون دائماً على أهبة للدفاع أمام طوارىء القبيلة المعادية «زناتة». فتمردت زناتة على السلطة

الحاكمة لاحتكار صنهاجة بالسلطان دونها. فأمر «باديس» عمه بالقضاء على حركة هؤلاء الثوار، فاشترط «حماد» على «باديس» أنه، إن نجح في زحفه على زناتة، يوليه المغرب الأوسط. فوافقه «باديس» على ذلك. فأعلن «حماد» الحرب على زناتة وظفر بهم، فأصبح حينئذ صاحب النفوذ المطلق بالجزائر. فهكذا صار المغرب كله تحت قبضة الصنهاجيين الجزائريين، فالباديسيون بإفريقية وعاصمتهم القيروان والحماديون بالجزائر وقاعدتهم «أشير» ثم القلعة ثم بجاية وعرف المغرب في ظلال كلتا الدولتين تقدماً كبيراً.

كان إنشاء أشير على يد «زيري» سنة 324هـ. (926م) وشيد بها قصراً على شاكلة القصر الذي استقبله فيه «المعز» بالمهدية (شكل 35). فأحضر من المهدية أشهر المهندسين لذلك، وعاش فيه عيشة مشرقية، والتف بالعلماء والأدباء والموسيقيين، وقد مسّت يد التجميل «المهدية» و«مليانة»، فقد أنشأهما «بلقين» بأمر والده سنة 355هـ. 961م. وتلتهما مدينة الجزائر ـ العاصمة اليوم ـ سنة 362هـ. 973م.

اتخذ «حماد» أشير عاصمة لملكه، ولكن، تبادر إلى فكره أن يؤسس عاصمة جديدة. فاختار لها موقعاً استراتيجياً هاماً بجبل منيع يعرف بجبل «كياتة» وعلى مقربة من ميناء «بجاية» ومن «مسيلة» التي كانت ملتقى طرق القوافل الآتية من بلاد السود والذاهبة إلى القيروان من جهة وإلى الجزائر وتونس ووهران وتيهرت من جهة أخرى، وسمى عاصمته «بالقلعة»، ولم يأل جهداً لإعلاء شأنها، فأخذ في تعميرها. فشيدت المساجد والفنادق. وقصدها التجار وأهل المصانع من الداخل والخارج. فقد اعتنى هو ومن خلفه، بالعلم وأهله، فنهضت الثقافة على يدهم نهضة كبيرة. أسسوا المعاهد العلمية، ازدحم عليها الكثير من العلماء والحكماء والأطباء وأهل الفنون الرياضية والهندسية، وأغدقوا عليهم صلاتهم. في هذه الفترة تهيأت للجزائر عدة عوامل كان من شأنها أن تعمل على تنشيط الحركة الثقافية بها: أعلن حماد إلغاء مذهب الشيعة، وفرض على الرعية مذهب السنة. فرضي عنه جميع الفقهاء

ورجال الدين، ورفعوا رؤوسهم ونشطوا. وقد اشتهر هذا العاهل بتقريب العلماء والأدباء، فمن البديهي أن يتقاطر عليه أهل العلم والأدب. وأضف إلى ذلك هجرة معظم سكان القيروان إلى القلعة إثر زحف الهلاليين وسليم عليها. كان المعز بصبرة العاصمة الإدارية للقيروان والواقعة على نحو نصف ميل منها. رباه ووجهه ولقنه العلم ودربه على سياسة الملك الأديب الكبير «أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني» أحد دهاة السياسة الواردين على القيروان من تيهرت، ويذكر المؤرخون أن هذا الرجل هو الذي لقن «المعز» مذهب مالك وكرهه في مذهب الشيعة. وذلك ما دَفَعَهُ لنبذ طاعة الفاطميين وإعلان استقلاله عنهم بعد ذلك. وجلس على العرش بعد موت أبيه، ووصلت إفريقية في عهد هذا العاهل المنزلة القصوى في الحضارة، كانت رافلة في حلل الهناء والسعادة على عهده، وكانت تزدان بازدهار الآداب والعلوم. وزر له ابن أبي الرجال، وكانت منزلته لديه عالية ونفوذه في البلاط عظيماً، قال عنه «محمد النيفر» في عنوان الأريب (جـ 1 صـ 57): «بلغ الرئاسة في دولة الصنهاجيين، وزر لهم وكان ذا همة ومكارم» فتقرب إليه الأدباء والعلماء، وقد أهدى إليه «ابن رشيق المسيلي» كتابه «العمدة». وذكر «ابن رشيق» عنه أنه «كان رجل الخطب وفارس الكتب» و«قام سوق العلم والأدب وجعل ذكره باقياً وجسده سامياً وأيده من النصر والتوفيق بما فيه رضا للخالق والمخلوق فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم».

وجاء في المغرب العربي[1] عن الدائرة أن الأوروبيين عرفوا «ابن أبي الرجال» وذلك بآثاره العلمية ولا سيما كتابه «البارع في أحكام النجوم»، وقد نقله إلى الاسبانية «يهوذا بن موسى» سنة 1256، ثم نقله من الاسبانية إلى اللاتينية «بطرس الرجوي» و«ايجيديوس التبالدي». وطبعت ترجمته عدة مرات منذ طبعتها الأولى بالبندقية سنة 1485م. ومن آثاره العلمية أرجوزة في الأحكام الفلكية طبعت في آخر كتاب «كفاية

(1) لرابح يونار صـ: 299.

الطالب في الأحكام الفلكية» لغزالي الموسى، وشرحها أحمد الحسن بن قنفذ القسنطيني سنة 1313م. ونعرف حياة «ابن أبي الرجال» الأدبية عن «ابن رشيق»، وقد روى لنا عنه أشعاراً كثيرة. قال وهو بتيهرت سنة 405هـ. يتشوق إلى أهله.

ولي كبد مكلومة من فراقكم — أطمئنها صبراً على ما أجنت
تمنتكم شـوقاً إليكم وصبـوة — عسى الله أن يدني لها ما تمنت
وعيني جفاها النوم واعتادها البكا — إذا عن ذكر القيروان استهلت

وفي هذه الأبيات يقول «ابن رشيق»: «فلو أن أعرابياً تذكر نجداً فحن به إلى الوطن أو تشوق فيه إلى بعض السكن ما حسبته يزيد على ما أتى به هذا المولد الحضري المتأخر العصر، وما انحط بهذا التمييز في هواي ولا أتنفق بهذا القول عند مولاي ولا الخديعة مما أظن به ولا فيه، ولكن لا رأيت وجه الحق فعرفته والحق لا يتلثم»[1].

ثم يورد له أبياتاً في الراح والساقي:

باكر الراح ودع عنك العذل — واسعَ في الصحة من قبل العلل
واغتنم لـذة يـوم عـاجـل — فالمنايا ضاحكات بالأمـل
ماترى الساقي كشمس طلعت — تحمل المريخ في برج الحمل
مائساً كالغصن في دعص نقا — فاتن المقلة زينت بالكحل

ثم أبيات في الغزل:

غراء واضحة ينـوس بقرطهـا — جيد حَكى جيد الغزال الأعنق
صدت فأغرت بالسجوم مدامعي — والعين تذرف بالدموع السبق
تشكو البعاد إذا بعدت تصبراً — وإن ارتجعت إلى الزيارة تفرق
ولقد يبيت أخو المودة لائمي — في حبها لوم الشفيق المشفق

(1) العمدة جـ 1 صـ: 113.

حتى إذا طلعت فابصر شخصها | أخزى جهالة لائمي المستحمق
كم قطعت بوصلها من ليلة | وبشرب صافية كلون الزئبق
يسعى بها كالبدر ليلة تِمِّهِ | سحار ألحاظ رخيم المنطق
آليت أترك ذا وتلك وهذه | حتى يفارقني سواد المنطق

وإليك هذه الأبيات وقد ترسم لنا بعض ملامح في شخصية «ابن أبي الرجال»:

أيا رب، إن الناس لا ينصفونني | ولم يحسنوا قرضي على حسناتي
إذا ما رأوني رخاء ترددوا | إلي وأعدائي لدى الأزمات
ومهما أكن في نعمة حزنوا لها | ذوو أنفس في شدة جذلات
ثقافتي ما دمت صلاتي لديهم | وإن عنهم أخرتها فعداتي
سأمنع قلبي أن يحنّ إليهم | وأصرف عنهم قالياً لحظاتي
وألزم نفسي الصبر دأباً لعلّني | أعاين ما أمّلت قبل مماتي
ألا إنما الدنيا كفاف وصحة | وأمن، ثلاث هن طيب حياتي

ويورد «ابن رشيق» بيتين يصفهما بأنهما من أحسن الأشعار:

خليلي إن لم تساعداني فأقصرا | فليس يداوى بالعتاب المتيم
تريدان مني النسك في غير حينه | وغصني ريان ورأسي أسحم

ثم يذكر له في العتاب بيتين ويستحسنهما:

وإني لأطري كل خل صحبته | وأنت ترى شتمي بغير حياء
ستعلم يوماً ما أسأت لصاحب | تكرم أخلاقي وحسن وفائي

و«لابن أبي الرجال» شعر كثير ذكر منه الأستاذ «عبد الوهاب» هذه الأبيات يفتخر بقومه:

يا آل شيبان لا غارت نجومكم | ولا خبت ناركم من بعد توقيد

أنتم دعائم هذا الملك مذ ركضت — قبل الخيول لإبرام وتوكيد
المنعمون إذا ما أزمت أزمتـ — ـوا الواهبون عتيقات المزاويد
سيوفكم أفقدت كسرى مرازبه — في يوم ذي قار إذ جاءوا لموعود

فـ«ابن أبي الرجال» كان يصنع الشعر فصاحة ولسناً وافتخاراً بنفسه وحسبه وتخليداً لمآثر قومه، ولم يصنعه رغبةً ولا رهبةً ولا مداحاً ولا هجاء وذلك كما يقول هو نفسه في شعره:

وجدت طريق اليأس أهل مسلكاً — وأحرى بنجح من طريق المطامع
فلست بمطر ما حييت أخائدي — ولا أنا في عرض البخيل بواقع[1]

فقد أثر «ابن أبي الرجال» في حياة «ابن رشيق» وفي نواحي ثقافته واتجاهه كما أثر فيها شيوخ آخرون مثل الشاعر «أبي إسحاق الحصري» واللغوي النحوي «ابن البقال عبد العزيز بن سهل الخشني»، والشاعر «معد بن حسن بن جبّارة الفارسي»، والشاعر «الكموني محمد بن إبراهيم» و«القزاز» و«الحسن بن محمد التميمي» النحوي اللغوي النسابة التاهرتي أصلاً القيرواني طلباً للأدب[2] والنحوي «عبد العزيز خلوف»، فكان «ابن رشيق» يستوعب كثيراً من ألوان النشاط الثقافي الحيوي الذي كان يقوم من حوله في القيروان وينتفع بما كان قبله[3] خلف كتباً كثيرة أهمها العمدة التي قال فيها ابن خلدون: «هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة[4]. ولم يكتف أحد قبله ولا بعده مثله، لقد خلدت ذكره، واعتنى الأدباء بها في عصره وبعده اعتناء كبيراً واعجبوا بمباحثه في النقد الأدبي والبلاغة».

وكانت تعيش في هذه البيئة الزاخرة بالعلماء والأدباء شخصية جزائرية أخرى كان خطرها كبيراً في الأدب. وهذه الشخصية تتمثل في

(1) العمدة جـ 1 صـ: 37.
(2) القفطي.
(3) حياة القيروان.
(4) النقد الأدبي.

«عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي». ولد «عبد الكريم» بالمحمدية التي تسمى اليوم المسيلة من مقاطعة «الزاب» الجزائرية، وتلقى دراسته الأولى في تلك البلدة، ثم ارتحل إلى القيروان حيث اكتملت ثقافته الواسعة في علم اللسان والأوزان وأصبح بعد حين كاتباً حاذقاً وشاعراً بارعاً وذا مكانة واسعة في النقد، وقد شاع صيته في هذا اللون من الأدب بفضل كتابه «الممتع» الذي يورد فيه رأيه في الشعر والشعراء ويوضح أساليب النقد ومناحيه. وقد تأثر به مواطنه «الحسن بن رشيق» وأخذ بآرائه في كثير من الأحيان، فاقرأ العمدة يتضح لك ذلك، وتأثر به كذلك «الحصري» و«ابن شرف»، فأتحفنا الأول بزهرة الآداب والثاني برسائل الانتقاد. لقد أعانت «عبد الكريم» تلك البيئة على الحصول على خصوبة كبيرة في الأدب وقد اتصل بأولي الأمر، فكتب «لتميم بن باديس» وله قصائد طوال منها القصيدة التي مدح بها المعز بن باديس مستهل فيها بوصف دار البحر المنصورية ويقول فيها:

يا رب فتيا صدق رحت بينهم ... والشمس كالدنف المعشوق في الأفق
مرضى أصائلها حسرى شمائلها ... تروّح الغصن الممطور في الورق

وروى له صاحب زهر الآداب أبياتاً في رثاء «عيسى بن خلف» صاحب خراج المغرب وقد تناول دواء كان سبب حتفه:

منايا سدد الطرق عنها ولم تدع ... لها من ثنايا شاهق متطلعا
فلما رأت سور المهابة دونها ... عليك. ولما لم تجد فيك مطمعا
ترقت بأسباب لطاف ولم تكد ... تواجه موفور الجلالة أروعا
فجاءتك في سر الدواء خفية ... على حين لم تحذر لداء توقعا

وروى له «ابن رشيق» في عمدته المقطوعة التالية وقد وصف فيها فيلاً:

وأضخم هندي النجار تُعدّه ... ملوك بني ساسان أرابها أمر

من الورق لا من ضربة الورق ترتعي　　أصاخ ولا من ضربة الخمس والعشر
يجيء كطود جائل فوق أربع　　مضبرة لمت كما لمت الصخر
له فخذان كالكثيبين لبّدا　　وصدر كما أوفى من الهضبة الصدر
ووجه به أنف كراووق خمرة　　ينال به ما تدرك الأنمل العشر
وأُذْنٌ كنصف البرد يسمعه الندا　　خفياً وطرف ينفض الغيب مزوّرُ
ونابان شقا لا يريك سواهما　　قناتين سمراوين طعنهما نثر
له لون ما بين الصباح وليله　　إذا نطق العصفور أو غلس الصقر

يظهر «عبد الكريم» من جميع هذه الأشعار أنه قوي مجيد، وخلاصة القول: إن «عبد الكريم» خاض قوياً في سوق الأدب القيروانية، وخطا النقد خطوة مباركة بفضل آرائه في الشعر والشعراء. ولقد صدق «ابن فضل الله العمري» حيث يقول فيه: «ناطق للبلاغة محرز ولو تقدم زمن الجاهلية لبذّ ناسه وغض من كل فحل فلم يرفع رأسه»، وظل «عبد الكريم» يتمتع بسمعة مرموقة بين أدباء عصره إلى أن توفي سنة 405هـ. بالمهدية.

ومن معاصريه الجزائريين «أبو محمد عبد الله بن محمد» التنوخي المشهور «بابن قاضي ميلة»، ذكره «ابن بسام» في ذخيرته و«العمري» في مسالكه و«ابن خلكان» في وفياته، و«ابن رشيق» هو الآخر أثنى عليه في عمدته فقال:

«شاعر لسن مقتدر يؤثر الاستعارة، ويكثر الزجر والعيافة، ويسلك طريق «ابن أبي ربيعة» وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات». ويخبرنا «ابن خلكان» عن القصيدة المشهورة التي ينحو فيها نحو «ابن أبي ربيعة» فيقول: «مدح فيها «ثقة الدولة»[1] في عيد النحر، وهي قصيدة بديعة لا توجد بكمالها في أيدي الناس، ولقد ظفرت بها على ظهر كتاب، ولم

(1) ثقة الدولة: هو أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد أمير صقلية. تولى إمارتها سنة 377هـ.

يكن عندي منها سوى البعض، ولا سمعت أحداً يروي منها إلا ذلك القدر فأحببت إثباتها لحسنها وغرابتها». وهذه القصيدة تحتوي على واحد وستين بيتاً نراه فيها متغزلاً حيناً ومادحاً حيناً آخر ، يصور لنا في تغزله عواطف المرأة الحضرية على طريق الحوار والقصص. ويختار لوصف ممدوحه المعاني اللطيفة والألفاظ الحلوة الناعمة فأنصت إليه:

يديل الهوى دمعي وقلبي المعنف ... وتجني جفوني الوجد وهو المكلف
كأني إذا ما لاح والرعد معول ... وجفن السحاب الجون بالماء يذرف
سليم وصوت الرعد راق وروقه ... كنفت الرقى من سوء ما أتكلف
ذكرت به ريا وما كنت ناسياً ... فأذكر لكن لوعة تتضعف
ولما التقينا محرمين وسيرنا ... بلبيك يُطْوى والركائب تعسف
نظرت إليها والَمطِيُّ كأنما ... غواربُها منها معاطِسُ رُعَّف
فقالت: أما منكن من يعرف الفتى ... فقد رابني من طول ما يتشوّف
أراه إذا سرنا يسير حذاءنا ... ونوقف أخفاف المطي فيُوقف
فقلت لتربَيْها أبلغاها بأنني ... بها مستهام، قالتا: نتلطَّف
وقولا لها: يا أم عمرو، أليس ذا ... مَنًى والمنى في خفية ليس يُخْلِف
تفاءلت في أن تبذلي طارف الوفا ... بأن عنّ لي منك البنان المطرف
وأما دماء المهديَ فهي تواصل ... يدوم ورأيٌ في الهوى يتألف
وفي عرفاتٍ ما يخبر أنني ... بعارفة من عطف قلبك أسعف
وتقبيل ركن البيت إقبال دولة ... لنا وزمان بالمودة يعطف
فأبلغتا ما قلته فتبسمت ... وقالت أحاديث العيافة زخرف
بعيشي ألم أخبركما أنه امرؤ ... على لفظة برد الكلام اُلمفوّف
فلا تأمنا ما استطعتما كيدَ نطقه ... وقولا ستدري أيّنا اليوم أعْيَف
إذا كنت ترجو من منى الفوز بالمنى ... ففي الخَيْفِ من أعراضنا نتخوّف
وقد أنذرَ الإحرامُ أنّ وصالنا ... حرام وأنا عن مزارِك نَصْدِف
وهذا وقذْفي بالحصى لك مُخْبِرٌ ... بأن النوى بي عن ديارك تقذف

وحاذر نفاري ليلة النفر إنه سريع فقل من العيافة أعرف
فلم أر مثلينا خليلي مودة لكل لسان ذي غرارين مُرْهِفُ
أغرُّ قُضَاعِيٍّ يكاد نواله لكثرة ما يدعو إلى الشكر يُجْحِف
إذا نحن أخلفنا مخائل ديمة وجدنا حيا معروفه ليس يُخْلف
ويقظان يقظان شاب البطش باللين فالتقى بكفيه ما يُرجى وما يتخوّف
حسام على من ناصب الدينَ مُصْلَتٌ وسِتْرٌ على من راقب الله مُغْدَق
يسايره جيشان: رأي وفيلق ويصحبه سيفان: عزم ومُرْهَف
مطل على من شاءه فكأنما على حكمه صرف الردى يتصرّف
يرى رأيه مالا ترى عين غيره ويفري به ما ليس يفري المثقف
رعى الله من ترعى حمى الدين عينه ويحمي رُبى الإسلام والليلُ أغضف

وموقف «ابن رشيق» من هذه القصيدة نجده في عمدته حيث يقول: «لو أن هذا الشعر لمن تقدم ذكره «كابن ربيعة» ومن سلك مسلكه لا يُستحيد لهم وذكروا به وقدم على كثير من أشعارهم ولا عيب إلا أنه متأخر».

وكانت ثم شخصية أخرى عاصرت «ابن رشيق»، وتلك الشخصية تتجلى في «ابن الربيب الحسن بن محمد بن أحمد» التميمي التيهرتي نسبة إلى تيهرت ويدعى القيرواني لقضائه معظم حياته بالقيروان طلباً للعلم والأدب. اتصل «بالقزاز» شيخ اللغة في المغرب وقتئذ، فلم يلبث أن صار قوي الكلام، ورسالته إلى «ابن حزم» الأندلسي أكبر شاهد على توقفه في النثر الفني. تعاطى صناعة القريض، فأصبح شاعراً بارعاً تشهد بحذقه وقوته تلك القصيدة التي قالها في «محمد بن أبي العرب». وصفه «ابن رشيق» بأنه «بلغ نهاية الأدب وعلم النسب وكان قوي الكلام يتكلفه بعض التكليف» ثم قال فيه: «حدثني «حماد» من أصحابنا قالوا: سألنا «عبد الكريم» من أشعر أهل بلدنا في الوقت؟ فبدأ بنفسه وثنى «بابن الربيب».

والقصيدة التي أشرنا إليها أعلاه نقتطف منها قوله:

ألا إنما أودى بصبري حاجة ... لـدى رأس نيق للتعذر أيهما
جعلتُ إليها إذا تناءى محلها ... ندى ابن أبي العرب المؤمل سلّما
ضمنتُ لنفسي نجحها عنه واثقاً ... وأخلق براج ضامن إن تذمما
يفل الخميس المجر مصلت رأيه ... إذا رأى ثبت القوم فال وأحجما
إذا اشتجرت فيه الأسنة خاضها ... إلى الموت حتى يترك الموت أعصما
أبت لهم أن يرتضوا الضيمَ أنفس ... كرام رأت رميًا بها الموت أحزما
فهبوا وما هابوا الردى فتذرعوا ... على خطر قطعاً من الليل مظلما
فأرسل باديس الهمام إليهم ... مع الحافل الغدّار جيشاً عرمرما
فسار على حرد تضب لثاتُه ... ولم يدر حيناً أي حتف تيمما
وأودى على حين وأودى حسامه ... وأقدم حتى لم يجد متقدما
ولو لم يعاجله الحمام أبادهم ... ولكن رجال أسلموه فسلما
وما إن نجا من غمرة الموت قاسم ... بإحجامه لكنما الموت أحجما
نقدم كي يسقي بما سقيا به ... فأخره المقدار لما تقدما
وهون وحدي أنهم خمسة مضوا ... وقد قعصوا خمسين قرما مسوما
وكان عظيًما لو نجوا غير أنهم ... رأوا حسن ما أبقوا من الذكر أعظما
أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم ... وأن يرتقوا من خشية الموت سلما
ولو أنهم فروا لفروا أعزة ... ولكن، رأوا صبراً على الموت أكرما

وفي الذخيرة[1] يورد له «ابن بسام» الرسالة التي بعث بها إلى «أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم» والتي وصف فيها تقصير أدباء الأندلس وتفريطهم في حق آثارهم وفضائلهم ومآثر بلدانهم، يقول «ابن الربيب»:

«إني فكرت في بلدكم، أهل الأندلس، إذ كان قرارة لكل فضل، ومقصد كل طرفة ومورد كل تحفة، إن بارت تجارة أو صناعة فإليكم

(1) القسم الأول المجلد الأول صـ: 111.

تجلب، وإن كسدت بضاعة فعندكم تنفّق، مع كثرة علمائه ووفور أدبائه، وجلالة ملوكه ومحبتهم للعلم وأهله ورفعهم من رفَعَه أدبُه، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب يقدمون من قدمته شجاعته، وعظمت في الحروب نكايته، فشجُع عندكم بذلك الجبان وأقدم الهيبان، ونَبُه الخامل، وتنافس الناس في العلوم، ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ونهاية التفريط، من أجل أن علماء الأمصار دونوا فضائل أعيانهم وقلدوا الكتب مآثر أقطارهم، وأخبار الملوك والأمراء، والكتاب والوزراء والقضاء والعلماء، فأبقوا لهم ذكراً في الغابرين، ولسان صدق في الآخرين؛ وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم، كل امرىء منهم قائم في ظله لا يبرح، وثابت على كعبه لا يتزحزح، يخاف إن صنف أن يعنف، أو تخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، لم يتعب نفساً أحدٌ منهم في مفاخر بلده، ولم يستعمل نفساً في فضائل ملوكه، ولا بلّ قلما بمناقب كتابه ووزرائه، ولا سوّد قرطاساً بمحاسن قضاته وعلمائه، على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه، لوجد للقول مساغاً، ولم تضق عليه المسالك هنالك، ولكن، هم كل أحد منهم أن يطلب شأو من تقدمه من رؤساء العلماء ليجوز قصب السبق، ويفوز بقدح ابن مُقْبِل، ويأخذ بكظم دعبل، ويصير شجىً في حلق أبي العَمَيْثَل؛ فإذا أدرك تلك البغية، وجاءته بعد المنية، دفن علمه معه ومات ذكره، وانقطع خبره، ومن قدمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم، فألّفوا دواوين يبقى لهم بها ذكر يتجدد طول الأبد.

فإن قلت: إنه كان ذلك من علمائكم، وألفوا كتباً لكنها لم تصل إلينا، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق، لأنه ليس بيننا وبينكم إلا روحة راكب، أو دلجة قارب، لو نفث ببلدكم مصدور لأسمع ببلدنا من في القبور، فضلاً عمن في الدور والقصور، وتلقوا قوله بالقبول، كما تلقوا ديوان «ابن عبد ربه» منكم الذي سماه بالعقد، على أنه يلحقه فيه بعض اللوم، إذ لم يجعل فضائل بلده، واسطة عقده، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه، لكنه أكثر وطول، وأخطأ المفصل، وأطال الهز بسيف غير

مِقصَل، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيهم، وإغفال ما يهمهم أرشد أخاك أرشدك الله إن كان عندك في ذلك الجلية، وبيدك فصل القضية إن شاء الله».

إن موقف «ابن الربيب» من العقد الفريد لهو نفس موقف «الصاحب بن عباد» منه حيث قال عندما انتهى إليه الكتاب: «هذه بضاعتنا ردت إلينا» فإن «ابن عبد ربه» جمع آداب الشرق دون أن يروي شيئاً لأدباء الأندلس إلا ما كان من قوله.

فأجاب «أبو المغيرة» أديبنا برقعة حذف «ابن بسام» أكثر فصولها، منها: «أبقاك الله من حمم صريح الود، أهذى تحيته على البعد، فإن الفهم رحم والأدب ما بين أهله وسائل وذمم؛ وليس عدم التراثي والعيان، قاطع للأسباب والأقران، ولا تنائي الديار والمنازل، بقادح في الأذمة والوسائل، فالكتاب عوض عن الكلام، والتواصل بالنفوس لا بالأجسام، وما زلت أتنسم ذكرك، فأترسم قدرك، وَأسمع خُبْرك فأرى خُبْرك، حتى أرادت الأيام كشف السر، ورفع الستر، فوقفت على الصحيفة التي ظاهرها ديباج مركوم، وباطنها لؤلؤ منظوم، ووشي محوك، وذهب مسبوك، فرأيت صور الأدب باهرة المرأى والعيان، زاكية المخبر والامتحان، شهادة لك بأدلق لسانَ، وأصدق بيان، إنك أبو عذرتها ومالك جملتها، وأحد فتونها، ووارد معينها، وقادمة جناحها وصبا رياحها؛ فسألت سؤال العالم، وبحثت بحث اليقظان المتغافل، وادعيت الحيرة وأنت أهذى في تلك الفلا، من فارط القطا، لتعلم أني المخطىء والمصيب، وكيف الجواب والمجيب؛ والله يوفق من المراجعة لما يرضيك، ويكون وقف أمانيك، وما أجهل أني على نفسي أبتهل بهذا الدعاء، لمن أسرّ حَسْواً في ارتغاء».

نجتزىء من هذا الجواب بهذا الفصل الذي هو ثناء على «ابن الربيب» وعلى أدبه وحسن ديباجته وبيانه وذلاقة لسانه، ويبدو عليه من الصنعة ما يبدو على رسالة «ابن الربيب»، مما يدل على أن سيمات الأدب في القطرين واحدة لاتصال أدباء المغرب الوثيق بأدباء الأندلس وكلهم

يغترفون من منبع واحد ذلك المنبع الذي لا ينضب ماؤه بأرض المشرق العربي.

فرسالة «ابن الربيب» تدل على أن الجزائريين كانوا على بينة من أخبار الملوك والأمراء والكتاب والوزراء والقضاة والعلماء في الديار الأندلسية، فليس بين البلدين «إلا روحة راكب أو دلجة قارب» وتدل أيضاً على ما وصل إليه الحقل الأدبي من الخصوبة في إفريقية وقد شارك الجزائريون في هذه الخصوبة من جميع جوانبها إلى حد بعيد، فكان منهم الشاعر والكاتب والناقد، ولعل أكبر ناقد في القرن الخامس الهجري «ابن رشيق المسيلي» الجزائري. فإن العرب عرفوا النقد الأدبي كغيره من ألوان المعرفة منذ الجاهلية، وقد مر بأطوار شتى في المشرق والمغرب، وكانت الأصداء النقدية تتلاقى في البيئة القيروانية التي كان يعيش فيها «ابن رشيق» فتمتزج بما فيها من أصوات. كان فيها اللغويون والعروضيون، كان لهم رأيهم في الشعر وفي اللغَة والغريب والمحسنات اللفظية والبلاغة، وكان فيها النقدة الأدباء الشعراء، كان فيها «القزاز» وكان فيها «عبد الكريم النهشلي» وأضرابه، كتب «عبد الكريم» كتابه «الممتع» في النقد، وكتب «أبو إسحاق الحصري» كتابه زهر الآداب وتناول «ابن شرف» رسالة أعلام الكلام والشعر والشعراء، ولكن طريقهم في النقد الأدبي تناول أخباراً نقدية متناثرة وأحكاماً على الأدب متفرقة وآراء في الشعر جزئية غير متقصية إلى أن يجيء «ابن رشيق» فيختص في نقد الشعر عامة ويبوب البحث ويجمع له عدته وينظم منهجه، بحث منهجي علمي»[1]. فاقرأ قراضة الشعر والعمدة يتضح لك ذلك.

أعلن «المعز بن باديس» انفصاله عن الدولة الفاطمية. فصمم «المعز الفاطمي» على الانتقام من «المعز» ومن عمه «حماد» لأنه هو الآخر أعلن استقلاله وأمر بنبذ مذهب الشيعة والتمسك بالمذهب السني. وبما أن الخليفة الفاطمي لم يقدر على محاربة بني زيري بالسيف أرسل إلى المغرب

(1) الدكتور عبد الرحمن ياغي: حياة القيروان.

قبائل سليم وهلال وزغبة ورياح والأتبج ومعقل التي انتقلت من الجزيرة العربية إلى الصعيد المصري. وعقد لرؤسائها على أمصار البلاد وثغورها. فدخل أولئك الأعراب إلى إفريقية والجزائر، وأصبحوا عناصر فوضى واضطراب وتخريب كان له الأثر السيء في الميدان الاقتصادي على ما نفهم من وصف «ابن خلدون» لهم. لعمري أن مؤرخنا الكبير لظلمهم إذ يعزو لهم وحدهم ما كان من تخريب حينئذ في إفريقية والجزائر.

إن «المعز» هو الذي تسبب في هزيمته المنكرة أمام هجمات بني هلال وسليم، وذلك لقلة وعيه السياسي: اتصل «مؤنس بن يحيى الرياحي» بالمعز، «وكان «المعز» كارهاً لأخوانه صنهاجة محباً للاستبدال بهم حاقداً عليهم»[1]. فشاور «مؤنساً» في اتخاذ بني عمه رياح جنداً، فأشار عليه بأن لا يفعل ذلك، فإن رياح لا يجتمعون على الكلمة ولا ينقادون إلى الطاعة. فألح عليه «المعز»، ففعل «مؤنس» وعاد في ركب من رياح، فلما انتهوا إلى قرية تنادوا: هذه القيروان، ونهبوها من حينها، فلما ورد الخبر على القيروان عظم الأمر على «المعز» وأمر بثقاف أولاد «مؤنس» وعياله وختم على داره حتى يعلم ما يكون من أمره. فلما بلغ مؤنساً ما فعل بأهله وولده اشتدت نكايته وعظم بلاؤه. فأخذ رياح والأثبج وبنو عدي يزحفون إلى أعمال القيروان ويقطعون السبل ويعيثون في الأرض فساداً، ثم كانت معركة «حيدران» ودارت الدائرة فيها على «المعز». فلو سمع إلى نصح «مؤنس» ولو لم يعتد عليه في أولاده وعياله لما وقع له ما وقع. ينسب «ابن خلدون» كل ما وقع من تخريب إثر هذه المعارك الطاحنة بين الفريقين إلى الأعراب، وينسى تخاذل الصنهاجيين والزناتيين وخيانتهم «للمعز» وانضمام الكثير منهم إلى صفوف الأعراب، فخربوا وأتلفوا كل ما وجدوه أمامهم أكثر من الهلاليين أنفسهم، وينسى أيضاً أن «المعز» أمر، قبل أن يغادر عاصمته للالتحاق بالمهدية، أن تخرب جميع المزارع والحقول التي تحيط بالقيروان وصبرة.

---

(1) ابن عذاري: البيان جـ 1 صـ: 417.

يقول «ابن عذارى» في الجزء الأول من بيانه صـ : 421 [1] : «أمر السلطان كافة الناس بانتهاب الزروعات المحيطة بالقيروان وصبرة - وهي المنصورية - فسر المسلمون بها، وحسبوها من أرزاقهم وكان مصيرها إلى ما قدر الله من فسادها، وأكل البهائم لها» ثم يقول «ابن عذارى»: «أمر السلطان المعز أن ينتقل عامة أهل صبرة وسوقتها إلى القيروان ويخلوا الحوانيت كلها بصبرة، وأمر جميع من بالقيروان من الصنهاجيين وغيرهم من المعسكر أن ينتقلوا إلى صبرة وينزلوا في حوانيتها وأسواقها؛ فارتج البلد لذلك وعظم الخطب واشتد الكرب، ومد العبيد ورجال صنهاجة أيديهم إلى خشب الحوانيت وسقائفها، واقتلعوها، وخربت العمارة العظيمة في ساعة واحدة» ويدعي «التيجاني» أن الأعراب خربوا حيازة زيتون «بسفاقس»، ونحن نعلم أن «تميم بن المعز» لما حاصر سفاقس سنة 474هـ (1081م) أمر قائده أن يحرق كل ما يوجد بنواحي تلك المدينة ويقطع جميع الأشجار، ويؤيد ذلك قول «ابن عذارى»: «في سنة 474 حاصر تميم مدينة «سفاقس»، وعاث عسكره في أجنتها المعروفة بالغابة، وأفسدها»[1].

وينسب «ابن خلدون» إلى الأعراب تخريب نواحي القلعة، والقلعة حوصرت مراراً، فلا يستبعد أن الأضرار التي لحقتها قام بها الجنود الحماديون أنفسهم. لا ننفي عن الأعراب حركات تخريبية، ولكن، لا يمكننا، في نفس الوقت، أن نعزو لهم وحدهم التدهور الاقتصادي والاجتماعي الذي ألم بالبلاد حينئذ. فكان على المؤرخين أن ينظروا إلى ما قامت به يد الأعراب على حسب الأحداث التأريخية السائدة في البلاد وقتئذ، فإن بني هلال لم يكونوا البتة سبباً في زوال الدولة الزيرية ولا الدولة الحمادية. فقد بقيتا بعد حادثة الأعراب فلم يتضعضع هيكلها إلا بالاضطرابات الداخلية التي كان يقوم بها أعداؤهم مثل زناتة، والهجومات الأجنبية التي استهدفتا لها براً وبحراً. في سنة 449هـ. فسد الأمر بين

(1) البيان جـ 1 صـ: 421.

الزوح الهلالي والسليمي والمعقلي
على عهد بني حماد .



«المعز» الصنهاجي وبين الأعراب. فنقضوا الصلح المبرم سنة 442هـ. بينهم وبينه وأشعلوا نار الحرب، فدارت الدائرة على «المعز». فدخل القيروان. ولكنهم حاصروها بجموعهم، فلم ير «المعز» بدأ من الانتقال إلى المهدية، فغادر عاصمته تحت حماية أصهاره من الأعراب. فدخلها «بنو هلال» ومن انضم إليهم من جيش «المعز». فخربوا وسلبوا ونهبوا ما وجدوه فيها وفي صبرة. فتشتت السكان، وهاموا على وجوههم، وتفرقت مجامع العلم والأدب، وكان حظ الجزائر من هؤلاء الهاربين كبيراً. فقصدوا القلعة والمدن الأخرى، فنونية ابن رشيق[1] تحدثنا عن حالة القيروان في أيام عزها وعما صارت إليه من خوف وذعر وذلة وهوان فامتلأت عاصمة الحماديين بالعلماء والأدباء والفنانين الماهرين فنهضت الثقافة بها نهضة كبيرة ولا سيما حين نقل إليها «بلقين بن محمد بن حماد» عدداً كبيراً من التلمسانيين إثر غاراته على الناحية الغربية، موطن زناتة سنة 454هـ. ولكن، لم يلبث الأعراب أن واصلوا زحفهم على الجزائر فانحدرت جماعة من رياح من نواحي «باجة» وتفرقوا بنواحي «القالة وبونة وقسنطينة» إلى «القل» وجبال «بابور»، وجماعة أخرى من طريق «سبيبة» وانتشروا بنواحي «تبسة» وجنوب « أوراس» وقرى الزاب، ودخل الأثبج من «قفصة» إلى «بسكرة وطبنة ومسيلة» ووصلوا إلى نواحي «القلعة». وظهر «زغبة » و«معقل» من الجنوب وتفرقوا عند وصولهم إلى ما بين «سدراته والأغواط» ، فعرج زغبة إلى الشمال إلى أن وصلوا إلى «متيجة»، فانبثوا في أنحائها، أما «معقل» فواصلوا طريقهم إلى «تفلالت» ومن ثم قصد بعضهم مقاطعتي «تلمسان ووهران»، والبعض الآخر المغرب الأقصى.

انتشر الأعراب في سهول الجزائر وزاحموا البربر وضايقوهم حتى تخلت لهم قبائل عن مواطنها وهجرت إلى الناحية الغربية مثل بني عبد الواد الذين نزلوا بإقليم «تلمسان»، وبني مرين الذين نزحوا إلى المغرب الأقصى، وكونوا هناك مملكة عاصمتها «فاس». اتصل البربر بأولئك

---

(1) أتينا بها في كتابنا تاريخ الأدب الجزائري صـ: 57.

الأعراب بحكم الجوار، وأخذوا عنهم عوائدهم واستعرب كثير منهم لما وجدوا في العربية ثروة لفظية وأدباً راقياً وإعانة على فهم الدين، واستبدلوا بحياتهم حياة عربية[1]، فزادت العربية انتشاراً بـالاحتكاك والمصـاهرة، وأخذت البربرية يتقلص ظلها على الجبال، فقال «الكعاك»:

«إن البربرية بقيت لغة حديث بالجبال والأماكن التي لم يختلط فيها البربر بالعرب ولم تنتشر بينهم الثقافة العربية» حينئذ .

قوي شأن أولئك الأعراب بحيث أنهم كثيراً ما تدخلوا في الحياة السياسية، يعينون أميراً على آخر في تنازعهما، فأصبحوا إذ ذاك عنصراً هاماً في تفكيك روابط السلطة المركزية، وتغلبوا على طرق القوافل، فلا يجتازها غيرهم إلا بخفارة أحدهم. فوقفت حركة البربر التجارية من هذه الناحية، ولكن الهلاليين قاموا بها أحسن قيام ووسعوا نطاق التجارة بين التل والصحراء. فنزوح بني هلال وزغبة ومعقل إلى الجزائر قد أثر في الحواضر والبوادي سياسياً واجتماعياً ولغوياً وجنسياً واقتصادياً.

(1) الميلي، تاريخ الجزائر جـ 2 صـ: 154.

الفصل العاشر

الجزائر الحمادية

1) نهضة الثقافة بالقلعة: هجرة القيروانيين: أبو الفضل بن النحوي.

2) نهضة الثقافة ببجاية.

أ - علاقة الدولة مع رجال الكنيسة.

ب - هجرة الأندلسيين إلى بجاية: دلس الصمادحية.

جـ - هجرة الصقليين: ابن حمديس، الذكي، ابن الحجري.

3) الحالة الاقتصادية والفنية.

أسست القلعة، ونقل إليها خلق كثير من أهل المسيلة وأهل حمزة وأهل تلمسان، وقصدها أهل القيروان والهلاليون وأناس من الشرق والأندلس، وبلغت أوج عظمتها في عهد «الناصر بن علناس». كان هذا العاهل محباً للعلم مصطفياً أهله، فتقاطر على القلعة العلماء والأدباء منهم: «أبو الفضل بن النحوي». أصله من «توزر». وأخذ العلم بإفريقية عن أئمة كبار مثل «اللخمي والمازري وابن زكريا الشقراطسي وعبد الجليل الربعي». وكان ميالاً إلى النظر والاجتهاد. قصد المغرب الأقصى، فدخل سجلماسة وأقرأ بها أصول الدين وأصول الفقه. فكان متأثراً بآراء «الغزالي» يبث كتبه أينما حل ولا سيما الإحياء[1]. فوقع عليه إقبال ما جعل «ابن بسام» أحد رؤساء البلد أن يقول: «هذا يريد أن يدخل علوماً لا نعرفها، وأمر بإخراجه من المسجد. فاضطر «أبو الفضل» أن ينتقل من سجلماسة إلى فاس. فتصدر هناك للإقراء. فضايقه قاضيها «ابن دبوس». فقرر أن يتوجه إلى القلعة سنة 494، واستقر بها، فتعاطى التدريس في هذه المدينة، فانهال عليه الطلبة وانتفعوا من علمه. ومن تلاميذه «ابن الرمامة» رئيس المفتيين بفاس، والفقيه «أبو عمران موسى الصنهاجي وأبو بكر بن المخلوف، وأخوه محمد» وغيرهم، كلهم جزائريون».

(1) قد جاء في النبوغ المغربي للأخ «عبد الله كنون» نقلاً عن البستان صـ : 301 لابن مريم أن أبا الفضل بن النحوي «انتسخ هذا الكتاب وجعله ثلاثين جزءاً . فإذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم منه جزءاً وكان يقول : وددت أني لم أنظر في عمري سوى هذا الكتاب». صـ: 80.

وكان «أبو الفضل» يحسن قرض الشعر، وقد برع في نوع منه، وقلده فيه من أتى بعهد، وهو شعر التوسلات والابتهالات. والمنفرجة خلدت ذكره. قد اعتنى بها الأدباء ، تجدها في عنوان الدراية للغبريني صـ 194 إليك مطلعها:

اشتدّي أزمة تنفرجي قد آذن ليلُك بالبَلَج

وبقي «ابن النحوي» بالقلعة أكثر من ١٣ سنة قضاها كلها في العبادة والتدريس محبوباً من الناس محترماً من لدن أمراء بني حماد إلى أن توفي فيها، رحمه الله سنة 513هـ.

ومن شعراء القيروان الذين قصدوا الناصر «ابن الكفاه» الذي قال فيه:

قالت سعاد وقد زمت ركائبها مهلاً عليك فأنت الرائح الغادي
فقلت تالله لا أنفك ذا سفرٍ تجري بي الفلك أو يحدو بي الحادي
حتى أقبل ترب العز منتصراً بالناصر بن علناس بن حمّاد

قلنا إن الهلالين غشوا ناحية القلعة. فصالح الحماديون العبيديين لتصبح دولتهم في مأمن من شر أولئك الأعراب. فخفت وطأة عيثهم وفسادهم. فنشطت الفلاحة ونفقت الأسواق التجارية. ورغم ذلك كان «الناصر» كثير الحذر، شديد التخوف، ففكر في تأسيس مدينة حصينة يجعلها قاعدة لملكه، فاختار موقعها على مقربة من الميناء الفينيقي «صلداي»، واختطها سنة 460هـ. (1067م). ثم انتقل إليها وسماها الناصرية، وأقام بها من أسباب الحضارة ما لم ير مثله شرقاً ولا غرباً. أسس المدارس والمعاهد العلمية، وأمر أن توزع المنح على العباقرة والمبرزين في كل فن. فازدحم على تلك المعاهد العلماء والحكماء والأطباء والشعراء وأهل الفنون الرياضية والهندسية. وأمّ بجاية والعواصم الأخرى الكثير من علماء الأندلس والشام ومصر والحجاز والعراق والعجم. فاستفادت الجزائر من علومهم وثقافتهم. ولقد بلغ إقبال الناس على العلم

يومئذ أنه كان يجتمع على المدرس الواحد ما ينيف على مائة طالب ولا فرق في ذلك بين المسلم وغيره. فترى المدرس يتلقى طلبته على اختلاف مللهم وأجناسهم بصدر رحب تأدية لأمانة العلم[1]. قال «شارل سينيوبوس» في كتابه «تاريخ الحضارة»: «كان أهل «بيزا» الايطاليون ينزلون مدينة بجاية في الجزائر. فتعلموا منها صنع الشمع ومنها نقلوه إلى بلادهم وإلى أوروبا. وببجاية تعلم الرياضي المهندس «ليونار فيونتشي» العلوم الرياضية وخاصة منها علم الجبر والمقابلة، وأدخلها إلى أوروبا التي كانت خالية وقتئذ من العلم والعلماء.

ويمتاز ذلك العصر بحرية الأديان واحترام العقائد بالجزائر أكثر من أي وقت مضى. كانت بالمدن الحمادية طوائف مسيحية، إما من بقايا الروم والرومان، وإما من البربر الذين فقدوا جنسيتهم ونسوا أصلهم أو من أوروبيين نزحوا إلى الجزائر أو من سبي أوروبا. فكان الحماديون يحسنون معاملتهم ويحفظون حقوقهم على أقليتهم. وكان لبابوات «روما» علاقات مع الحماديين، ولا سيما مع «الناصر بن علناس». أسس مسيحيو القلعة كنيسة بحي جراوة يطل عليها قصر المنار. وقسيسهم يومئذ «عزون». وتسميه العامة الخليفة أي خليفة المسيح. ابتنى لنفسه داراً حذاء الكنيسة وقضى نحبه بالقلعة. ولما انتقل الملك «الناصر» إلى عاصمته الجديدة، انتقل إثره الكثير من السكان من بينهم النصارى، فاهتم بأمر هؤلاء وأبى إلا أن يكون لهم قسيسهم. فاقترح عليه أرشفاك قرطاجة القسيس «سرفاند»[2]. فصادق عليه «الناصر»، ولما سافر «سرفاند» إلى «روما» أعطاه رسالة شخصية ودية مصحوبة بهدايا إلى البابا. «قريقوار السابع»[3]. واشترى جميع الأسرى الذين عثر عليهم بمملكته، وأرسلهم إلى البابا واعداً إياه بعتق كل أسير مسيحي يعثر عليه من بعد. فلما عاد

Archevêque (1)

Servand (2)

Grégoire VII (3)

«سرفاند» إلى الجزائر أرسل معه كبار رجال الكنيسة رسائل شكر وثناء «للناصر». وبعث له رئيس الكنيسة أيضاً رسالة خاصة سنة 469هـ. (1076م)[1]. وإليك ترجمة نص تلك الرسالة التي تعد أهم رسالة أرسلت من بابوات روما إلى ملوك المغرب:

من قريقوار «إيفيك» عبد عبيد الله إلى الناصر ملك موريتانية السطيفية بإفريقية

سلاماً ورضا الكنيسة

كتبت لنا سيادتكم النابلة هذه السنة تطلب منا أن نعين القسيس «سرفاند» «إيفيك» على مقتضى الشريعة النصرانية، الأمر الذي بادرنا بتنفيذه نظراً لعدل طلبكم. وقد أرسلتم إلينا (بهذه المناسبة) هدايا، وقد أفديتم المسيحيين الذين كانوا أسرى بمملكتكم تقديراً لبطرس وحباً لنا واعداً لنا بعتق كل أسير مسيحي يعثر عليه من بعد. فإن الخالق الذي لولاه لما قمنا بأي شيء قد ألهمكم هذا الحلم وقاد قلبكم للقيام بهذا العمل الكريم. إن الله العزيز الذي يريد أن ينقذ جميع الناس، وأن لا يهلك أحد، لا يرضيه شيء أكثر من محبة الإنسان لأخيه بعد الحب الذي يجب على هذا الإنسان نحو نفسه، ومن العمل بهذه الحكمة: عامل غيرك بما تريد أن تعامل به. ويجب عليكم وعلينا أن نفعل الخير أكثر من الأمم الأخرى حيث إننا نعبد إلهاً واحداً على طرق مختلفة، ونحمده ونقدسه كل يوم، فإنه خالق الأجيال ورب العالمين. فإن أعيان مدينة روما عند سماعهم منا بصنيعكم الذي ألهمكم الله إياه أعجبوا بسمو عواطفكم وشادوا بذكركم. فإن اثنين منهم، نديمينا «البريك»[2] و«سنسيوس»[3] اللذين تربيا معنا منذ طفولتهما بقصر روما، يرغبان رغبة شديدة في أن تكون بينكم وبينهما صداقة وتعاون ويسعدهما أن يجدياكم نفعاً في هذه

---

(1) أتى بها الأستاذ قولفان في كتابه: المغرب الأوسط في عهد الزيريين صـ:

Albéric (2)

Cencius (3)

البلاد. فإنهما يبعثان لكم بعض رجالهم يحدثونكم عن تقدير سادتهم لما قمتم به وبجلالتكم، وعن سرورهم بخدمتكم هنا. فنوصي فخامتكم بهم حباً وخيراً، ونسأل عطفكم عليهم ورعايتكم لهم بقدر ما يكون عطفنا لكم واعتناؤنا بما يهمكم. والله تعالى يشهد أنه هو الملهم لهذه الصداقة التي نعدكم بها، وكم نتمنى لكم من حفظ ومجد في هذه الدنيا وفي الآخرة. نسأله من صميم فؤادنا أن يستقبلكم، بعد عمر مديد، في نعيم القديس إبراهيم».

فهذه الرسالة التي تعد أهم رسالة من بابوات روما إلى ملوك المغرب تدل على العلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين وعلى تسامح ملوك بني حماد الديني: فلا شك أن هذا التسامح كان يعم اليهود أيضاً. فكانوا كلهم يعيشون مطمئنين تحت ظلال هذه الدولة الواعية.

تلت هجرة القيروانيين هجرة أخرى كانت من الأندلس على أثر قيام البربر فيها بعدة فتن قضت على الزهراء[1] والزاهرة[2]، وشتتت القرطبيين بالخصوص. فهاجر كثير منهم إلى الجزائر وبجاية بالذات. وقد خلع «يوسف بن تاشفين» ملوك الطوائف عن ممالكهم. ومن جملة هؤلاء «عز الدولة الواثق أبو محمد عبد الله بن المعتصم بن صمادح». فارتحل هذا الأمير بأهله وماله من الأندلس إلى الجزائر، فنزل على الملك «المنصور» ببجاية. فأكرمه، فقد زاره أثناء مقامه ببجاية الشاعر الأندلسي «ابن اللبانة» فقال: «ما علمت جور الدهر حتى اجتمعت ببجاية مع «عز الدولة ابن المعتصم بن صمادح». فإنني رأيت منه خير من يجتمع به كأنه لم يخلقه الله إلا للملك والرئاسة مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ وحسن استماعه وإسماعه ورقة طباعه ولطافة ذهنه»[3]. ولعل ما قاله فيه ابن اللبانة هو نفس ما دار بخلد «المنصور» الحمادي. فأقطعه مدينة «دلس» وضواحيها. فأصبح ذا سيادة وحكم فيها. فأمكنه ذلك أن ينسى ما ألم به من حزن

(1) شيدها المعتمد بن عباد.

(2) شيدها المنصور بن أبي عامر.

(3) نفح الطيب جـ 4 صـ: 34.

لفراق بلاده وعزه فيها. وكان «عز الدولة» أديباً، أثبت له التاريخ شعراً رقيقاً. فإليك مقطوعة منه تتضمن شكواه من الدهر وتصور غربته وفقده سلطانه ونفوذه:

لك الحمد بعد الملك أصبح خاملا / بأرض اغتراب لا أمر ولا أجلي
وقد أصدأتُ فيها الهوادة منصلي / كما نسيت ركض الجياد بها رجلي
ولا مسمعي يصغي لنغمة شاعر / وكفى لا تمتد يوماً إليّ بذل
طريداً شريداً لا أؤمل رجعة / إلى موطن بوعدت عنه ولا أهل
وقد كنت متبوعاً فأمسيت تابعاً / لدى معشر ليسوا بجنسي ولا شكلي
يخوضون فيها لا أرى فيه خائضاً / وقبلهم قد أقصدت مقتل النبل
وقولي مسموع وفعلي محكم / وها أنا لا قولي يجوز ولا فعلي
وقد كنت غراً بالزمان وصرفه / فقد بان قدر العز عندي والذل
عزاءكم فكم ليث يصاد بغيلة / يصبح من بعد النشاط لفي حبل

ولعله قد قال هذه الأبيات مدة مقامه ببجاية وقد استوحش من استقراره بها قبل أن يتربع على كرسي ولايته الصغيرة «دلس». وقد أصبحت هذه المدينة، بفضل عمل الأندلسيين الذين تقاطروا عليها مركزاً ثرياً. فكان فيها كما يقول الإدريسي: «الديار والقصور والمتنزهات» وازدهرت الفلاحة حتى تمكن أهلها من أن يرسلوا من غلاتها إلى غيرها من المدن. وهذا الأمير وهؤلاء الأندلسيون قد جاءوا بثقافتهم وعوائدهم، وقد اتصلوا بأهل البلد. فأثروا وتأثروا.

والهجرة الثالثة كانت من صقلية حيث تسلط عليها النورماند. فقد حينئذ المسلمون سلطانهم السياسي في تلك الربوع لكن الملك «رجار» أظهر عقلاً راجحاً، رأى أن التسامح وحده هو الذي يكفل الحكم الصالح للجميع وكانت الارستقراطية، أعيان الأئمة وعلية القوم من رجال العلم والفكر والصناعة، مؤلفة خاصة من المسلمين. فبذل لهم حماية بصفة

فعالة[1]. وقد سلك خلفاؤه خطته. وقد قال لوط: «لقد دام الرقي المادي العربي والحضارة الأدبية العربية أمداً حتى عصر «فريدريك». ولكن البابا أخذ يستثير العامة ورجال الدين وأوروبا كلها ضد هذا العاهل. فثارت ثورة التعصب الكنيسي. فأخذ رجال الكهنوت يمعنون في تتبع «الكفار»[2] والتنكيل بهم وإحراقهم. ونال المسلمين من ذلك جانباً عظيًما. فأصبح حينئذ المسلمون يغادرون جزيرة صقلية جماعات وأفراداً كلما وجدوا للخروج سبيلاً. فلم يبق منهم هنالك إلا الأقل يعيشون في ذلٍ ومسكنة[3]. وبلغ السيل الزبى عندما مات صاحب إفريقية[4]«أبو زكريا بن أبي محمد» الذي كان قد أبرم صلحاً مع ملك صقلية على أن يعيش مسلمو الجزيرة مطمئنين لا خوف عليهم ولا على أموالهم. تكالب النصارى على المسلمين وأركبوهم البحر واجتازوا بهم إلى أرض إفريقية. وقد نبغ في الجزيرة رجال كثيرون خلدوا صفحات التاريخ اسمها نذكر منهم: «المزاري وابن ظفر وابن القطاع وابن حمديس». ويهمنا من هؤلاء هذا الأخير. فإنه سكن الجزائر وحظي عند ملوكها وأمرائها».

ولد «ابن حمديس» في مدينة «سرقوسة» من صقلية سنة 446. فلم تمض على «ابن حمديس» أيام الشباب حتى استولى النورماند على صقلية. فرأى مصرع قومه ومصائبهم، وقد صور لنا ذلك في شعره. فقد نزح عنها، إذ لم يستطع البقاء تحت حكم المسيحيين. فقصد الأندلس واتصل بأمير إشبيلية «المعتمد بن عباد». فمدحه ونال جوائزه وعاش في ظلاله الوارفة إلى أن اعتقل «المعتمد» وذهبوا به إلى «أغمات» بالمغرب الأقصى. فتبعه «ابن حمديس». ثم توجه إلى المهدية، عاصمة إفريقية حينئذ، ومن ثم دخل الجزائر. اتصل «بكرامة بن المنصور» الحمادي، والي «بونة». ثم واصل طريقه إلى العاصمة فاستقبله «المنصور» بحفاوة وأغدق عليه صلاته

---

(1) توفيق المدني: المسلمون في جزيرة صقلية صـ: 191.

(2) الذين لا يتبعون المسيحية.

(3) توفيق المدني: المسلمون في جزيرة صقلية صـ: 206.

(4) سنة 647هـ. 1260م.

السنية. فمدحه بشعر جيد ووصف منشآته الفنية. اصخ إليه سمعك وهو يصف داراً بناها الملك المنصور ببجاية:

أعمر بقصر الملك ناديك الذي ... أضحى يجديك بيته معمورا
قصر لو أنك قد كحلت بنوره ... أعمى لعاد إلى المقام بصيرا
واشتق من معنى الجنان نسيمه ... فيكاد يحدث بالعظام نشورا
نسي الصبيح مع الفصيح بذكره ... وسما ففاق خورنقا وسديرا
لو أن بالإيوان قوبل حسنه ... ما كان شيئاً عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الألى ... رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا ... لملوكهم شبهاً له ونظيرا
أذكرتنا الفردوس حين أريتنا ... غرفاً رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيّدوا أعمالهم ... ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت ... حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الأفلاك إلا أنه ... حقر البدور فأطلع المنصورا
أبصرته فرأيت أبدع منظر ... ثم انثنيت بناظري محسورا
فظننت أني حالم في جنة ... لما رأيت الملك فيها كبيرا
وإذا الولائد فتحت أبوابه ... جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم ... فغرت بها أفواهها تكبيرا
فكأنها لبدت لتهصر عندها ... من لم يكن بدخولها مأمورا
تجري الخواطر مطلقات أعنة ... فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب أنه ... فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه ... مسكاً تضوع نشره وعبيرا
تستخلف الأبصار منه إذا أتى ... صبحاً على غسق الظلام منيرا[1]

ذكر «المقري» هذه القصيدة في نفحه وأورد لنا أخرى لا تقل روعة

---

(1) النفح جـ 2 صـ 37.

عن الأول يصف فيها بركة عليها أشجار من ذهب ترمي فروعها المياه وعلى حافتها أسود تقذف المياه من أفواهها. فأنصت إليها:

وضرا غم سكنت عرين رئاسة | تركت خرير الماء فيه زئــــيرا
فكأنما غشى النضار جسومها | وأذاب في أفواهها البلـــــورا
أسد كأن سكنوها متحـرك | في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنـــــما | أقعت على أدبارها لتثــــورا
وتخالها، والشمس تجلو لونها | نارا وألسنها اللواحس نــورا
فكأنما سلت سيوف جـداول | ذابت بلا نار فعدن غديـــرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوهـــا | عيناي بحر عجائب سجــورا
شجرية ذهبية نزعــــت إلى | سحر يؤثر في النهي تأثـــيرا
قد صولجت أغصانها فكأنـما | قنصت بهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبي لوقع طيرهـــــا | أن تستقل بنهضها وتطـــيرا
من كل واقعة ترى منقارهـــا | ماء كسلسال اللجين نمـــيرا
خرس تعد من الفصاح فإن شدت | جعلت تغرد بالمياه صفــــيرا
وكأنما في كل غصن فضـة | لانت فأرسل خيطها مجــرورا
وترياك في الصهريج موقع قطرها | فوق الزبرجد لؤلؤًا منثـــورا
ضحكت محاسنه إليك كأنـما | جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الأبواب تبرًا نظــروا | بالنقش فوق شكوله تنظـيرا
تبدو مسامير النضار كما علت | تلك النهود من الحسان صدورا
خلعت عليه غلائلا ورســــية | شمس ترد الطرف عنه حسـيرا
وإذا نظرت إلى غرائب سقفــه | أبصرت روضا في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي | حامت لتبني في ذراه وكـــورا
وضعت به صناعتها أقلامهـــا | فأرتك كل طريدة تصويـــرا

وكأنما للشمس فيه بقـــــية   مشقوا بها التزويق والتشجـيرا

وكأنما باللازورد مخــــــــرم   بالخط في ورق السماء سطورا

وكأنما وشا عليه مــــــلاءة   تركوا مكان وشاحها مقصورا

قال "المقري": ثم مدح المنصور بعد ذلك وختم القصيدة بقوله:

يا ملك الأرض الذي أضحى له   ملك السماء على العداة نصيرا

كم من قصور للملوك تقدمـت   واستجوبت بقصورك التأخـير

فعمرتها وملكت كل رئاســـة   منها ودمرت العدا تدمــــيرا[1]

يظهر أن إبن حمديس في كلا القصيدتين وصّافًا حاذقا بل فنانا ماهرا. نلمس في شعره عذوبة اللفظ وروعة الصورة وحلاوة الموسيقى، تناول جميع أغراض الشعر وأبدع، ولكن المعاني التي مرت بخاطره كثيرة، وأكثر من ذكرها في أدبه حنينه إلى وطنه وذكرياته الأولى في الجزيرة."كان أينما حل وحيثما ارتحل يترنم بذكر صقلية حار الزفرات"[2]

اسمع حنينه إلى بلاده:

ذكرت صقلية والأســـى   يهيج للنفس تذكـــــارها

ومنزلة للتصابي خلــــت   وكأن بنو الظرف عمارهـــا

فإن كنت أخرجت من جنة   فإني أحدث أخبارهــــــا

ولولا ملوحة ماء البكـــاء   حسبت دموعي أنهارهـــا

فقد لاق ما يسر ويرضي من طرف الملوك والأمراء في الأندلس والمغرب ومع ذلك لم يطمئن إلى هذه الحياة في ديار الغربة. فتراه يبكي بكاء مرًا جنته المفقودة. وكيف لا وقد صحب في غياضها الأسود وزار بها الظباء في الكنائس ولبس النعيم.

---

(1) النفح ج2 ص:37-39

(2) المسلمون في جزيرة صقلية لتوفيق المدني.

فبت من الليل في ظلمـــــة ... فيا غرة الصبح هاتي الضيـــاء
ويا ريح أما مريت الحـــيا ... ورويت منه الربوع الظمـــاء
فسوقي إلى جمام الغيـــوم ... لأملأها لك بالدمع مـــاء
ويسقي بكائي ربع الصـــبا ... فمازال في المحل يسقي البكـــاء
ولا تعطشي طللا بالحمـــى ... تداني على مزنة أو تنـــاء
فلا تعجبني فمغاني الـــهوى ... يطيب طيب ثراها الـــهواء
ولي عندها مهجة صبـــة ... تزودت في الجسم منها دمـــاء
ديار تمشت إليها الخطـــوب ... كما تتمشى الذئاب الضـــراء
صحبت بها في الغياض الأسود ... وزرت بها في الكناس الظبـــاء
وراءك يا بحر، لي جنـــة ... لبست النعيم بها لا الشقـــاء
إذا أنا طالعت منها صباحـــا ... تعرضت من دونها لي مســاء
فلو أنني كنت أعطى المنـــى ... إذا منع البحر منها اللقـــاء
ركبت الهلال به زورقـــا ... إلى أن أعانق فيها ذكـــاء

يتمنى أن يعود إلى جنته المفقودة، ولكن، هيهات هيهات أن يرجع إليها، فقد أغتصبها الأعداء. فيقول الشاعر.

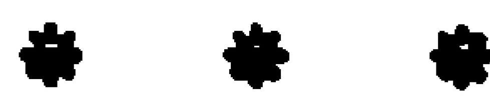
ولو أن أرضي حرة لأتيتهـــا ... بعزم يعد السير ضربـــة لازب
لكن أرضي كيف لي بفكاكها ... من الأسر في أيدي العلوج الغواصب
أمثلها في خاطري كل ساعـــة ... وأمري لها قطر الدموع السواكب
أحن حنين النيب للوطن الـذي ... مغاني غوانيه إليه جـــواذب
ومن يك أبقى قلمه رسم منزل ... تمنى له بالجسم أوبة آئـــب

وإذا أردت أن تطلع على شعر ابن حمديس، فعليك بديوانه. فقد بصره في آخر أيامه ومات ببجاية على قول "ابن خلكان" سنة 527هـ.1133م.

وغادر صقلية "أبو عبد الله محمد بن أبي فرج بن فرج المازري

المعروف بالذكي كما أشرنا إلى ذلك من قبل. ولد بصقلية سنة 427هـ. كان من كبار العلماء مبرزاً في علوم اللغة والنحو وسائر فنون الأدب. ورد على قلعة بني حماد، ولكنه لم يبق فيها طويلاً. فإنه كان يحب الأسفار، فرحل إلى المشرق، وساح جهات العراق وفارس حتى وصل إلى الهند. وقع له مخاصمات مع جماعة من الأئمة. ومات متسوحاً بأصبحان سنة 515هـ.

و«أبو زيد عبد الرحمان بن علي بن محمد الترشي» المعروف بابن الحجري، هو الآخر غادر صقلية. كان فقيهاً نحوياً لغوياً «أحد الأفاضل» المنتصبين للأستاذية والإقراء. دخل تونس واتصل بمشائخ هناك «كأبي زيد عبد الرحمان إسماعيل بن الحداد» التونسي. ومن ثم دخل إلى بجاية وأخذ عنه العلم الكثير من الفضلاء مثل «أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي» ، وقد أجاز له.



يحدثنا المؤرخون أن الحياة الاقتصادية كانت حينئذ حسنة كانت الفلاحة ناشطة والصناعة مزدهرة. كان يصنع بالقلعة اللبابيد الجيدة والأكسية القلعية الصفيقة النسج المطرزة بالذهب ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الابريسم[1]. وكان ببجاية والقلعة معامل الخزف والزجاج ، وببجاية وبونة معامل لإنشاء المراكب والسفن لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير، وبهما من الصناعات كل غريبة ولطيفة[2]. وفي قسنطينة ووهران وتلمسان من الحركة الاقتصادية ما يشابه الحياة في العاصمة. ولم يفتر استخراج المرجان من مرسي الخرز[3] وبونة. فقال البكري: «بشرقي بونة مدينة مرسي الخرز فيه المرجان» ـ. «ومرجان

---

(1) ياقوت: معجم البلدان.
(2) الإدريسي.
(3) القالة.

الخرز، يقول صاحب الاستبصار، أنفس مرجان الدنيا وأنفق شيء في الهند والصين». فنفقت التجارة بازدهار الفلاحة والصناعة المختلفة. فكان دخل مرسى الخرز من تجارة بيع المرجان فقط عشرة آلاف دينار سنوياً، وكان مستخلص بونة عشرين ألف دينار. ولا تسل عن عدد المال الذي كان يرد على الجزائر. فكانت القوافل غادية رائحة، وأهل بجاية يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة[1]. والقلعة هي الأخرى عرفت من الازدهار التجاري ما عرفته بعدها بجاية. فقال البكري: «هي اليوم مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب». قال جورج مارصي: «وحوالي سنة 457هـ. (1065م) صارت القلعة مدينة تجارية عظيمة وارفة الخيرات، وقصدها أرباب الصنائع من المشرق وإفريقية». ونلاحظ هنا ظاهرة أن الحركة التجارية مع دول السود ضعفت شيئاً ما. فإن الدولة المرابطية استولت في «غانا» على منابع الذهب، ثم سيطرت على طريقه، فحرمت المدن الحمادية من مورد من أهم مواردها وحياتها الاقتصادية. فولى أرباب التجارة الجزائريون وجوههم شطر الأسواق الأوروبية. فتضاعفت حركة الموانىء ونفقت التجارة. والتجارة تدر الأرباح على أصحابها وعلى الخزينة أموالاً طائلة. فالدولة الحمادية حينئذ كانت تتمتع باقتصاد زاهر من شأنه أن يساعدها على إنشاء حضارة من أرقى الحضارات.

اعتنى الحماديون بالفن المعماري. أبوا إلا أن يكون لهم من المباني ما كان لبني عمهم بإفريقية وللفاطميين بمصر، والمباني تدل على ما وصلت إليه الدولة من عزة وسلطان. فأحضروا المهندسين من إفريقية وحتى من المشرق لتشييد المشاريع العمومية والقصور لهم. فأسسوا الأسوار والقناطر والمدارس والمساجد. ولا زالت آثار المسجد الجامع .ماثلة أمام أعيننا. يظهر هذا المسجد كثير الشبه في تخطيطه بمسجد القيروان، إلا أنه يختلف عنه فيما

---

(1) الإدريسي.

يخص الأعمدة والمقصورة. ومقصورة مسجد القيروان حديثة العهد. فهي من إحداث الفاطميين يصلي داخلها الأمراء احتياطاً لما قد يطرأ عليهم من الاعتداءات. وأخذ عنهم الحماديون هذه العادة. والمسجد مستطيل طوله 64 متراً وعرضه 56 متراً وبه 84 عموداً لم يبق منها إلا قواعدها. وله ثلاثة عشر ممراً طولاً وثمانية عرضاً، والمحراب تجويف في الجدار، ولـه فناء مكشوف يتوسطه صهريج. وكان يحيط به سور فيه أحد عشر باباً. أما المئذنة (شكل 36) ، فكانت آية من آيات الجمال. كانت تقوم وسط السور الغربي. كانت ذاهبة في السماء ولكن طولها اليوم لا يزيد على خمسة وعشرين متراً. فهي على شكل برج مربع كمثيلاتهـا بالمغـرب الأقصى والأندلس. نرى في واجهتها الجنوبية باباً ذا قوس على هيئة حدوة الحصان مرفوعة فوق عمودين، ويعلو الباب خمسة نوافـذ: السفلى والعليـا منها مسدودتين وعلى يمين ويسار النوافذ فصوص مزخرفـة. فمن العبث أن نبحث عن مئذنة مزخرفة على هذا الشكل في إفريقية لذلك العهد. فإنها تعد بداية لفن مآذن القرن الثاني عشر بإشبيلية (جيرالدا) (شكل 37) والرباط (صومعة حسان) (شكل 38) ومراكش (الكتبية) (شكل 39). وقد بحث الأثريون عبثاً عن أصل هذا الشكل الجميل من الزخرفة التي تتحلى به مئذنة القلعة. ومن بين ما عثر عليه من الخرابات تيجان الأعمدة المزينة بالخط العربي الجميل والوريقات، وقطع من الأسطوانات ولوحات ذات الخط الكوفي وآثار الأجر المطلي عليه خط لامع جميل. وقد شيد المنصور مسجداً ببجاية إذ لا نتصور أن تكون قاعدة الملك بدون مسجد جامع ولكن لم نعثر على أثره ولا على موقعه.

وأراد بنو حماد أن يباهوا غيرهم فبنوا القصور.

إن القصر المسمى بدار البحر هو أهم ما اكتشفت من الآثارات. قام بذلك الأستاذ «بـايـلي»[1] فإنه يقع شمال المسجد. فقد وصفه صاحب الاستبصار. أنه يمتاز ببركة في وسطه طولها سبعة وستون متراً وعرضها

(1) Beylié

الشمال

القلعة

السور
باب القوس
دار البحر
المسجد
باب الجنان
كنيسة
حي جراوة
باب جراوة
الفخارون
المقبرة القديمة
المقبرة القديمة

الناصرية

برج قرابة
برج أبي ليلى
الرصافي
السور
قصر الكوكب
باب البنود
قصر اللؤلؤة
قصر
ميناء النفط
برج البحر
باب البحر
القصبة
الميناء التجاري

سبعة وأربعون متراً وعمقها متر وستون سنتمتراً. فإنها تذكر الزائر ببركة الحمراء (شكل 40) التي هي أضيق منها بكثير. وتحيط بالبركة القاعات والرواقات المعمدة المشتملة على بدائع الزخرف الفني كالرخـام المنقوش والجبص المزين بالأشكال الهندسية. وهذا القصر يعد نموذجاً لما بني في صقلية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وقد يكون قصر السلام آية مثله. وبأعلى الجبل المطل على وادي فرج شيدوا قصراً يعلوه منار (شكل 41)، فقد بناه «بونياش» المسيحي. في أعلاه مرايا ترسل بواسطتها العلائم بالنهار، وتوقد النيران ليلاً لإرسال إشارات الحراسة منه إلى منائر أخرى على الجبال المقابلة.

من بجاية التي كانت أجمل الحواضر الصنهاجية لم يبق شيء من شأنه أن يرضي الأثريين. فالقصور التي ذكرها «ابن خلدون» مسحتها أيدي الزمان، ويصعب العثور على مواقعها، ويحتمل أن قصر اللؤلؤة كان مشيداً في أعلى كدية البريجة العليا. وصفه صاحب الاستبصار فقال: «وفي بجاية موضع يسمى اللؤلؤة، وأنف جبل داخل في البحر متصل بالمدينة، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الزائرون أحسن منها بناء ولا أنزه موضعاً. فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد، ومجالسها مبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها، وقد نقشت أحسن نقش، وأنزلت بالذهب، وصورت فيها الصور الحسنة، فجاءت من أحسن القصور.» وقال «ابن خلدون»: «وبني ببجاية قصر اللؤلؤة، وكان من أعجب قصور الدنيا». وقال «أبوراس»: «وكان بناؤه حوالى سنة 470هـ.» أما القصران الآخران، قصر الكوكب وقصر أميمون، فقد شيدا في الجهة العليا من المدينـة يرى من أعـلاها البحـر، ولا نعرف إلا النـادر عن هندستها. وصف «ابن حمديس» آثار الصنهاجيين ببونة وبجاية[1] وبكى «أبو عبد الله محمـد بن حماد» قصـور أسلافـه الدارسـة وندب معالمها ورسومها[2] ويظهر من شعر كلا الشاعرين أن تلك القصور كانت آيات من

(1) انظر إلى الحديث عن ابن حمديس صـ: 144.
(2) انظر إلى الحديث عن محمد بن حماد في تاريخ الأدب الجزائري صـ: 75.

آيات الفن المعماري. فإن آثار «البلطينة ببالرم» تؤيد ما جاء في شعر «ابن حمديس». فإن سقف البلطينة الذي شيد سنة 132 ام كان مزخرفاً. وفي ذلك العهد كان «النورماند» قد استولوا على صقلية وآثروا الفن الإسلامي في بناياتهم وبالأخص الفن الصنهاجي. فكانوا معرمين بالحضارة الحمادية. فلم يدخلوا إلى بلادهم معالم الحضارة النصرانية، لم يبنوا على الطراز الأوروبي، فوضعوا قصورهم على شكل قصور إفريقية والقلعة وبجاية على الخصوص. فمن الجزائر كان المهندسون يذهبون إلى صقلية ويبنون لأمرائها قصوراً شبيهة بما بنوه للصنهاجيين. فقصر العزيز والقبة وسقف كنيسة البلطينة وهياكل أخرى عليها الطابع الجزائري. نجد فيها القاعات ذات الفصوص والردهات التي تذكر بإيوان كسرى. وقاعات الشرف مثل قاعات قصر «زيري» بأشير. ونجد أيضاً القباب المفرنصة. فهو الفن الحمادي بعينه. فإن السقوف والآثارات الأخرى «ببالرم» مزخرفة بصور تمثل الصيد والحيوانات التي ذكرها «ابن حمديس» في شعره واصفاً قصور بني حماد. أليست سقوف كنيسة بلاطينة صورة ناطقة لسقوف قصر المنصور ببجاية؟ فلا شك في ذلك، إلا أننا إذا استثنينا هذه المعلومات لا نعرف شيئاً عن رسوم هذه القصور ولا عن هيئتها. فإن الأسد الذي ذكره «ابن حمديس» عثر عليه «مرصي». فلا شك أن حيوانات أخرى كانت مصورة في سقوف القصور الحمادية.

إن قصور الصنهاجيين تتميز بساحات تحيط بها الرواقات والقاعات، وذلك ميزة قصور أهل الشرق. وهذا الشكل كان معروفاً بالمغرب وقف على أثره الأثريون في تيهرت وسدراته. فالسور الذي يحيط بالقصور متين ومدعم في زواياه بأعمدة مربعة أو اسطوانات على غرار الآثار العباسية والأموية، نجدها في قصر «أخيضر»[1] المشيد سنة 764م بالعراق وبالأخص بسورية بجبل «سيس» بقصر الخير الغربي وفي قصر «المشتى» الذي يعود بناؤه إلى «الوالد الثاني» (724-744م)، وقصر «طوبة» المستطيل الذي يذكرنا

---

(1) أقيم على بعد نحو 40 كيلومتراً غرب الجنوب الغربي لكربلاء.

بقصر «زيري» بأشير. فإن مدخل قصر أشير الملتوي يشبه تماماً قصر «القائم» بالمهدية. ونجد ذلك بدار البحر وفي الجهة العليا لقصر السلام. أما القاعات ذات الردهات فهي اقتباس من الإيوان الفارسي، وكانت توجد بسدراتة في القرن العاشر الميلادي، مما يدل على أن المهندسين كانوا يتأثرون منذ القرن العاشر وربما قبل ذلك العهد بفن الفسطاط الذي ينتمي إلى المدرسة العراقية. ومعلوم أن الطولونيين أمراء مصر، قد أدخلوا في النصف الثاني من القرن العاشر إلى مصر الشكل البغدادي وشكل «سامراء». فإن قاعة الاستقبال لقصر «زيري»، مماثلة لمثيلتها بالقصر الأموي بالمشتى. لوحة جميلة لباب منقوشة عليها خطوط كوفية عثر عليها بالقلعة حديثاً. فإنها تشبه اللوحة التي اكتشفها الأستاذ «بايلي». فكلاهما مزخرفة بخط جميل فاطمي. وعثر «بأشير» على خطوط على قبر مماثلة للخط الطولوني المصري والخط السدراتي. وعلى قبر آخر، يرجع إلى سنة 1022/413، خط كوفي مماثل لخط مقصورة جامع القيروان يعود إلى منتصف القرن الحادي عشر. وهناك كتابات على قبور ببجاية تمكننا من تتبع تقدم الخط الكوفي (شكل 42)، فلم تثبت قدمه قبل هذا العهد. ونرى فراغ ما بين الحروف تملأه نقوش زهرية ما يزيد ذلك الخط جمالاً ورونقاً. أدوات من الجبص عثر عليها «بالقلعة» و«بأشير» من الأهمية بمكان للبحث في طرق الزخرفة على العهد الصنهاجي: قطع تمثل وردة وقطع إفريزية وقطع صدفية وقطع مقرنصة. هذه القطع كلها تدل على وجود هذه الأنواع من الزخرفة التي ستصبح كلاسيكية في صقلية والأندلس بعد ذلك العصر. وقد اكتشف الأستاذ «بايلي» حجارة تمثل شبكة من الزخارف (خلية النحل) فما هي إلا المقرنص في بدايته. وسنرى أن هذا النوع من الزخرف سيزدهر في تلمسان وفاس وصقلية. ولم يعرفُ استعماله من قبل في المشرق. وما كان يعرف من هذا النوع فهو شيء آخر يخالف تماماً مقرنص القلعة. فإذاً، المقرنص ظهر لأول مرة بالقلعة. ومقرنص تلمسان وصقلية وغيرهما يشابه مقرنص القلعة. واستخدم صناع القلعة العناصر النباتية، إلا أنها استخدمت أيضاً في الأندلس. لم تكن العلاقات دائماً معتكرة بين

الصنهاجيين والمرابطين، فهم ينتمون إلى أصل واحد، وكثيراً ما كانت الاتصالات بين الدولتين ودية ومتعاونة، فلا يستغرب إذا قلنا إن الأساليب الفنية المرابطية غزت الفن الصنهاجي، وبكل من تلمسان وندرومة مسجد عليه مسحة أندلسية مغربية يعود تشييده إلى ذلك العهد. ويستنتج من هذا أن هناك تيارين: تياراً شرقياً مغربياً تقليدياً ولكن أخذ يتقلص شيئاً فشيئاً، وتياراً مغربياً شرقياً جديداً ومجدداً. فإذاً، قبل استيلاء الموحدين على بجاية دخل هذا التيار الجديد إلى القلعة وبجاية ولكن لم يقو فيتغلب على الفن القديم.

ومما يجدر بالتحدث عنه أيضاً الخزف. فإن الشقف التي عثر عليها في القلعة وفي بجاية وفي أشير كثيرة وتدل على عدد الصناع العديد في تلك المدن في وقت عزها. الأواني المطلية ذات البريق المعدني مختلفة باختلاف المصانع التي أخرجتها واختلاف الأزمنة. والقراميد الحمادية، لا تختلف عن القراميد التي تصنع في هذا العصر بجبل «رحمة» أو بضفاف وادي «فرج» حيث كانت تقع معامل الخزف المطلي. وفي أشير والقلعة وبجاية يوجد الخزف العادي والخزف المطلي والخزفَ المزخرف بالرسوم (شكل 43, 44, 45)، والخزف المغروز (شكل 46) . وفي القلعة وببجاية كان يوجد الخزف ذو البريق المعدني (شكل 47). فإن الأواني من هذا النوع تستخدم لجمالها عوض الأواني الفضية والذهبية. وهذا الخزف يشابه ما يوجد في المغرب الأقصى والأندلس على عهد الموحدين. كان يصنع بالجزائر وبيد جزائرية. أصله من الصلصال المحروق ثم أضيفت إليه بعض المواد التي تكسبه بريقاً معدنياً يجعله صالحاً لأن يكون بديلاً لأواني الذهب والفضة. وربما صناع الجزائر اقتبسوا صنعه من المشارقة لأنه أنتج في العصر العباسي وانتشر في العراق ومصر. وهناك من يظن أن الأواني التي عثر على شقف منها أرسلت هدية إلى أمراء القلعة. فمحال أن يكون ذلك لأن المسافة طويلة ويصعب أن يؤتى بها من المشرق إلى المغرب. فلا شك أنها صنعت في البلاد وصنعها أهل البلاد، وتعلموا هذه الصنعة بالاحتكاك بالمشارقة، تحليها خطوط كوفية رقيقة وعناصر أخرى نباتية أو هندسية. كل هذه

الآثارات الخزفية شبيهة بمعاصرتها الفاطمية. فقال «مرصي»: «يظهر أن صناعة الفخار يومئذ بلغ مبلغاً عظيماً، ويظهر عليها تأثير الفرس ومصر فناً وعملاً». وكانت هذه الصنعة معروفة بالأندلس ومتمثلة في قصر الزهراء، وجميع الشقف التي عثر عليها هناك تشابه مثيلاتها بالقلعة وبجاية. وعثر في القلعة وبجاية كذلك على قطع زجاجية وأشياء أخرى حديدية.

إن التيارات الفنية كانت تذهب من الشرق إلى الأندلس عن طريق مصر وإفريقية والمغرب الأوسط. والتأثر كان يعم البناء والخزف والزجاج والبرونز والجبص.

إن كل ما عثر عليه من بقايا الفن يدل على أن صناع المغرب الأوسط كانوا حذاقاً ماهرين. فإن قصر أشير كان آية يشرفهم، والمنار ودار البحر وصومعة المسجد تدهشك بروعة تناسقها، ويروعك دقة الصنعة واتقان العمل في جميع تلك الأواني المطلية البراقة. ولا ننس من أولئك الصناع من قد أقبلوا من القيروان حيث كانت تلك المدينة مضايقة من طرف الأعراب أو حيث هجروها نهائياً عندما استولى عليها بنو هلال. فإن بجاية كانت زاهرة وقت الحماديين ومن سكانها عدد كبير من الأندلسيين الذين نقلوا إليها الحضارة الإسلامية المغربية قبل أن يستولي عليها الموحدون. ولكن هذه الحضارة الإسلامية المغربية نفسها متأثرة بالحضارة الشرقية. فإذاً، حضارة الحماديين شرقية.

أينما وليت نظرك في قصور القلعة وبجاية وأثاثها وجدت ما ينطق بأثر الفن الشرقي. فقد شاع وأخذ بتلابيبه أولو الأمر والأعيان، وحتى الأمكنة التي وطأتها صنهاجة فشا فيها ذلك الأثر. فانظروا إلى «بلقين بن زيري» عندما دخل إلى فاس فإن أول ما قام به هو إتحاف مسجد عدوة الأندلسي بمنبر على طراز شرقي. فقال «مرصي»: «إن الحضارة الحمادية تظهر تحت تأثير المشرق وآثارها لا نظير لها ببقية وطن المغرب، وهي شاهد قوي على رقي الحضارة الإسلامية المغروسة بالجزائر». ولا زالت معالم الحضارة الصنهاجية بادية في غرناطة، فإن أعمام «باديس» وأعمام أبيه

ثاروا عليه. فوقعت حرب بين الفريقين قتل فيها عم أبيه «ماكسن بن زيري». فرهب الباقون منهم صولة «باديس» وخافوا عاديته على أنفسهم على صغر سنه. فدخل جماعة منهم الأندلس مع أميرهم «زاوي بن زيري»[1]. فأمكنهم أن يقبضوا على زمام الأمر بغرناطة وأحوازها، وكان لهم شأن عظيم في الحضارة. فلا زالت آثارهم هناك: سور وباب وجزء من الحمراء رغم ما قامت به الدولة النصرية من المباني. فإن هذه البقايا من حضارتهم تذكرنا بالمعمار الجزائري الحمادي. والأساليب الصنهاجية لا زالت ماثلة هنا وهناك في الأندلس وبالأخص ببرج «منصبا تودو» وبنواحي «مرسية».

فإن الحماديين عاشوا حياة باذخة في قصورهم محفوفين بالعلماء والأدباء والفنانين من موسيقيين ورقاصين. راجع «ابن تومرت» المصمودي من الشرق ووقف في طريقه ببجاية.. فرأى مطربين فهجم عليهم وأخذ منهم بعض آلاتهم وكسرها يزعم أن ذلك يلهيهم عن دينهم. وآلاتهم حينئذ الناي والعود والقانون والجنك والغائطة أو الزرنة والزمارة والطر والطبل والدف. وكانت هذه الموسيقى متأثرة بالموسيقى الإفريقية التي كانت هي الأخرى متأثرة بالموسيقى الشرقية، وكانت متأثرة أيضاً بالموسيقى الأندلسية. وكيف لا وببجاية جالية أندلسية مهمة. فكان الملوك والأمراء والأعيان ينشطون هذا الفن، يتخذون بمجالسهم المغنين والمغنيات. وإلى جانب هذه الأغاني الفنية التي لا زلنا نسمع بعضها في يومنا هذا، عاشت أغاني العرب في باديتهم والبربر في جبالهم. أما الراقصات فكن يقبضن المناديل ويحركنها. وقد تسربت هذه العادة من الفرس إلى الجزائر، ولا زالت متبعة إلى اليوم بالعاصمة وعنابة ومدن أخرى. والخزف يرينا من جهة أخرى أنواعاً من الموسيقيين والمشعوذين والصيادين.

والحاصل أن الجزائر لم تعرف نهضة عمرانية كالتي عرفتها في فترة الصنهاجيين. كان هؤلاء يعتنون بصحة الرعية. فقاموا بتشييد

---

(1) الإحاطة جـ I صـ: 439.

البيمارستانات لعلاج المرضى، وعينوا لها أطباء يقومون بمهماتهم أحسن قيام. ولكن هذه البيمارستانات قد عفت يد الدهر عليها ولم يبق منها ما يدلنا على رسومها ولا على مواقها. ولم نتوصل بأسماء أطبائها. إلا أن هناك أسماء أطباء جزائريين عاشوا في تلك الفترة وردت هنا وهناك في كتب المترجمين. فمنهم «ابن النباش أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خالد البجائي»، كان على حسب «ابن أبي أصيبعة»[1] ذا عناية بصناعة الطب مواظباً على علاج المرضى، وذا معرفة جيدة. بالعلوم الطبيعية، وكان له، كجميع الأطباء في ذلك العصر، مشاركة في العلوم الفلسفية. ولعله كان أحد أطباء البيمارستانات ببجاية. فقد رحل إلى «مرسية» وبقي بها مدة طويلة. قد عاصره طبيب آخر هو «عمر بن البلوخ»، ولد بـ«القلعة» والتحق ببجاية. فكان يعرف الأدوية ويطبب بها. غادر الجزائر وقصد الشرق وجال في ربوعه، واختار دمشق لسكناه. بقي بها يعالج الناس ونفعهم كثيراً، ومات بتلك المدينة عام 575هـ، وخلف كتباً في الطب منها حواش على كتاب القانون لابن سينا، وشرح الفضول «لأبي قراط» في أرجوزة، وكتاب ذخيرة الألباب في الباءة. ويحدثنا «العماد الأصفهاني» عن طبيب آخر كان ماهراً وكاتباً شاعراً في بلاد «بني حماد» هو «ابن أبي المليح» . كان حاذقاً في صناعا الطب وأديباً يكتب ويقرض الشعر. وقد مدح «عبد الله بن العزيز» الحمادي بقصيدة منها هذا البيت:

وجالت به جرد المذاكي كأنها عذارى، ولكن نطقهن تحمحم

(1) عيون الأنباء.

الفصل الحادي عشر

الثقافة على عهد الموحدين

ا ــ ابن تومرت وابن رشد
ب ــ الأعلام الجزائريون في الثقافة الاسلامية بالجزائر .
ج ــ الحالة الاقتصادية في الجزائر المومنية .
د ــ أبو محمد عبد الحق الاشبيلي يستقر ببجاية
هـ ــ أبو الربيع سليمان الكومي والي بجاية من قبل المنصور
و ــ أبوحفص عمر الأغمتي بتلمسان .

إن الدعوة الإسماعلية قد قضي عليها في البلاد ، وأصبح اتجاه فلسفة الإسلام سنيًا طيلة عهد بني حماد ، وذلك يرجع من ناحية إلى أن البربر لم يتعمقوا في فهم مذهب الإسماعلية وتعاليمهم التي تحتاج إلى إعمال الفكر ، وإنما اعتنقوه لأول وهلة مدفوعين بعدائهم للأغالبة السنيين . فلم يكن ثم ما يساعد على ردوخه في نفوسهم مما أدى بهذا المذهب إلى الزوال من بلاد المغرب حيث لم يبق له الآن بقية أو أثر (1) ، ومن ناحية أخرى إلى كراهة الأمراء للعقائد الشيعية ولميلهم إلى السنيين . ولم يظهر من هؤلاء جمود ، فقد كلفوا بالرحلة والاتصالات بمشايخ العالم الإسلامي . فنمت ثقافتهم وتفتحت عقولهم بهذا الاحتكاك ، فاندفعوا إلى الاجتهاد وإلى مزيد الاهتمام بعلوم الحديث والقرآن الكريم ، وأمكنهم بذلك أيضا أن يفهموا آراء الغزالي ويتبنوها ولم يبقوا ساكتين عندما أخذ المتزمتون من فقهاء الأندلس والمغرب الأقصى يطعنون في «الغزالي» وينادون بإحراق كتاب «الإحياء» ، بل شمروا وعارضوهم إلا أنهم لم يقدروا على صدّهم عن عزمهم . فالسلطان «على بن يوسف» تزعّم الحركة وأمر بالقضاء على الكتاب . ويقف على رأس هؤلاء المعارضين المتفتحين الأحرار «أبو الفضل بن النحوي» الذي أشرنا آنفا إلى ترجمة حياته .

ويحلو لنا أن نذكر، لكم أسماء بعض الفضلاء الذين عاصروا «ابن النحوي» وجالوا مثله مفيدين مستفيدين حيثما طاب لهم المقام . فهذا «أبو حامد بن عبد الله محمد الأشيري» سافر إلى المشرق . يحدثنا عنه «ياقوت» فيقول : «إمام أهل الحديث والفقه والأدب بحلب خاصة وبالشام عامة . يتسابق الناس إلى الأخذ

(1) حسن إبراهيم حسن : تأريخ الدولة الفاطمية ، ص : 49 .

عنه ، ويتفاخر الوزراء والملوك بمجالسته والاسترشاد بآرائه الصائبة» استقدمه أبو المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة وزير المقتفي إلى «بغداد» .

وذاك «ابن الرمانة» نزيل الأندلس والمغرب الأقصى . فتولى خطة القضاء ، وكان يميل إلى مذهب الشافعية وانتصب للإقراء بالقرويين . ومن تلامذه «أبو حفص بن عمر الأغمتي» .

وذلك «أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني» . فقد نزل بالأندلس . من تأليفه تفسير القرآن ، يقع في سبعين جزءا . وصف البرادي جزءا منه فقال «رأيت منها في بلاد ريغ سفرا لم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدر في لغة أو إعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو جميع العلوم فيه» يقال : أنه يوجد من هذا التفسير اليوم جزء بإحدى خزائن روما . عاد بعد ذلك إلى بلده . ثم رحل إلى المشرق ، فزار عواصمه العلمية وانهال من حياض العلوم الإسلامية . ولم يلبث أن رجع إلى بلده نهائيا ينشر العلم ويؤلف .

واصلت فلسفة الإسلام تقدمها في الجزائر مع دخول تعاليم الإمام «المهدي بن تومرت» حين استولى الموحدون على البلاد . فكانت دعوته إصلاحية تقدمية في الميدان الثقافي الديني . فكان على مذهب «أبي الحسن الأشعري» في أكثر المسائل إلا في إثبات الصفات . فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها . وكان يبطن شيئا من التشيع غير أنه وافق لم يظهر منه للعامة شيء . فالإسلام الصحيح في نظره ما هو إلا التوحيد القائم على النظر العقلي . فأثرت عقائده في بعض فقهاء المغرب الأوسط . فقد وفد فقيه جزائري على أمير المؤمنين «أبي يعقوب المنصور» وهو بتنملل ، وقام على قبر «ابن تومرت» ، وأنشد قصيدة ينوه فيها بآرائه وفضائله منها هذا البيت .

ومحيـي علـوم الـدين بعد مماتها ومظهـر أسـرار الكتـاب المسود

توفي «ابن تومرت» وبويع «عبد المؤمن» بالخلافة في منتصف رمضان 534 هـ (آب 1130 م) . فاستولى على المغرب الأقصى ، ثم فتح الجزائر وتونس وليبيـا . فارق الحياة وترك لإبنه «يوسف» ملكا واسع الأطراف يمتدّ من المحيط إلى «برقة» ، ومن «مراكش» إلى «قرطبة» . وكان «يوسف» مثقفا . كتب عنه

«أبو محمد عياش» كاتب أبيه «وأبو القاسم» المعروف بابن محشوة من أهل مدينة بجاية . وبقي «يوسف» حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة إلى أن جلس على العرش المؤمني بعده ولده «أبو يوسف يعقوب» . كان هذا ذا ثقافة واسعة . من كتابه «ابن محشوة» كاتب أبيه . وقد جمع هذا إلى براعة الكتابة سعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس . ومن قضاة «أبي يوسف» «أبو عبد الله بن مروان» من أهل مدينة «وهران» .

كان وقتئذ «ابن رشد» زعيم فلاسفة الأندلس وأستاذ حكماء زمانه . فقد اتصل بالموحدين . من تلاميذه «أبو عبد الله محمد بن سحنون» الطبيب الكومي الندرومي من مدينة ندرومة . ولد هذا عام 580 هـ .

كان طبيب الناصر والمستنصر ، وهو الذي اختصر المستصفى للغزالي . وانتقل آخر حياته لخدمة بني هود .

وقد اتصل «بابن رشد» أيضا أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الفهري «الشيخ المتكلم» سكن أسلافه «بجاية» ، فنشأ وقرأ ونبغ فيها وتولى قضاءها مرتين ، ثم صرف من القضاء للمرة الثانية سنة 608 هـ / 1311 م . فغادر حينئذ بلده موليا وجهه شطر المشرق . فدخل مصر واتصل بعلمائها ومحدثيها . ثم شخص إلى الأندلس مرارا وتولى قضاء «مرسية» واستخلف على قضاء «مراكش» . وكان فريد عصره في مختلف العلوم ولا سيا الفلسفة ، إلا أنه أوذي في سبيلها من طرف الخليفة «يعقوب المنصور» . فكان ممن اضطهدوا في جماعة «ابن رشد» (1) وظهر «محمد بن إبراهيم» جلدا صلبا قوي الجأش بين زملائه على ما نكب به في سبيل حريته الفكرية . إلا أن «المنصور» حينما أخذ يرغب في الاشتغال بالحكمة والوقوف على مقالات الفلاسفة عاد إلى نفسه ورضي عن تلك الجماعة المضطهدة ، واستدعى «ابن رشد» ورد له سابق مقامه وحظوته . ولكن المنية عاقته ، فتوفي «بمراكش» سنة 594 هـ ، وقد ناهز الثمانين . فتمكن «محمد بن إبراهيم» من أن يستخلف على قضاء «مراكش» وأن يحضر مجلس أمير المؤمنين . وكان إذا حضر ووقعت المذاكرة بين يدي الخليفة سامحه الحاضرون في المذاكرة .

(١)

أما «ابن إبراهيم» ، فكان لا يسامحه في شيء في حقه . وكيف لا وهو عمدة أهل عصره علما وحكمة وفلسفة .

ولم يشتهر «ابن إبراهيم» وحده في الجزائر في الأصول . فقد اشتهر أيضا فيها وفي الحديث وفي التفسير «محمد بن يخلف بن يوسف بن حسون» و «موسى بن الحاج بن أبي بكر الأشيري «وأبو الوليد يزيد بن أبي الحسن بن عبد الرحمن» «وأبو عبد الله محمد بن علي بن مروان بن جبل» الهمذاني الوهراني . فكلّهم تلقوا ثقافة متينة بالأندلس ، «والوهراني» هذا قد عين قاضي الجماعة «بمراكش» عاصمة الدّولة الموحدية وقاعدة الثقافة وقتئذ ، سنة 584 هـ/1188 م . وقد تولى بعد ذلك قضاء «إشبيلية» إلى سنة 592 هـ (1195 م) .

في أيام «يعقوب المنصور» نالت «أبا الوليد محمد بن رشد» محنة شديدة . ويحدثنا «المراكشي» أن لها سببين : جليا وخفيا . أما سببها الخفي وهو أكبرهما ، فإن «أبا رشد» أخذ في شرح كتاب الحيوان لأرسطا طاليس . فهذّبه وبسط أغراضه وزاد فيه ما رآه لائقا به . ذكر في هذا الكتاب الزرافة وتحدّث عنها غير ملتفت إلى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلوا الكتاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق . فكان هذا مما أحنقهم عليه غير أنهم لم يظهروا ذلك . والسبب الثاني هو أن قوما مما يناويه من أهل قرطبة ويدعي معه الكفاءة في البيت وشرف السلف سعوا به عند أبي يوسف ووجدوا إلى ذلك طريقا بأن أخذوا بعض التلاخيص التي كان يكتبها ، فوجدوا بخطه حاكيا عن بعض قدماء الفلاسفة أن الزهرة أحد الآلهة . فأوقفوا «أبا يوسف» على هذه الكلمة . فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان وهم بمدينة «قرطبة» . فلما حضر «أبو الوليد» ، لعنه والناس حضور ، وأمر بإخراجه وإبعاده ، وكتب إلى الولاة أن ينظفوا البلاد من هذه العلوم بإحراق كتب الفلاسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب وما يتصل به من علوم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة .

إن الجزائر كانت صلة وصل بين الأندلس والمشرق . كان الأندلسيون في رحلاتهم إلى المشرق للحج أو لطلب العلم يمرّون ويمكثون بها ردحا من الزمان يفيدون ويستفيدون ، وربما استقرور بالجزائر نهائيا ، وهناك من عاقته الأقدار عن أداء فريضة الحج مثل الإمام «أبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي

الإشبيلي» . أرست سفينته «ببجاية» ولم تقتلع . فاستوطن هذه المدينة ، وتفرغ لنشر العلم وتأليف الكتب القيّمة التي «اشتهرت بالمشرق ووقع النقل منها» ومنها الأحكام الكبرى والصغرى ، وكتاب العاقبة في علم التذكير وكتاب التجهد وكتاب في اللغة سماه «الحاوي» في ثمانية عشر جزءاً . قضى أيامه تقيا نقيا محبوبا من الجميع . واتصل به أولو الأمر لتأثيره على الرأي العام . كان مالكي المذهب يعتبر دعوة «المهدي بن تومرت» وتعاليمه بدعة في الدين . ولقد سعى الموحدون في اكتساب رضاه ، فعرضوا عليه خطتي القضاء والمخاطبة «ببجاية» ، فرفض أن يتعاون مع تابعي «المهدي» ، ولم يجرأ الخليفة الموحدي على معاملته بالشدة كما كان يتمتع به من نفوذ في أوساط العلم .

دخل «علي ابن إسحاق بن غانية» «بجاية» وصلّى الجمعة وخطب . ودعا لبني العباس ، ثم دعا للإمام «أبي العباس أحمد الناصر» منهم وكان خطيبه «عبد الحق» .

فإن سيرة هذا العالم بعد استيلاء الميورقيين على المدينة تنبيء بما كان له من نصيب في تمهيد الطريق لتسليم البلد إلى المهاجمين .

ظل «عبد الحق» معتكفا على التدريس بطريق السلف الصالح إلى أن توفي «ببجاية» في آخر ربيع الثاني من إثنين وثمانين وخمسمائة ، وقد ناهز الثانية والسبعين إذ ولد في ربيع الأول سنة عشر وخمسمائة ، وإن الحديث بالحديث يذكر . في الوقت الذي استولى ابن غانية على «بجاية» ، كان واليها غانيا وهو «أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الكومي» أحد الدولة الموحدية . كان أديبا كاتبا وشاعرا وفنانا . كان يسكن أحد قصور بني حماد المطلّ على البحر والجبال الشاهقة المكلّلة بالثلوج في أغلب أيّام السنة . وهذه المناظر الطبيعية الخلاّبة كانت تملك قلبه وجوارحه . وكان مولعا بمباهج الدنيا ولذاتها . كل ذلك قوى عبقريته فجاء بأدب رائع أعانه عليه بالخصوص فصاحته وتضلّعه من اللغة . كثيرا ما كانت الكتب والمقطوعات الشعرية تسير ما بين بجاية وتلمسان ، عروسي الجزائر ، تحمل عبث الواليين ونتائج ألعابهما (1) . جفاه المنصور لضياعه ثغر «بجاية» . ولكن

(1) مولين : عصر المنصور : 63 .

تلك الفجوة لم تدم ولم تمنعه تقلّبه في الولايات كبلنسية وسجلماسة . فقد بعث من مقرّه بولايته هذه إلى ملك « غانة رسالة ينكر عليه فيها تعويق تجار المغرب تدل على حنكة في السياسة وبراعته في الكتابة (1)

وبراعته لم تظهر في النثر فقط فتجدها في شعره أيضا . يقول الأديب مادحا ابن عمه « المنصور » ويهنئه بفتح « قفصة » بعد دحره لابن غانية الذي خرج على أبي الربيع . يقول مترجمنا :

هبت بنصركم الرياح الأربع ... وجرت بسعدكم النجوم الطُّلَّعُ
وأتت لعونكم الملائك سُبَّقا ... حتى لضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقّنا ... أنّ الأمور إلى مرادك ترجع
وأمدَّك الرحمٰن بالفتح الذي ... ملأ البسيطة نوره المتشعشع
لِمَ لا وأنت بذلت في مرضاته ... نفسا تفديها الخلائق أجمع ؟
ومضيت في نصر الإله مصمّما ... بعزيمة كالسيف بل هى أقطع
وكتائب منصور يحدو بها ... عزم إذا أمضيته لا يرجع
مُلئت بها أرجاء كل تنوفة ... حتى حسبنا أرضها تتصدّع
من كل تقوى الإلٰه سلاحُه ... ما إن له إلاّ التوكّل مَفزَعُ
لا يسلمون إلى النوائبِ جارهم ... يوما إذا أضحي الجوارُ يُضيّع
لله جيشك والصوارم تنتضى ... والخيل تجري والأسنة تلمع
كم من قصِيّ الدار عاص قاده ... حتف يخبّ به إليك ويُوضع
لم يُلفِ أرضا يستقرّ بظهرها ... أنّى له ومضاء عزمك أسرع
ان ظنّ أن فرارهُ مُنح له ... فليجهله قد ظن ما لا ينفع
أين المفرّ ولا فرار لهارب ... والأرض تنشر في يديك وتجمع
أخليفة الله الرضى هنيته ... فتحا يُمَدُّ بما سواه ويُشفع
وَلْيَهْنِ هذا الفتح انك فتحه ... وبحسبه منك النصيب الْمُقْنِع
فلقد كسوت الدين عزا شامخا ... ولبست منه أنت ما لا يُخْلَع
ان الذي سمّاك خير خليفة ... جعل الخليفة فيكم لا تنزع
لكم الهدى لا يدّعيه سواكم ... ومن ادّعاه يقول ما لا يسمع

(1) أتى بها عبد الله كنون في الذكريات رقم 10 صـ 17 .

ووال كلف بالشعر لابدّ من أن يميل إلى أهله . والشعر في الجزائر لم تخمد جذوته ولم تنطفيء شعلته مع زوال الدولة الحمادية . فإن ذلك الازدهار الذي عرفته البلاد في عهدهم لم ينطمس . فكان أدباء الجزائر كثيرين وقتئذ ، وأمراء الدولة ، ولا سيما «العزيز» نهضوا بالثقافة نهضة واسعة ونشطوا أدباءها تنشيطا كبيرا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، كان الأدباء يشدون الرحال إلى الأندلس والمغرب بأدبائها . فمنهم«أبو عمر بن الأشير وأبو محمد بن يحيى بن عبد السلام وأبو عبد الله محمد بن حماد وأبو علي بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري» . كلهم رجعوا إلى بلادهم إلا «ابن حمّاد» فقد اتصل بالموحدين . فعينوه قاضيا بالأندلس في عدة أماكن وبالمغرب إلى وفاته «بسلا» سنة 625 هـ / 1320 م . أما ابن «الفكون» «القسنطيني» فقد رحل إلى «مراكش» ووافق في مقامه بالعاصمة الموحدية طلوع الخليفة لزيارة قبر «ابن تومرت» . فنظم في ذلك . وقد ترجمنا لهؤلاء الأدباء في كتابنا تاريخ الأدب الجزائري .

حافظ الموحدون على جوهر الدين بنشر أصوله العقلية والنقلية ، وأعطوا للفكر حريته في المغرب العربي . فتآخت في عصرهم الفلسفة والشريعة ، ولا سيما في عهد «المنصور» . فقرب إليه هذا العاهل زيادة على الأدباء ، الفلاسفة والأطباء . فكان يعتني بصحة الرعية اعتناءهُ بصحته . بنى بمدينة «مراكش» بيمارستانا . وكان أمين ذلك البيمارستان وطبيبه «أبو اسحاق إبراهيم الداني» من «بجاية» .

وكان «المنصور» من أكبر المحبين لتشييد المباني الفخمة . فقد اقتبس الفنّ الموحدي من الأسلوب الجديد الإسباني المغربي الذي تبنّاه من قبل المرابطون . ولكن الموحدين نشّطوه وهذّبوه كما سيعلي شأنه ويصل به إلى الذرى المرينيون والزيانيون والحفصيون الذين سيخلفونهم في المغرب العربي . فها الجرالدا وحسّان والكتبية لا تزال ناطقة بعظمة تلك الدولة وبتقدم الفن المعماري في أيام عزّها . والجدير بالذكر أنه ظل لصناع الأندلس اليد الطولى فيه . فكانت الجزائر حينذاك لا تزال متشبثة بالفن القديم الحمادي الذي هو مزيج من الفن البربري والشرقي ما خلا مسجدا «بتلمسان» وآخر «بندرومة» ، كما ذكرنا آنفا عند تحدثنا عن بقايا الفن المرابطي بالجزائر ، ثم آثار سور «ندرومة» الذي يعود إلى العهد الموحدي .

استولى «عبد المؤمن» على «الجزائر» «وتونس» ، وقضى على ثورات الأعراب ، ووضع حدًّا لهجومات النورماند على سواحل المغرب . ثم جاء بعد ذلك «المنصور» ودحر «ابن غانية» فانقطع رجاؤه أن يبسط نفوذه في الجزائر. فرجع للبلاد استقرارها . وكان لهذا الاستقرار أثر في الميدان الاقتصادي . لم تعرف الجزائر ، في حياتها ، أيام أمن وعدل كأيام «عبد المؤمن» وبنيه . فنشطت الحركة الاقتصادية الداخلية ، وربط المغرب بقوافلهم التجارية بين الجهات الشمالية والجنوبية ، وقوي اتصال المغرب بالمشرق تجاريا برا وبحرا . وقد نظمت التجارة الأوروبية مع أفريقية الشمالية تنظيما دوليا ، لكنها كانت في الدرجة الثانية بالنسبة لتجارة المشرق . عقد «عبد المؤمن» معاهدة تجارية مع دول أوربا . وكانت جمهورية «جنوة» في إيطالية أنشطها تجارة . فعقدت مع «عبد المؤمن» معاهدتها التجارية سنة 548 هـ/1153 م ، ثم أوفدت سنة 555 هـ/1160 م قنصلها «أطوبون» ، فقابله عمال «عبد المؤمن» بالإجلال أينما حل حتى قابل «عبد المؤمن» وأمضى معه معاهدة تضمن حرية التجارة لرعايا جنوة برا وبحرا على أن يأخذ من البضائع الواردة إلى «بجاية» العشر ، والواردة إلى غيرها ثمانية من مائة . فأسست جنوة إثر هذه المعاهدة شركات خاصة للتجارة بالمغرب .

وكان «ببجاية» قناصل للدول التجارية لحفظ حقوق رعايا دولتهم وكاتب خاص لضبط حساب تجارة دولته وتقديمه للجمرك المؤمني . ومراسي الجزائر التجارية يومئذ هي هنين فرضة تلمسان وطريقها إلى الأندلس ، قبل أن يخربها «شارلكان» ، ويليها شرقا المرسى الكبير بوهران فأرزيو فمستغانم فتنس فشرشال فالجزائر فبجاية فجيجل فالقل فاسكيكدة فبونة . وكان تجار أوربا يستوردون من بلادنا الزيت والصوف والجلود وريش النعام والأدم ومواد الدباغة النباتية والشمع وسائر الفواكه الجافة ، ويصدرون إليها المنسوجات والذهب والفضة والنحاس وسائر المعادن قطعا ومصنوعة .

منطقة حوض البحر المتوسط

الفصل الثاني عشر

هجرة الاندلسيين الى الجزائر الحفصية عند انهيار الدولة المؤمنة

1) الأدباء

2) الأطباء

3) الأندلسيون الذين استوطنوا جزائر بني مزعنة أبو الحسن علي محمد بن شعيب الأشولي، أحمد بن عبدالله بن خميس بن معاوية بن نمرون.

4) الأديب أبو محمد عبد الحق بن ربيع الأنصاري.

5) حظ تلمسان من المهاجرين الأندلسيين في أواسط القرن السابع الهجري، أبو بكر محمد بن خطاب.

6) الأدباء الجزائريون الذين رحلوا شرقاً وغرباً في تلك الفترة: يحيى بن معطي، محمد بن السطاح، ابن منداس، أبو زيان بن مزني الفزازي.

حين انقرض ملك الأمويين بالأندلس، قام في كل جهة أمير، واستعان كل أمير على خصومه بالنصارى: فضعفت شوكة ملوك الطوائف وخافوا على أنفسهم، فاستصرخوا المرابطين فلبوا نداءهم وزحفوا إلى الأندلس، وقضوا على قوة الأسبان في موقعة الزلاقة يوم الجمعة 13 رمضان سنة 480هـ (23 تشرين الأول 1086م). ولكن، مع توالي الأيام، ركنوا إلى الدعة وحياة البذخ، فنسوا بذلك جلدهم وشجاعتهم واتحادهم. بذلك وبالفتن والثورات التي قامت هنا وهناك في أطراف المملكة، ضعف هيكل دولة المرابطين وذهبت ريحها، وخلفهم الموحدون في المغرب والأندلس، ولم تلبث دولتهم أن ضعفت هي الأخرى ودخلها الوهن، وكثرت الخلافات والخصومات بين سلاطين الأندلس. فكل ذلك كان تشجيعاً للعدو على الطمع فيهم. فكان رابضاً متربصاً لخطاهم، يشعل الفوضى بين صفوفهم، ويحاصر المدن، ويستولي عليها الواحدة تلو الأخرى، فلم يبق منها إلا غرناطة وأحوازها، قد استقر بها بنو الأحمر ردحاً من الزمن بيد أن تقوى شوكة الأسبان أكثر فيخرجونهم منها، فأحس حينئذ المسلمون في وسط ذلك بأن مصير بلادهم الزوال لا محالة. فأخذوا يتسللون أفواجاً نحو المغرب، وكان حظ الجزائر منهم كبيراً. فاستقبلتهم بلادنا بصدر رحب. فقد وفد منهم عدد وافر على بجاية، وكانت هذه المدينة تحت تصرفات الحفصيين الذين أسسوا ملكاً على أنقاض الأمبراطورية المؤمنية، واتخذوا تونس قاعدة لملكهم، وبسطوا نفوذهم على مقاطعتي بجاية وقسنطينة،

وعاصمتهم بالجزائر بجاية إلى أن أكثرت زناتة الغارات على هذه المدينة، فصارت الأهمية لقسنطينة.

وكان الحفصيون يقلدون نظام الموحدين، إذ كانوا قبل هذه الأونة ولاة بإفريقية من قبلهم، ولا شك أن نظاماً يستمد أصوله من النظام الموحدي لا يستغرب فيه أنه يولي اهتماماً عظيمًا إلى الثقافة، من أولئك النزلاء ببجاية: «محمد بن صالح الكناني». ولد بشاطبة في الليلة التاسعة والعشرين لذي القعدة من عام أربعة عشر وستمائة، استوطن بجاية. وكان فقيهاً خطيباً نحوياً. أقرأ واستنفع منه خلق كثير. كان عالماً بعلم القراءات، وله رواية متسعة في الحديث، وله شعر حسن على حسب الغبريني، منه هذان البيتان:

جعلت كتاب ربي لي بضاعة   فكيف أخاف فقراً أو إضاعة
وأعددت القناعة رأس مالي   وهل شيء أعز من القناعة؟

ومنهم «أبو العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد بن خضر الصدفي» الشاطبي. كان فقيهاً، لقي المشايخ ببجاية، وأجاز له «ابن عصفور التلمساني» والقاضي «ابن بقي» و«ابن مطروح» الشريسي و«ابن خلف» المري و«ابن عبد المنعم» الخزرجي و«ابن الطيب العتقي» المرسي و«اليزناسني» و«ابن فرتون» الفاسي. له معرفة بالقراءات ، لم ير الغبريني من هو أتقن منه فيها ولا أضبط منه في طريق الروايات. ألف كتاباً في مرسوم الخط وجزءاً في بيان تمكين ورش حروف المد واللين (الألف والواو والياء). قال الغبريني: «روينا عنه كتب الحديث واستفدنا منه في علم القراءات».

ومنهم شيخ الغبريني الفقيه أبو الحسن عبيد الله بن أحمد بن عبد المجيد بن عمر بن يحيى الأزدي من أهل «رندة»، رحل إلى المغرب وتخير استيطانه ببجاية، واستقر بها إلى أن توفي في ليلة الثلاثاء السابع لرجب عام أحد وتسعين وستمائة. كان على سنن الفقهاء لم يكن مسامحاً في شيء مما يخالف ظاهر الشريعة.

ومنهم شيخ الغبريني أيضاً الفقيه القاضي «أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يحيى بن حزب الله بن يعقوب» الخزرجي الأنصاري الشاطبي. وجده هو الداخل على قول «الغبريني» حين لقيه ببجاية في مدة اجتيازه عليها إلى المشرق. رحل وحج. كان له علم بالعربية وأصول الفقه، وله مشاركة في أصول الدين وقوانين الطب. سمع الغبريني أن له شرحاً شرحاً على الجزولية، ولكن لم يره، ويقال إنه جيد. وكان من بيت علم وقضاء، قضى هو أيضاً ببجاية، كان معارضاً للولاة فيما يخالف طريق الشرع ومبائناً لهم. هكذا حدثنا عنه «الغبريني». لم يبق هذا الفقيه ببجاية، فانصرف عنها إلى إفريقية، وولى قضاء عاصمتها، توفي بتونس في الثامن عشر لصفر عام واحد وتسعين وستمائة.

ومنهم «أبو العباس أحمد بن الغماز» الأنصاري. ولد «ببلنسية» سنة تسع وستمائة. كان فقيهاً قاضياً، رحل إلى بجاية واستوطنها، فلقي المشايخ بها «كابن محرز وأبي المطرف بَن عميرة وابن أبي نصر»، وتخطط بها العدالة، وجلس للوثيقة. ثم ارتحل إلى إفريقية واستوطنها ردحاً من الزمن، ثم رجع إلى بجاية وولي القضاء بها وإقامة صلاة الفريضة بجامعها الأعظم. جلس في آخر أيامه للرواية والتصحيح إلى أن مات بتونس في يوم عاشوراء من ثلاثة وتسعين وستمائة. لقيه «الغبريني» ببجاية ورآه بتونس. ومن نظمه في الزهد قوله:

هو الموت فاحذر أن يجيئك بغتة وأنت على سوء من الفعل عاكف
وإياك أن تمضي من الدهر ساعة ولا لحظة إلا وقلبك واجف
وبادر بأعمال تسرك أن ترى إذا نشرت يوم الحساب الصحائف
ولا تيأسن من رحمة الله إنه لرب العباد بالعباد لطائف

وله أيضاً:

أما آن للنفس أن تخشعا أما آن للقلب أن يقلعا
أليس الثمانون قد أقبلت فلم تبق في لذة مطمعا

تقضي الزمان ولا مطمع لما قد مضى منه أن يرجعا
تقضى الزمان فواحسرتي لما فات منه وما ضيعا
ويا ويلتاه لذي شيبة يطيع هوى النفس مهما دعا
وبُعداً وسحقاً له إذ غدا يسمع وعظاً ولن يسمعا

ومنهم «أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن إبراهيم الحرالي» التجيبي. قال عنه الغبريني: «الفقيه العالم بقية السلف وقدوة الخلف نسيج وحده». قرأ عليه «عبد الحق» النجاة لابن سينا. فكان أعلم الناس بعلم التعاليم وعلم الفقه منقوله ومعقوله. وأما في علم التفسير فكان يورد الآي ويناسقها نسقاً بديعاً ويتكلم فيها بما لم يسبق إليه. هكذا يحدثنا عنه «الغبريني» وهو أعرف به منا إذ تتلمذ له. كان بارعاً في علم الحديث والعلوم اللسانية والأدب، و«له الشعر الفائق الرائق غزلاً وتصوفاً»[1] لم ير الغبريني مثل كتابه في علم الفرائض. المسمى بالوافي، أتى لنا الغبريني بنموذجين من شعره، فقال: ومما يدل على حذاقته في الشعر قوله:

ومذ عنك غبنا ذلك العام إننا نزلنا على بحر وساحله معنى
وشمس على المعنى تطالع أفقنا فمغربها فينا ومشرقها منا
ومست يدانا جوهراً منه ركبت نفوس لنا لما صفت فتجوهرنا
فما السر والمعنى وما الشمس قل لنا وما غاية البحر الذي عبرنا
حللنا وجوداً اسمه عندنا الفضا يضيق بنا وسعاً ونحن فما ضقنا
تركنا البحار الزاخرات وراءنا فمن أين يدري الناس أين توجهنا؟

وقوله:

ما لنا سوى الحال العدم ولبارينا وجود وقِدم
نحن بنيان بنته حكمة وخليق بالبنا أن ينهدم
نحن كتب الله ما يقرأها غير من يعرف ما معنى القلم

(1) الغبريني: عنوان الدراية.

أحـرف الكتب الذي أبـدعه | كلما لاحت معـانيـه أنعجم
أشـرقت أنفسنـا من نـوره | فوجود الكل من فيض الكرم
فتـرق النفس عن عـالمهـا | بـاختبـاء ليس تـدنيه الهمم
ليس يـدري من أنا إلا أنـا | ها هنا الفهم عن العقل انبهم
عجبـاً للكـل فيـما يـدعي | وتـأتي الكـل إلا مـا حكم
كـلما رمـت بـذاتي وصـلة | صار لي العقل مع العلم حلم
يقـطعـاني بخيـالات الفنـا | عن وجـود لم يقيـد بعـدم

لكن هذين النموذجين لا يجعلانه في مصاف الشعراء المطبوعين، اللهم إلا إذا عثرنا على أشعار أخرى فنبدل رأينا في أدبه.

ومنهم «أبو عبد الله محمد بن علي» الطائي الحاتمي الشهير «بمحي الدين بن عربي» أصله من «مرسية» وسكن «إشبيلية». دخل بجاية في شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وبها لقي «أبا عبـد الله العربي» وجماعة من العلماء. استوطن بجاية. وله تـآليف كثيرة كلهـا في علم التصوف. ويحدثنا عنه الغبريني فيقول: «قد نقد عليه أهل الديار المصرية ما صدر عنه من المصادرات وعملوا على إراقة دمه كما أريق دم الحلاج وأشباهه. وكان الشفيع له في تلك القضية والمخلص له من تلك المحنة الشيخ «أبو الحسن علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله» البجائي، رحمه الله، ما زال ساعياً في أمره ومظهراً من وجود التأويـل في شأنـه ما اقتضى الإعراض عن زلته والمسامحة في هفوته.

ومنه الشيخ الفقيه الزاهد «أبو الفضل قاسم بن محمد القرشي» القرطبي. توفي يوم الإثنين الثاني عشر لربيع الأول من عام اثنين وستين وستمائة ببجاية.

ومنهم «أبو الحسن عبيد الله بن محمـد بن عبيد الله بن فتـوح» النفزي. كان من أهل العلم يتقن الفقه وأصوله والعلوم اللسانية. يقول «الغبريني» بأنه كان أديباً، وأن له شعراً بارعاً وأدباً غضاً يانعاً، وأن له

تقدماً في علم المنطق، ولكنه لم يأت من نتاج هذا الأديب ما يبرر قوله فيه. توفي رحمه الله في مستهل جمادى الأولى من عام اثنين وأربعين وستمائة.

ومنهم «أبو الحسن علي» الشهير «بابن الزيات»، قرأ بالأندلس، وكان حافظاً لمذهب مالك. ارتحل إلى المغرب واستوطن بجاية، وأقرأ بها، وانتفع الناس بعلمه، ثم شخص إلى إفريقية فسكن حاضرتها وأقرأ بها. وكانت تقرأ عليه سائر الكتب المذهبية: التهذيب والتلقين والجلاب والرسالة. وكان يحفظ تنبيه ابن بشير ومنتقى الباجي، وغيرهما من الأمهات. وتوفي بإفريقية.

ومنهم «أبو الحسن علي بن أحمد الأنصاري» المعروف «بابن السراج». ولد بإشبيلية في الثامن والعشرين لرجب من عام ستين وخمسمائة. رحل إلى المغرب واستوطن بجاية. له رواية متسعة في الفقه. أخذ عنه ببجاية كثير من العلماء منهم الشيخ الفقيه «أبو الحسن الرندي» والفقيه الناقد «أبو عبد الله القضاعي» المعروف «بابن الأبار»، والفقيه «أبو عثمان بن حكم» والخطيب «ابن سيد الناس» وغيرهم من مشيخة الأندلسيين. توفي ببجاية ضحى يوم الأحد السابع لصفر من عام سبعة وخمسين وستمائة، ودفن بخارج باب البنود بحومة بئر.

ومنهم «أبو محمد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين» المرسي من أهل مرسية. رحل إلى المغرب وسكن بجاية. يحدثنا الغبريني عنه فيقول: «له علم وحكمة ومعرفة ونباهة وبراعة وبلاغة وفصاحة، وله شعر في مراقي أهل الطريف وكتابته مستحسنة في طريق الأدباء» سكن بجاية وتوفي يوم الخميس التاسع من شوال عام تسعة وستمائة.

ومنهم الفقيه الصوفي الأديب «أبو الحسن علي النميري الششتري» توفي في يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر عام ثمانية وستين وستمائة، ومن شعره:

لا تلتفت، بالله، يا نظري، لا هيف - كـالغصن النـاضـر
يا قلب، واصرف عنك وهم النقا وخل عن سرب حمى حـاجر
ما السرب ما البان وما لعلع ما الخيف ما ظبي بني عامر
جـال مـن سميـتـه داثـر مـا حاجـة العقـل بـالـداثـر
وإنمـا مـطلبـه في الــذي هام الورى في جنسه الباهـر
فـالشعب والعبـر لمثـلي ألا إني من أجـل الأول الآخـر
أفـاد للشمس سنى كـالـذي أعـاره لـلقـمـر الـزاهـر
أصبحت فيـه مغرمـاً حـائـراً لله در المـغـرم الحـائـر

قرأ عليه يوماً طالب الآية التالية: ﴿أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني﴾ فقال:

انظر للفظ أنا - يا مغرمـاً فيه من حيث نظرتنا لعل تدريـه
خل ادخارك لا تفخر بعارية لا يستعـير فقـير من مـواليـه
جسـوم أحرفـه للسر حـاملة إن شئت تعرفه جرد معانيـه

ومنهم الشيخ الفقيه المحدث النحوي التاريخي «أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن دحية» الكلبي، كان من المحدثين ومن الحفاظ الكبار. واستوطن بجاية مدة «أبي عبد الله بن يرمور». وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة حتى صار حوشي اللغة . يحدثنا «الغبريني» أنه رأى من كلامه في رسائل ومخاطبات كلها مغلقات مقفلات. كان له خديم واحتاج الوالي إلى تجهيز قطع في البحر يبعث فيها للمغرب. فأخذ خديمه في جملة الغزاة. فكتب «لأبي علي بن يرمور» هذه الرسالة ينبهه على خديمه ليسرحه وهي:

«الشيخ الفقيه الأديب الجحجاح الهرماس أبو فـلان جحمـظ الله قعنبان شفترته هذا الغِطريس في اليم أخذ رجلاً لا يملك حذْرَ قوتاً فيرى الزبرقان فيخاله حوارى، ويرى الجُعل فيسحبه زعجباً وله قرحة أُمْحِشت من الحر وتعطل كبرها، فـابعث إلى هذا العَثَرِيّ من يَخْضِد شـوكته والسلام». «ولما وصلت هذه الرسالة «لأبي علي بن يرمور»، لم يفهم لغتها،

فاستحضر كتب اللغة الصحاح وغيرها ليفك معماها، ويظهر له معناها، فلم تتضح له إلا بعد أيام حتى سافر الأجفان. فكتب كتاباً في حق الرجل وأشخص به رقاصاً. فوصل قطع بوهران فصرف الرجل وزود، ولولا إبطاء الريح ما وصلت الشفعة إلا بعد خلاص مسألته»[1] وفي قطعة من كتابه «النبراس في تاريخ بني العباس» في التسلي عن كوارث الزمان، أتى بها «المقري» في نفحه (جـ 7 صـ: 43)، جاء أسلوبه واضحاً كمثيله عند معاصريه.

ارتحل أبو الخطاب إلى المشرق في عهد بني أيوب، فرفعوا شأنه، وجمعوا له علماء الحديث، وحضروا له مجلساً أقروا له فيه بالتقدم. وقال في السلطان[2] مطولات مطلع إحداها:

مالي أسائل برق بارق عنكم   من بعد ما بعدت دياري منكم

ومطلع الثانية منها:

شجتني شواجٍ في الغصون سواجع   ففاضت هوامٍ للجفون هوامع

ونستخلص من قراءة هاتين القصيدتين أن له الباع الطويل في ميدان القريض فاقرأهما[3] يتضح لك ذلك.

ومنهم «أبو الربيع سليمان» الأندلسي المعروف بكثير. له علم بالحديث، وأما الأدب فشأوه لا يدرك، سبق فيه أهل زمانه وأربى[4]. وقال الحرالي: «بلغ كثير في رتبة البلدان أن يكون كوائل العرب يُحتَجُّ بشعره. وذلك ما كان انتهى إليه من الفصاحة والبلاغة حتى صارت له طبيعة». لقد ذكر بعض الطلبة للغبريني أنه رأى قصيدة «لكثير» في نحو خمسمائة بيت يصف فيها حاله ويعاتب وقته ومطلعها:

---

(1) الغبريني: صـ: 160.

(2) محمد بن أبي بكر بن أيوب.

(3) الغبريني، صـ: 162 وصـ 164.

(4) الغبريني، صـ: 167.

الحمـد لله ليس لي بخت ولا ثبـات يضمها نحت

بحث عنها «الغبريني فلم يجدها.

كان «كثير» ينقد المؤلفين، ومن جملة نقوده ما كان يقوله على كتاب الإحياء «لأبي حامد الغزالي»: «ومتى ماتت العلوم حتى تحيـي علوم الدين، ما زالت حية ولا تزال».

قـرأ بالأنـدلس، وارتحل إلى حـاضرة مـراكش ولقي «أبا مـوسى الجزولي» وغيره.

ومنهم «أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الرحمان بن محمد سليمان بن محمد الزهري» ويعرف «بابن محرز»، ولد ببلنسية في آخر شهر جمادى الثانية سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وقرأ بها وبمدن أخرى من الأندلس. تتلمذ لوالده وخاليه «أبي بكر وأبي عامر» ولدي «أبي الحسن علي بن هذيل» المقرىء، و«أبي عبد الله محمد بن خلف بن مرزوق وأبي عبد الله ابن نوح وأبي العطاء وهب بن لب بن نذير الفهري وأبي الخطاب بن واجب وأبي بكر بن حمزة وأبي محمد بن حوط الله»، وسمع من «أبي محمد ابن عبد الله الحجري ومن أبي عبد الله بن غاني» بسبتة، وأجاز له «أبو جعفر بن مضا وأبو جعفر بن حكم وأبو محمد بن المليح وأبو الحسن بن نقرات» وغيرهم، ومن أهل المشرق «أبو القاسم البصير وأبو عبـد الله الكرسي وأبو الحسن بن المفضل»، ووفد على جاضرة مراكش ولقي بها الفقيه «أبا الحسن علي بن عبد الملك بن القطان»، ثم ارتحل إلى بجاية بعد الأربعين وستمائة واستوطنها، وكان معظمًا عند أهلها محترماً ضمـه الملك إلى مجلسه. وروى بهذه العاصمة عن الشيـخ العالم «الحسن بن نصـر». كانت تقـرأ عليه الكتب الفقهيـة وكتب الحديث وكتب اللغـة والأدب. رأى له «الغبريني» نظمًا ونثراً لا بأس بهما. ورأى له خطباً في عقود النكاح حسنة.

وكان «ابن محرز» رأس الجماعة الأندلسية ببجاية يجتمعون بمنزله، فكان منهم «أبو عبد الله الأبار وأبو المطرف بن عميرة وأبو بكر بن سيد

الناس وأبو عبد الله الجنان»، توفي رحمه الله، ببجاية يوم الأحد الثامن عشر لشوال سنة خمس وخمسين وستمائة. وصلى عليه تلميذه «أبو الحجاج ابن أيوب» بوصيته بذلك وكان يوماً مشهوداً، بكاه الخاص والعام. ومن شعره ما جاء به «الغبريني» في عنوانه[1]

عذراً بإلحاحي عليك مؤمّلاً ... لا غرو أن تلقى الكريم فتسألا
ألقاك مزداداً لكونك باذلا ... ومعاوداً وردي لكونك منهلا
ومكثراً من قول هات لأنني ... أبداً أراك مقللاً من قول لا

قال هذه الأبيات بين يدي «أبي محمد عزون» صاحب الأشغال بمراكش عندما رجع إليه يسأله قضاء حاجة أوصاه بها إمام مسجد كان يصلي خلفه ببلنسية. وقال في القناعة:

اقنع بما أوتيته تنل الغنى ... وإذا دهتك ملمة فتصبر
واعلم بأن الرزق مقسوم فلو ... رمنا زيادة ذرة لم نقدر
والله أرحم بالعباد فلا تسل ... بشراً تعش عيش الكرام وتوجر
وإذا سخطت لضر حالك مرة ... ورأيت نفسك قد عدت فاستبصر
وانظر إلى من كان دونك تذكر ... لعظيم نعمته عليك فتشكر

ومنهم «أبو عثمان سعيد بن علي بن زاهر الأنصاري». ولد ببلنسية سنة سبع وسبعين وخمسمائة. لقي بالأندلس رجالاً منهم الفقيه «أبو عبد الله بن نوح الغافقي وأبو جعفر أحمد الألبيري المعروف بالحصار وأبو علي الحسن بن يوسف بن أحمد الأنصاري عرف بابن زلال». ثم ارتحل إلى المغرب واستوطن بجاية، وانتصب فيها للإقراء في القراءات والعربية، وتخطط بالعدالة. توفي بنفس المدينة في الثلث الأخير من ليلة الإثنين الثالث لجمادي الأولى عام أربعة وخمسين وستمائة، ودفن بخارج باب أمسيون بمقبرة الفقيه القاضي عبد الله بن الحجاج.

---

(1) ـ : 173

صاحب كتاب التكملة: «كان ابن عميرة أول طلبة شديد العناية بشأن الرواية، فاستكثر من سماع الحديث. وأخذ عن مشايخ أهله، وتفنن في العلوم، ونظر في العقليات وأصول الفقه، ومال إلى الأدب، فبرع فيه براعة عد بها من كبار مجيدي النظم، وأما الكتابة فهو عَلَمها المشهور وأحدها الذي عجزت عن ثانيه الدهور ولا سيما في مخاطبة الإخوان».

قال المقري في نفحه جـ 2 صـ: 243 ما يلي: «ورويت في رحلة ابن رشيد لما ذكر أبا المطرف ما صورته: «وأما الكتابة فقد كان حامل لوائها» كما قال بعض أصحابنا ألان الله تعالى له الكلام كما ألان الحديد لداود عليه السلام».

روى عن «أبي الخطاب بن واجب وأبي الربيع بن سالم وأبي عبد الله بن فرج وأبي الشلوبين وأبي عمر بن عات وأبي محمد بن حوط الله»، وأجازوا له. وأجاز له من أهل المشرق «أبو الفتوح نصر بن أبي الفرج» وغيره. وأقرأ، وأخذ عنه ابنه «القاسم وأبو بكر بن خطاب وأبو إسحاق البلقيني الحفيد والحسن بن علي الشقوري وأبو عبد الله البري». ولي «ابن عميرة» القضاء «بأريولة» و«شاطبة» بالأندلس. وكتب «ابن عميرة» عن الرئيس «أبي جميل زيان بن سعد»[1] وغيره من أمراء شرق الأندلس، واستكتبه «الرشيد أبو محمد عبد الواحد» بمراكش مدة يسيرة، ثم صرفه عن الكتابة وولاه قضاء مليانة من نظر مراكش فتولاه قليلاً، ثم نقله إلى أقصى رباط الفتح. وتوفي الرشيد. فأقره على ذلك الوالي بعده «أبو الحسن المعتضد» أخوه. ثم نقله إلى قضاء مكناسة الزيتون. ثم لما قتل «المعتضد» لحق «بسبتة»، ومن هنالك توجه على متن البحر إلى إفريقية، ثم دخل بجاية واستوطنها مدة طويلة وأقرأ بها، وولي القضاء بقسنطينة.

---

(1) كان أميراً لبلنسية واستمر على إمارتها حتى حاصرها النصارى سنة 635هـ.

كتب عن «المستنصر» باستدعاء «أبي عبد الله بن الأبار» من بجاية بما نصه:

على قدر حبي قد أتتك بشارتي ... وحسبك ما أجملته من إشارتي
هنئاً هنئاً قد رفلت من المنى ... بأفخر ملبوس وأجمل شارة

أنعمت الخلافة العزيزة العليا المنصورة أيد الله أوامرها وأخلد مفاخرها بقدومكم على حضرتها السعيدة المباركة التي هي مركز راية الحق، ومجتمع وفود الخلق، أمرت عبدها أعلى الله جدها وأمضى حدها، أن نخاطبكم بذلك، فاعزموا بحول الله على الحركة، وبادروا إليها على الخيرة والبركة فقد نعين لكم الزاد الكريم، واستقبلكم من خير النظر ما به يبرأ السقيم، ويسعد الظاعن والمقيم، والله يوزعنا معشر عبيد المقام الكريم، شكر نعم لولا فضله لم تكن أهلها، ويحمل عنا حقوقها، فإنا لا نستطيع حملها، وهو تعالى يديم عزتكم، ويحفظ مودتكم بمنة والسلام الكريم يخصكم به مجمل قدركم وموجب بركم أخوكم الحافظ لعهدكم، المقيم على ودكم، ابن عميرة، ورحمة الله وبركاته».

ومما خاطب به أيضاً «أبو المطرف» الفقيه «أبا بكر بن الخطاب» ما يلي:

«المحل العلي العلمي شكر الله طَوْله، وأعلى نعله وقوله، علو المقاصد، والحنو على القاصد فسؤاله شرف، ونواله معترف، وحسب بني الرجاء، ولو كانوا ملء الأرجاء، من التفاته طرف، وحامل الخوبة فلان من أهل بلنسية وممن له فيهم أصل نابه، ونسب في الحسب متشابه، إلى حظ من الطلب أحرزه، ومكان من الصون والذكاء ميزه، وقصد تلكم الجهات المباركة يرجو أن يكون له عند أهل الاتصال تعرف، وفي بعض الأشغال تصرف، وفي ساعة الرأي الكريم أدنى من ظله، واعتناء لا شيء له كمثله، أبقى الله فخره على الأيام مخلداً، ومجده بحسام العليا مقلداً بمنه والسلام». وإليك نموذجاً ثالثاً من كتابته

ومنهم «أبو بكر محمد بن سيد الناس» اليعمري الإشبيلي. ولد «بأبدة» بناحية «جيان». كان فقيهاً محدثاً لغوياً مؤرخاً: تتلمذ لمشايخ كثيرين مثل أبيه «أبي العباس، وأبي محمد عبد الرحمان الزهري وأبي العباس الرعيني وأبي الحجاج بن الشيخ وأبي ذر معصب الخشني وأبي حفص بن عمر السلمي وأبي عمران موسى القيسي وأبي الحسن بن خروف النحوي وأبي الحسن بن جبير وأبي القاسم الملاحي». وأجازه من أهل المشرق علماء كبار، كان راوية حافظاً بالحديث، وإماماً في القراءات. ولي صلاة الفريضة والخطبة بالمسجد الجامع ببجاية، وأقرأ بها، وانتفع منه طلبة كثيرون. وصل خبره إلى «المستنصر بالله» بتونس، فاستدعاه وضمه إلى مجلسه. كان يحفظ عشرة آلاف حديث بأسانيدها، وكان يكتب جيداً وينظم حسناً، فهكذا أخبرنا عنه «الغبريني»، ومن شعره هذه المقطوعة:

أيا سائراً نحو الحجاز وقصده ... إلى الكعبة البيت الحرام بلاغُ
ومنه إلى قبر النبي محمد ... يكون له بالروضتين مراغُ
فبلغت ما أفلت كم ذا أراغه ... أناس نسوا قصد السبيل فراغ
وقوم أولو وجدٍ وجدّ ونجدةٍ ... أراغهم الجدّ العثور فراغوا
فيا أسفي كم ذا تمنيت قصده ... فأدفع عن قصدي له وأراغ
وقصّر بي جدي إذا الأمر في يدي ... جميع وعندي ثروة وفراغ
فالآن وقد خط المشيب بمفرقي ... وكلل رأسي من حلى وصياغ
أعلّل نفسي بالمنى وتصدّني ... ذنوبٌ لها عند الفراق مصاغ
إذا ما أجلت الدهر فيه فكيف لي ... يسوغ شراب أو يلذ مصاغ
عسى توبة قبل الممات وزورة ... فينضح من شين الذنوب رداغ
وألقى شيوخاً يؤنس المرء منهم ... أحاديث صدق تجتلى وتصاغ

ومنهم «أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة» المخزومي. ولد بجزيرة «شقر» في رمضان اثنتين وثمانين وخمسمائة. قال «ابن عبد الملك المراكشي» المتوفى سنة 669هـ.

من رسالة أجاب بها «العباس بن أمية» وقد أعلمه باستيلاء الروم على بلنسية فقال:

«بالله أي نحو ننحو، أو مسطور نُثبت أو نمحو، وقد حذف الأصل والزائد، وذهبت الصلة والعائد، وباب التعجب طال، وحال البأس لا تخشى الانتقال، وذهبت علامة الرفع، وفقد (نون) الجمع، والمعتل أعدى الصحيح، والمثلث أردى الفصيح؛ وامتنعت الجموع من الصرف وأمنت زيادتها من الحذف، ومالت قواعد الملة، وصرنا جمع القلة، وظهرت علامة الخفض، وجاء بدل الكل من البعض».

في جميع هذه النماذج يظهر «ابن المطرف» كاتباً حاذقاً يجري يراعه على مذهب كتاب عصره. فقد كتب «أبو المطرف» رسالة خاطب بها «ابن الأبار»[1] يذكر له أخذ العدو مدينة بلنسية أتى بها «المقري» في نفحه جـ 6 صـ 237 يتعذر لنا ذكرها هنا لطولها ولكن نذكر لك قصيدة ختم بها هذه الرسالة حتى يمكنك أن تقف على مكانته في قرض الشعر، فأصخ سمعك إليها:

أقلوا ملامي أو فقولوا وأكثروا ... ملومكم عما به ليس يُقصرْ
وهل غير صب ماتني عبراته ... إذا صعدت أنفاسه تتحدر
يحن وما يجدي عليه حنينه ... إلى أربعٍ معروفها متنكر
ويندب عهداً بالمشقّر فاللوى ... وأين اللوى منه وأين المشقّر
تغير ذاك العهد بعدي وأهله ... ومن ذا على الأيام لا يتغير
وأقفر رسم الدار إلا بقية ... لسائلها من مثل حالي تخبر
فلم تبق إلا زفرة إثر زفرة ... ضلوعي لها تنقدّ أو تتفطر
وإلا اشتياق لا يزال يهزّني ... فلا غاية تدنو ولا هو يفتر
أقول لساري البرق في جنح ليلة ... كلانا بها قد بات يبكي ويسهر

(1) تجدها في النفح، جـ 6 صـ: 237

تعرض مجتازاً فكان مذكراً ... بعهد اللوى، والشيء بالشيء يذكر
أتأوي لقلب مثل قلبك خافق ... ودمع سفوح مثل دمعك يقطر
وتحمل أنفاساً لومضك نارها ... إذا رفعت تبدو لمن يتنور
يقر لعيني أن أعاين من نأى ... لما أبصرته منك عيناي تبصر
وأن يتراآك الخليط الذين هم ... بقلبي وإن غابوا عن العين حُضَّر
كفى حَزَناً أنا كأهل مُحصَّب ... بكل طريق قد نفرنا وتنفر
وأنا كلينا من مشوق وشائق ... بنار اغتراب في حشاه تسعُّر
ألا ليت شعري والأماني ضله ... وقولي ألا يا ليت شعري تحيّر
هل النهر عقد للجزيرة مثل ما ... عهدنا وهل حصباؤه وهي جوهر
وهل للصبا ذيل عليه تجرُّه ... فَيَزْوَرُّ عنه موجه المتكسر
وتلك المعاني هل عليها طلاوة ... بما راق منها أو بما رقَّ تسحر
ملاعب أفراس الصبابة والصبا ... تروح إليها تارة وتُبْكر
وقبلي ذاك النهر كانت معاهد ... بها العيش مطلول الخيمة أخضر
بحيث بياض الصبح أزرار جيبه ... تِطيب وأردان النسيم تعطر
ليال بماء الورد ينضح ثوبها ... وطيب هواء فيه مسك وعنبر
وبالجبل الأدنى هناك خُطاً لنا ... إلى اللهو لا نكبو ولا نتعثر
جناب بأعلاه بهار ونرجس ... فأبيض مفتر الثنايا وأصفر
وموردنا في قلب فلت كمقلة ... حذارا علينا من قذى العين تستر
وكم قد هبطنا القاع نذعر وحشه ... ويا حسنه مستقبلاً حين يذعر
نقود إليه طائعاً كل جارح ... له منخر رحب وخصر مضمر
إذا ما رميناه به عبثت به ... مدلّلة الأطراف عنهن تكشر
تضم لأروى النِيق حزّان سهلها ... وقد فقدت فيها مهاة وجؤذر
كذاك إلى أن صاح بالقوم صائح ... وأنذر بالبين المشتت منذر
وفرّقهم أيدي سبا وأصابهم ... على غرّة منهم قضاء مُقَدَّر

نجتزىء بهذه القصيدة من شعره التي يظهر من خلال أبياتها شاعراً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فشعره ونثره يقران له بالمقام السامي في الأدب. خلف أبو المطرف تأليفاً في كائنة ميورقة وكتاباً في تعقبه على «فخر الدين بن الخطيب الرازي» في كتاب المعالم في أصول الفقه منه، واقتضابه النبيل تورة المريدين. ودون الأستاذ «أبو عبد الله بن هانىء» السبتي كتابته وما يتخللها من الشعر في سفرين وسماهما «بغية المستطرف وعتبة المتطرف». توفي «أبو المطرف» بتونس ليلة الجمعة الموفية عشرين ذي الحجة عام ستة وخمسين وستمائة على حسب «لسان الدين» في الإحاطة أو ثمانية وخمسين وستمائة على قول «الغبريني» في عنوان الدراية.

ومنهم «أبو عثمان سعيد بن حكم بن عمر بن حكم عبد الغني القرشي». ولد بالأندلس ليلة السبت لست خلون من جمادى الأخيرة من عام أحد وستمائة. دخل بجاية، وبقي بها مدة. كان حاذقاً في العربية والأدب، وله نظم ونثر، على حسب «الغبريني»، ولكن ليس لدينا ما يشهد له بذلك، اتصل بمشايخ عهده بالأندلس مثل «أبي القاسم بن يزيد بن بقي وابن زرقون وابن خلفون والشلوبين وعلي بن جابر اللخمي الدباج وأبي بكر بن جابر السقطي وابن السراج الإشبيلي»، وبالجزائر مثل «علي بن أبي نصر البجائي وابن محرز الزهري وابن خضر وأبي الحسين الزهري ومحمد بن ثابت القسنطيني»، وتصدر للإقراء ببجاية، فقصده الطلبة وغيرهم، فمن جملة هؤلاء الأديب «أبو الربيع سليمان كثير وأبو عبد الله التلمساني والطبيب أبو الحكم بن فتلة». انتقل إلى تونس، ومن ثم دخل ميورقة وبها توفي في آخر الساعة الرابعة من يوم السبت والعشرين من رمضان عام ثمانين وستمائة.

ومنهم «أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي» الشهير «بابن الأبار»، النحوي اللغوي الأديب الكاتب البارع. قال «ابن خلدون»: «كان الحافظ أبو عبد الله بن الأبار من مشيخة أهل بلنسية، وكان علامة في الحديث ولسان العرب وبليغاً في الترسيل والشعر، وكتب

عن السيد أبي عبد الله بن حفص بن عبد المؤمن ببلنسية، ثم عن ابنه السيد «أبي زيد»؛ ثم كتب عن «ابن مردنيش»، ولما زحف الطاغية إلى بلنسية ونازلها بعث «زيان» بوفد بلنسية وبيعتهم إلى الأمير «أبي زكريا» وكان فيهم «ابن الأبار» هذا الحافظ، فحضر مجلس السلطان وأنشد قصيدته على روي السين يستصرخه. فبادر السلطان بإغاثتهم، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم من المال والأقوات والكُسا. فوجدوهم في عسرة الحصار إلى أن تغلب الطاغية على «بلنسية». ورجع «ابن الأبار» إلى تونس بأهله غبطة بإقبال السلطان عليه فنزل منه بخير مكان، ورشحه لكتب علامته في صدور رسائله ومكتوباته. فكتبها مدة. ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العباس الغساني لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي، وكان آثر عنده من الخط المغربي. فسخط «ابن الأبار» أنفة من إيثار غيره عليه. وافتات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه، وأن يبقى مكان العلامة منه لواضعها. فجاهر بالرد، ووضعها استبداداً وأنفة، وعوقب على ذلك، فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وأنشد ممثلاً:

اطلب العز في لظى ودع الذ ... لّ ولو كان في جنان الخلود

فنمي ذلك إلى السلطان، فأمر بلزومه بيته (ولكن ابن الأبار) استعتب السلطان بتأليف رفعه إليه، فغفر السلطان له وأعاده إلى الكتابة. ولما هلك «أبو زكريا»، رفعه «المستنصر» إلى حضور مجلسه مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس، ولكن «ابن الأبار» كان له أعداء سعوا به إلى الأمير فأمر بقتله.

صحب «أبا الربيع بن سالم» بضعاً وعشرين سنة وهو ندبه إلى وضع كتابه التكملة لصلة «أبي القاسم بن بشكوال»، وكتب إليه «أبو بكر ابن أبي جمرة، وأبو عمران عات وأبو عبد الله بن عبد الرحمان التجيبي نزيل تلمسان ومحمد بن أحمد الأنصاري» المعروف بالأندلسي، ومن

أهل الشرق «أبو البركات عبد القوي بن الحبحاب وابن بندار وابن ظافر القلعي».

استوطن «ابن الأبار» بجاية ودرس بها وأقرأ وصنف. ولو لم يكن له من التآليف إلا الكتاب المسمى بكتاب «اللجين في مراثي الحسين» لكفاه في ارتفاع درجة[1]، وله درر السمط في خبر السبط.

ومن بديع نثره رسالته التي كتب بها إلى «المستنصر» وهي الرسالة الغريبة مساقاً المتلألئة نظماً واتساقاً، التي ينسج على منوالها، ولم يأت أحد بمثالها يصف وصول الماء إلى تونس وهي[2]:

«الحمد لله حمداً لا نُقِلُّه، هذا الزمان كنا نؤمله، «بلدة طيبة ورب غفور» ودولة مباركة لمحاسنها سفور. إلى أبي حفص آلوا، فهل جالت النجوم حيث جالوا، أو نالت الملوك بعض ما نالوا: ملك يشتمل الإقبال، وعز يقلقل الأجبال، وكرم صريح الانتماء في النما، وشرف سمت ذوائبه على السماء، إلى عدلٍ وإحسان، هما قوام نوع الإنسان، مع رفق وإسجاح، ضمنا كل فوز ونجاح، فقد آضت الظلماء أنواراً، وفاضت البركات أنجاداً وأغواراً، أليس العام ربيعاً، والعالم جميعاً، والسعود طالعة، والعصور طائعة، مصالح الأعمال تحليها وعلى منصات الكمال تجليها؟ فمن ذا، أيها المولى، يجاريك إلى مدى، أو يباريك في إقدام صادق وندى، وآياتك للأبصار هدى، وحياتك للكفار ردى؛ بسيرتك عدل الدهر وما جار، ولولا نور غرتك ما أنار، لقد حسنت بك الأوقات، حتى كأنك في فم الزمنِ ابتسام، أغْرقت في المجد والعليا، وعنيت بالدين فعنت لك الدنيا، أيٌّ عنيد أو عميد ما ألقى باليد، واتقى في اليوم عاقبة الغد، إصفاقاً على التعوض بصفحك وإسعادك، وإشفاقاً من التعرض لصفاحك وصعادك، تعمر بالحسنات آناءك، وتتبع في القربات آباءك، بانياً كما بنوا، بل زائداً على ما أتوا، وبادياً من حيث انتهوا:

(1) الغبريني، صـ: 186

(2) أزهار الرياض، جـ 3 صـ: 211 للمقري.

أناس من التوحيد صيغت نفوسهم فزُرْهم تر التوحيد شخصاً مركّبا
ومن ساكبات المزن فيضُ أكفهم فرِدْهم ترى ماء الغمام وأعذبا

أمجاد أجواد، في الحِباء بحار وفي الحُبا أطواد. تَقَيَّل «أبو زكرياء» نهج «أبي محمد» وأيدا جميعاً بأبي حفص المؤيد:

نسبٌ كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا

أولئك صفوة الأئمة، وحفظة الأذمة، والقائمون دون الأمة، في الحوادث المدلهمة، وهذه الدولة المحمدية، الخالدة بمكانها الدعوة المهدية، إليها انتهت المراشد، وعليها التفّت المحامد، وبها اعتزت حين اعتزّت العناصر والمحاتد، ومن خصائصها انفعال الوجود، ومن مراسمها الإيثار بالموجود، والبدار إلى إغاثة الملهوف وإعانة المنجود، ما برحت للخيرات إيضاعها وخبُّها، وبالصالحات غرامها وحبها؛ حتى لقد فهمت أسرارها وأودعت أنوارها، وكُلفت أو كفلت إفشاءها وإظهارها؛ يميناً أو يمين الحق به طولى، وللآخرة خير لها من الأولى؛ بمولانا، أيده الله، عز مكانها، وخُلِّدت سديدةً آثارها، شديدة أركانها؛ لا جرم أنه الطاهر كالماء الذي جلبه للطهارة، والظاهر ولاء ولواء في مَصْعَد الخلافة ومقعد الإمارة؛ بالسعادة الأبدية وَجْدُهُ وكَلَفُه، وما همه إلا تجاوز ما أسلفه سلفه؛ فجّر من الأرض ينبوعاً، وجدد للجدوى رسوماً عافية وبوعاً؛ ساحته الحرم، وهو زمزم قُصّادِه وحُجَّاجِه؛ وراحته البحر الخضم، غيرِ طعمه وارتجاجه؛ ما أظهر خِلالاً، وأبهره جلالاً «هكذا وإلا فلالاً»؛ غابت كماة المعارك وشهد، ونامت ولاة الممالك وسهد، فمتى قسطوا، أقسط، وإذا غوروا أنبط، ولذلك ما أبطل عملُه أعمالهم وأحبط؛ غلبهم على صفتي الندى والبأس، وسلبهم منقبتي حمزة والعباس؛ فلا غرو أن من أمّن ووقى، ثم لما كسا وأطعم سقى؛ آية نُعمى وفّت بالميعاد، وحسنى مثلها يعود للمعاد؛ وأتت بماء معين قد أصبح غَوراً، وملأت ما بين لابتيها جناناً ترف ظلاً وترق نوراً؛ فيا بشرى لتونس أخصب جَدِيبها، وأحسن وصف الروض والغدير أديبها؛ وطالما أطلعت صحراء بل

بغضاء، فكم للإمارة قِبَلها من يد بيضاء، غُشِّيت حَبَر الحبور والسرور، وعُوِّضت بردَ الظل من وهَج الحرور؛ خمائل وجداول تُزاول منها العين ما تزاول؛ تلك يضل من أحصاها، وهذه يصل بها حصاها؛ ويا لقصرها السعيد! نعمت أدواحه، وهبت على خضر الأغصان وزرق الغدران أرواحه؛ هذا وإن بات السماح المفاض يسقيه، والجود الفضفاض ينفع فؤاده ويشفيه؛ وهنيئاً للمسجد الجامع أن رويت جوانحه الصادية، وجمعت في شرعته السارية والغادية؛ فها هو فجره بادي الغرر والأوضاح، وصخره منبجس بالزلال القراح؛ وللجمهور بصفوة «المُنساب، لَهَجُ الغُياب بالإياب، وطرب الشيب لذكر الشباب، وأمسوا قد سُوِّغوا مآربهم، وأضحوا قد علم كل أناس مشربهم؛ فهم يردون على العذب النمير، ويجدون بركة رأي الأمير؛ مَكْرُمة ذخرها لسلطانه الزمان، وكرامةٌ هَنَّأَهَا به الإيمان، وقضية أن حجبت عن داود فما حجب عنها سليمان.

جمعتَ للناس بين الرّي والشِّبَعِ ... فهمْ بأخصب مصطافٍ ومُرْتَبَعِ
ولم تدَع كرماً إلا أتيتَ به ... تُضيف مُبْتَدعاً منها لمبتدع
لما وَلِيت خلعت الخير أجمعه ... عليهمُ فبدوا في أجمل الخِلَع
لله أيامُك استوفت معاً سنها ... فلا فضيلة للأعياد والجُمَع
دامت مساعيك والأقدار تُسعدها ... تُولي المساجد أنصافاً من البِيَع

اللهم إن الإيالة الحفصية قد أعلَيت مظاهرها، ونصرت معاشرها، وقصرت على المصالح الدينية والدنيوية مواردها ومصادرها، ثم اصطفيت من شرف بيتها الصُّراح ومعدن سؤددها الوضاح، مولانا الأمير الأجل، المؤيد المبارك، أبا عبد الله فانتضيته حساماً في يدك قائمُه، وارتضيته إماماً لا تلين في ذاتك صرائمه، ولا يلحق شأوَه في النيل من عداتك زائمه؛ يمضي بأساحين لا مضاء للحسام العضب، ويهمي جوداً والسماء في أُزُر من نجيع الجدب، وينتدب سعياً لكل حسنى أعيت على القريع الندب.

فاقضي اللهم، لسلطانه بتأييد التأييد، وأدم بأيامه المباركة نعمة التميهد، وضاعف عزة جانبه بإعزازه كلمة التوحيد، واجْزِه اللهم أفضل الجزاء عن إفاضة النعمان، وإنارة الظلماء، وكافئه عن نقع الغلل والأظماء، بما فجّر من ينابيع الماء، وكما شرفت فعله في الأفعال واسمه في الأسماء، فاجعله في الدنيا داعياً إلى سبيلك، وفي الأخرى هادياً إلى حوض رسولك، صلى الله عليه وسلم، الذي آتيته بعدد نجوم السماء.

آمين آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين».

ورسائل «ابن الأبار» كثيرة كلها على هذا الطراز تفيض رقة وبياناً وفصاحة، فقد كتب يهنىء القاضي «أبا المطرف بن عميرة» بولايته قضاء شاطبة، وكتب مخاطباً رئيس منورقة «سعيد بن حكم» القرشي مراراً، وكتب إلى رئيس شاطبة «أبي الحسين بن عيسى» شافعاً مراراً.

ولم يكن «ابن الأبار» حاذقاً في الترسيل فقط بل قد أتى بشعر ممتاز فناً وبياناً وأسلوباً، ومن أروع شعره القصيدة السينية التي أشار إليها «ابن خلدون»، فإنها تذكرنا بقصيدة أبي تمام التي مدح بها المعتصم بعد فتحه عمورية وبقصيدة ابن رشيق في القيروان وبقصيدة «الرندي» التي يبكي فيها فردوسه المفقود. يعد المقري هذه القصيدة من غرر القصائد الطنانة. إليكها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها دَرَسا
وهب لها من عزيز النصر التمست ... فلم يزل منك عز النصر مُلتمسا
وحاشِ مما تعانيه حُشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمس حدُّها تعسا
في كل شارقة إلمام بائقةٍ ... يعود مأتمها عند العدا عُرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة ... تثني الأمانَ حِذارا والسرور أسا
تقاسم الروم لا نالت مقاسمُهم ... ولا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفي بلنسيــة منهـا وقــرطبــة ... ما يَنسف النفس وما ينزف النَّفَسا

مـدائنٌ حلهـا الإشــراك مبتسـمًا ... جـذلان وارتحل الإيمـان مبتئسـا

وصيـرتها العـوادي العابثـات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

فمن دساكر كـانت دونها حرمـاً ... ومن كنـائس كانت قبلهـا كُنُسا

يا للمســاجد عـادت للعدا بِيعـاً ... وللنـداء غـدا أثنـاءهـا جــرسـا

لهفي عليها إلى استرجاع فائتهـا ... مـدارساً للمثـاني أصبحت دُرسا

وأربُعاً نمنمت أيدي الـربيع لهـا ... ما .شئت من خِلَع موشية وكُسا

كـانت حدائق لـلأحداق مـونقة ... فصوّح النضر من أدواحها وعَسا

وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجُلُسا

سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا ... عَيث الدُّبا في مغانيها التي كَبسا

وابــتزّ بــزّتهـا ممـا تحيّـفهـا ... تحيّف الأسد الضاري لما افترسا

فـأين عيش جنينـاه بهـا خَضِـراً ... وأين غصنٌ جنينـاه بهـا سَلِســا

حمى محـاسنَهـا طـاغٍ أُتيـح لهـا ... ما نام هضمهـا حيناً ولا تَعسـا

ورجّ أرجـاءهـا لمـا أحـاط بهـا ... فغـادر الشُّمَّ من أعلامهـا خُنُسا

خلا له الجـوُّ فامتـدت يداه إلى ... إدراك مـا لم تطأ رجـلاه مختلسا

وأكـثر الـزعمَ بـالتَّثليث منفـرداً ... ولو رأى راية التـوحيد مـا نَبسا

صِلْ حبلها، أيها المولى الرحيم، فما ... أبقى المِراسُ لها حبلاً ولا مَرَسا

واحيـي ما طَمست منها العداة كما ... أحييت من دعوة المهديّ ما طمسا

أيـام سرت لنصـر الحق مستبقاً ... وبتَّ من نور ذاك الهدي مقتبسا

وقمت فيهـا بـأمـر الله منتصـراً ... كالصارم اهتز أو العارض انْبجسا

تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم ... والصبـح ماحيـةٌ أنـواره الغلسـا

وتقتضي الملك الجبــار مهجتــه ... يوم الوغى جهرة لا ترقُب الخُلسا

هذي رسائلها تدعوك من كثبٍ ... وأنت أفضـل مـرجـوّ لمن يَئِسـا

وافتـك جاريـةً بـالنُّجـح راجيـةً ... منك الأمير الرضا والسيد النُّدُسا

خاضت خُضارة يعليها ويخفضها		عبابُه فتعاني اللين والشَّرسا
وربما سبحت والريح عاتية		كما طلبت بأقصى شدِّه الفَرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي		حفص مُقبلةً من تُربه القُدُسا
مَلْكٌ تقلدت الأملاك طاعته		ديناً ودنيا فغشاها الرضا لبسا
من كل غاد على يمناه مُستلمًا		وكل صادٍ إلى نُعماه مُلْتمسا
مؤيدٌ لو رمى نجمًا لأثبته		ولو دعا أفقاً لبّى وما احتبسا
تالله أن الذي تُرجى السُّعودُ له		ما جال في خَلَد يوماً ولا هجسا
إمارة يحمل المقدار رايتها		ودولةٌ عزّها يستصحب القعسا
يبدي النهار بها من ضوئه شنباً		ويطلع الليل من ظلمائه لعسا
ماضي العزيمة والأيام قد نكلت		طلق المحيا ووجه الدهر قد عَبسا
كأنه البدر والعلياء هالته		تحف من حوله شُهب القنا حَرسا
تدبيره وسِع الدنيا وما وسِعت		وعرفُ معروفه وآسى الورى وأسا
قامت على العدل والإحسان دولته		وأنشرت من وجود الجود ما رُمسا
مباركٌ هَدْيُه بادٍ سكينته		ما قام إلا إلى الحسنى ولا جَلَسا
قد نور الله بالتقوى بصيرته		فما يبالي طروق الخَطْب ملتبسا
برى العصاة وراش الطائعين فقُل		في الليث مفترساً والغيث مُرْتجسا
ولم يغادر على سهل ولا جبل		حيا لقاحاً[1] إذا وفَّيته بخسا
فربما أصيد لا تلفي به صيداً		ورب أشوش لا تلقى له شوسا
إلى الملائك يُنمى والملوك معاً		في نبعة أثمرت للمجد ما غرسا
من ساطع النور صاغ الله جوهره		وصان صيغته أن تقرب الدنسا
له الثرى والثريا خطتان فلا		أعز من خطتيه ما سما ورسا
حسبُ الذي باع في الأخطار يركبها		إليه محياه أن البيع ما وُكِسا
إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته		عصاه محترماً بالعدل محترسا

(1) لم يدينوا للملوك، ولم يملكوا ولم يصبهم سباء.

فظل يوطن من أرجائها حَرَما ... وبات يوقد من أضوائها قبسا
بشرى لعبد إلى الباب الكريم حدا ... آماله ومن العذب المعين حسا
كأنما يمتطي واليمن يصحبه ... من البحار طرفاً نحوه يبسا
فاستقبل السعد وضّاحاً أسرتُه ... من صفحة فاض منها النور وانعكسا
وقبّل الجود طفاحاً غواربُه ... من راحة غاص فيها البحرُ وانْغَمسا
يا أيها الملك المنصور أنت لها ... عَلياءَ تَوسع أعداء الهدى تعِسا
وقد تواترت الأنباء أنك مَنْ ... يُحْي يُحيي بقتل ملوك الصُّفر أندلسا
طهّر بلادك منهم إنهم نَجَسٌ ... ولا طهارة ما لم تغسل النَّجسا
وأوطىء الفيلق الجرّار أرضهُمُ ... حتى يُطأطىء رأساً كل من رأسا
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شَرِقت ... عيونهُم أدمعا تهمي زكاً[1] وخَسا[2]
هم سبعة الأمر وهي الدار قد نُهكت ... داءً وما لم تباشر جسمه انتكسا
فاملأ هنيئاً لك التأييدُ ساحتها ... جُرداً سلاهب أو خطِّيَّه دُعُسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقُبُه ... لعل يومَ الأعادي قد أنى وعسى

فقد بكى، كما ترى، الجزيرة شعراً، وقد بكاها نثراً في رسالة كتبها إلى زميله «أبي المطرف» حين سقطت بلنسية، مسقط رأسه، في يد العدو، وأتى بها المقري في نفحه جـ 6 صـ: 245، ولا بأس أن نقدم لك شذرة منها. يقول «ابن الأبار»: «أين بلنسية ومغانيها، وأغاريد رقها وأغانيها، أين حِلى رصافتها وجسرها، ومنزلاً عطائها ونصرها؟ أين أفياؤها تندى غضارة، وركاؤها تبدو من خضارة؟ أين جداولها الطفاحة وخمائلها؟ أين جنائنها النفاحة وشمائلها؟ شذ ما عطل من قلائد أزهارها نحرُها، وخلعت شعشائية ضحاها بحيرتها وبحرها، فأية حيلة لا حيلة في صرفها مع صرف الزمان، وهل كانت حتى بانت إلا رونق الحق وبشاشة الإيمان، ثم لم يلبث داء عقرها، أن دب إلى جزيرة شقرها، فأمر عذبها النمير، وذوى غصنها

(1) الزكا: الزوج.
(2) الخسا: الفرد.

النضير، وخرست حمائم أدواحها، وركدت نواسم أرواحها، ومع ذلك اقتحمت دانية، فنزحت قطوفها وهي دانية، ويا «لشطيبة» وبطحائها، ومن حيف الأيام وانحائها، ولهفاه ثم لهفاه على «تدمير» وتلاعها، و«جيان» وقلاعها، و«قرطبة» ونواديها، وحمص ووواديها، كلها رعي كلؤها، ودهي بالتفريق والتمزيق ملؤها، عض الحصار أكثرها، وطمس الكفر عينها وأثرها، وتلك «البيرة» بصدد البوار، و«رية» في مثل حلقة السوار، ولا مرية في «المرية» وخفضها على الجوار إلى بنيات، لواحق بالأمهات، ونواطق بهاك لأول ناطق بهات، ما هذا النفخ بالمعمور؟ أهو النفخ في الصور؟ أم النّفر عارياً من الحج المبرور؟ وما لأندلس أصيبت بأشرافها، ونقصت من أطرافها؟ قوض عن صوامعها الآذان، وصمت النواقيس فيها الآذان، أجنت ما لم تجن الأصقاع؟ أعقّت الحق فحاق بها الإيقاع؟ كلّا! بل دانت للسنة، وكانت من البدع في أجسن جُنّة، هذه المروانية مع اشتداد أركانها وامتداد سلطانها، ألقت حُبَّ آل النبوة في حبات القلوب. وألوت ما ظفرت من خلعه ولا قلعه بمطلوب، إلى المرابطة بأقاصي الثغور والمحافظة على معالي الأمور، والركون إلى الهضبة المنيعة، والروضة المريعة، من معادات الشيعة، وموالاة الشريعة، فليت شعري بم استوثق تمحيصها؟ ولم تعلق بعموم البلوى تخصيصها».

والحاصل فإن أشعار «ابن الأبار» ورسائله تعد من روائع الآثار الأدبية التي يفتخر بها المغرب العربي ، توفي بتونس ضحوة يوم الثلاثاء الموفي عشرين لمحرم عام ثمانية وخمسين وستمائة رحمه الله.

ومنهم «أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي» المعروف «بابن عصفور» النحوي اللغوي. ولد «بإشبيلية»؛ وتتلمذ لجماعة من أكابر العلماء منهم: أبو علي الشلوبين، وانتقل إلى المغرب واستوطن بجاية، وكان بها أستاذاً للأمير «يحيى»، وارتحل إلى عاصمة إفريقية، فاتصل بأميرها، فحظي عنده، وجعله من خواص مجلسه، فكان قبل أن يعلو عرش الإمارة يقرأ عليه. انتفع الطلبة من دروسه، ومن تآليفه المقرب

والشروحات عليه وعلى الجمل، والإيضاح وشرح أبيات الإيضاح. توفي بتونس في عشر السبعين وستمائة.

ومنهم «أبو محمد عبد الله من شكورنة الأزدي» المعروف بابن «برطلة». ولد «بمرسية». سمع من «الطرطوشي» و«الأنماطي» و«والسلفي» وغيرهم، فأصبح محدثاً خطيباً بمرسية. خرج حاجاً، واستقر ببجاية عند رجوعه، وولي بها صلاة الفريضة بالمسجد الجامع. وولي القضاء بمدينة الجزائر وغيرها. وقد أثبت له «الغبريني» البراعة في الأدب، ولكنه لم يعطنا ولو بيتاً من أدبه حتى نحكم له بهذه البراعة، لقي كثيراً من علماء بجاية منهم: «أبوعمرو عات وأبو إسحاق بن أغلب الخولاني المعروف بالزروالي وابن حوط الله ومحمد بن عيسى بن أصبغ وأبو عبد الله بن مرج الكحل وأبو الربيع سليمان بن سالم». وأجاز له «أحمد بن عبد الودود بن سمحون الهلالي ويحيى بن عبد الرحمان الدمشقي نزيل غرناطة وأبو جعفر أحمد بن يحيى». وبيته عريق في العلم، وأبوه وجده مذكوران في التكملة، انتقل إلى تونس، ومنها قصد الحج، ثم عاد إليها، وبها توفي ظهر يوم الأحد السادس والعشرين لجمادى الأخيرة عام أحد وستين وستمائة.

ومنهم «أبو علي بن خميس» وهو «منصور بن خميس بن محمد بن إبراهيم اللخمي» من أهل المرية، سمع من «عبد الله البوني» و«ابن صالح» وأخذ عنهما القراءات. وروى أيضاً عن الحافظ القاضي «أبي بكر ابن العربي» و«ابن ورد» و«أبي محمد الرشاطي وأبي الحجاج القضاعي وأبي محمد عبد الحق بن عطية وأبي عمرو الخضر وأبي القاسم عبد الحق بن محمد الخزرجي» وغيرهم.

ومنهم «أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهري اللبلي». قرأ بالأندلس على مشايخ مثل الأستاذ «أبي علي الشلوبين». ثم انتقل إلى بجاية وأقرأ بها اللغة مدة، ثم ارتحل إلى المشرق لقصد الحج. وفي عودته استقر بتونس. له تآليف منها شرح على الجمل ومنها شرح الفصيح «لثعلب».

ومنهم «أبو العباس أحمد بن محمد القرشي الغرناطي» ويعرف

«بالغرناطي». كان يحفظ تاريخ الطبري، ويحفظ الثعالبي في شرح القرآن، وله تصانيف طالع «الغبريني» بعضها. لم يبق ببجاية، قصد إفريقية، وظل هناك عاكفاً على التدريس في العلوم الدينية إلى أن مات.

ومنهم «أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن الجيان». كان خطيباً كاتباً شاعراً. روى ببلده وغيره عن «أبي بكر بن الخطاب وأبي الحسن سهل بن مالك وابن قطرال وأبي الربيع بن سالم وأبي عيسى بن أبي السداد وأبي علي الشلوبين» وغيرهم، كان من نظراء أبي المطرف المخزومي، وكثيراً ما كانا يتراسلان بما يعجز عنه الكثير من أهل الفصاحة والبلاغة. لما كتب له «أبو المطرف بن عميرة» برسالته الشهيرة التي أولها: «تحييك الأقلام تحية كسرى وتقف دون مداك حسرى» وهي طويلة، أجابه برسالة طويلة مثلها تظهر فيها براعته في الكتابة إليك نبذة منها: «ما هذه التحية الكسروية؟ وما هذا الرأي وهذه الروية؟ أتنكيت من الأقلام؟ أو تبكيت من الأعلام؟ أو كلا الأمرين توجه القصد إليه، وهو الحق مصدقاً لما بين يديه؟ وإلا فعهدي بالقلم يتسامى عن عكسه، ويترامى للغاية البعيدة بنفسه، فمتى لانت أنابيبه للعاجم، ودانت أعاريبه للأعاجيم؟ وا عجباً! لقد استنوق الجمل[1]، واختلف القول والعمل، لأمر ما جدع أنفه قصير[2]، وارتد على عقبه الأعمى أبو صير، أمس استقى من سحابه فلا يسقيني واستشفى بأسمائه فلا يشفيني، واليوم يحلني محل «أنو شروان» ويشكو مني شكوى الزيدية من بني مروان ويزعم أني أبطلت سحره ببئر ذروان، ويخفي في نفسه ما الله مبديه ويستجدي بالأشر ما عند مستجديه، فمن أين جاءت هذه الطريقة المتبعة، والشريعة المبتدعة؟ أيظن أنه همّاه لا ينفك، وأنه لا ينجلي هذا الشك؟ هل ذلك منه إلا إمحاض التيه، وإحماض تفتيه، ونشوة من الهزل، ونحوة من ذي ولاية أمن من العزل؟ تـالله لولا محله من القسم، وفضله في تعليم النسم، لأسلمته ما ينقطع به صلفه، وأودعته ما

(1) كانت له بعض صفات الناقة، والمراد تغيرت الطباع.

(2) مثل قيل في قصة قصيرة واجتمع له على الزباء ملكة الجزيرة حتى أخذ منها بالثأر.

ينصدع به صدفه، وأشرت بطرف المشرفي ومجده، وأشرت إلى تعاليه عن اللعب بجده، ولكن هو القلم الأول، فقوله على أحسن الوجوه يُتأوَّل».

ومن نثره رسالة كتب بها من الأندلس إلى «محمد» ﷺ. فلا بأس أن نعطيك فقرة منها: «السلام العميم الكريم والرحمة التي لا تبرح ولا تريم والبركة التي أولها الصلاة وآخرها التسليم على حضرة الرسالة العامة الدعوة والنبوة، النبوة المؤيدة بالعصمة والأيد والقوة ومثابة البر والتقـوى فهي لقلوب الطيبين صفا ومروة... السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أحمد السلام عليك يا أبا القاسم، سلام من يمد إليك يد الغريق ويرجو الإنقاذ ببركتك من نكد المضيق، ويتقطع أسفاً ويتنفس صُعُداً كلما ازدلف إليك فريق وعمرت نحوك طريق ولا يفتر صلاة عليك له لسان ولا يجف ريق.» والرسالة طويلة جداً كلها درر. وقد قال الشعر وأبدع فيه منه هذه القصيدة:

يا حادي الركب، قف بالله، يا حادي ... وارحم صبابة ذي نـأي وأبعاد
ما ينبغي عنك إلا أن تصيخ له ... سمعاً ليسأل عمن حَل بالوادي
فهل لديك عن الأحباب من خبر ... وهل نزلت بذاك الربع والنادي
حيث اللوى يرتقي سامي اللواء به ... ويلتقي عنـده الحاضـر والبادي
وحيث القباب البيض قد رفعت ... ليتاح من فوقها ذاك السنى البادي
بالله إن كنت قد خيّمت عندهم ... بـالمنحنى بين أنجـاد وأجـواد
هات الحديث عن المغنى وساكنه ... وارفع إلى سنة العليـاء أسنادي
وروّني من حديث القوم أعـذبه ... فـإنـه اللذ يشفي علة الصـادي
بين الجوانح نار للجوى وقدت ... فإن قدرت فـاخمد بعـد إخماد
هيهات تستطيع إخماداً وذكرهم ... يـزيـد نـار ضلوعي نـار إيقـاد
وَجْدي بهم وجد ذات الظمأ حيل بها ... عن وردهـا صـرف رواد ووراد
اشتاقهم فإذا رمت الوصول بهم ... ألفى القواطع عن إلفي بمرصاد
من لي بهم، والنوى تبدي مناقضتي ... وتبـدل الوعـد لي منهم بإيعـاد

هم علتي وروائي كيف لي بهم أنا العليل ولكن أين عُوادي
من بعد بعدهم دار الأساجد لي فهل أرى نشده من بعد إنجاد؟
لله عهدهم ما كان لي كرم كم أكرموني بإسعاف وإسعاد
وكم معاهد أنس لي بأربعهم وفي مها الحسن والحسنى بميعاد
رقّت ورقّت معانيها فمن قمر حيّا بغرته أو شادن شادي
يا طيب عيشي بهم لو أن ساعته تفدى لكان لها عمري هو الفادي
تلك الحياة وهم أرواحنا فإذا ما فارقونا فلا نفع بأجساد
يا ويح نفسي لما حملت من مضض من يوم بدلت من جمع بأفراد
البين يقتلني والصبر يخذلني فمن يصبر يرى في الله أنجادي
من يطلب الثأر من دهري فأسهمه قتلة قلبي بأصماء وأفصاد
فانظر إلى أدمعي تنهيك حمرتها فإنها رشح أحشائي وأكبادي
واعجب لحالي واعجب من تسامره من سابق لكرام العيس أو هادي
واذهب واب في ضمان الله مكتنفاً بحفظه بين إصدار وإيراد
وإن مررت بدار القوم ثانية فقف وصف مخبري للرائح الغادي
واقرأ سلامي على تلك الخيام كما يرضى الوفاء بتكرير وترداد
وقل غريبكم في الغرب ناء به يا حادي الركب قف بالله يا حاد

ولعله نظم هذه القصيدة وهو بعيد عن بلاده التي فارقها سنة 640، توفي رحمه الله، ببجاية في عشر الخمسين وستمائة.

قصد «بجاية» في تلك الفترة أطباء منهم «أبو العباس أحمد بن خالد» من أهل «مالقة». قرأ على شيوخ بلده الفقه والعربية والطب والحكمة. ورد بجاية وجلس للإقراء بها، وقد قرأ عليه «الغبريني» في بدء أمره علم المنطق، وقرأ عليه بعض أصحابه الإشارات والتنبيهات «لأبن سينا» توفي ببجاية في عشر الستين وستمائة.

ومنهم «أبو القاسم محمد بن أحمد الأموي» المعروف «بابن اندراس»

من أهل مرسية، وصفه «الغبريني» بالفقيه الحكيم. قصد بجاية في عشر الستين وستمائة واستقر بها، اشتغل هناك بالطب وحذق فيه، فأصبح من بعض خواص الأطباء. كان متولياً لطب الولاة ببجاية، فوصل خبره إلى «المستنصر»، فأمر بإحضاره، وقربه وجعله أحد أطبائه. وله رجز نظم فيه بعض الأدوية واستكمله وهو ببجاية. وعلاوة على حذقه في الطب كان متميزاً في العربية. حضر «الغبريني» لإقرائه قانون «أبي موسى الجزولي»، «فكان بحثه فيه جيداً». وقد اتصل بالقاضي «أبي عبد الله بن يعقوب» عند مروره ببجاية آتياً من طنجة والفقيه الحكيم «أبي بكر بن القلاس». توفي في تونس سنة أربع وسبعين وستمائة.

ومنهم «أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان» الخزرجي الشاطبي. كان من بيت علم وقضاء، فلا نتعجب إذاً من أن يكون فقيهاً قاضياً. كان له مشاركة في علوم الدين وقوانين الطب. قضى ببجاية. ثم انصرف إلى تونس فولي قضاء عاصمتها. توجه من قبل ملك إفريقية رسولاً إلى صاحب الديار المصرية، فنجح في مهمته.

ومن الأندلسيين من استوطن جزائر بني مزغتة «كأبي الحسن علي محمد بن شعيب الأشولي». كان نحوياً لغوياً أديباً حافظاً أخذ عنه «عبد الواحد محمد بن حبيب» اللخمي الجزائري وطلبة كثيرون. ومن أدبه قوله في الحض على طلب العلم:

إن العلوم لأشخاص معينة	فلا يراهن إلا لب من درسا
من شرد النوم والظلماء عاكفة	فكيف يضاهيه الذي نعسا
فادرس تسد وتكن في الناس معتليا	ورح هديت لنور العلم مقتبسا

وقوله في الزهد:

فما الفوز إلا بصفو الضمير	ودين متين وترك المناهي
وتقوى القلوب ورفض الذنوب	ودفع العيوب حذار النواهي

وقوله في القناعة:

لا تسأل الناس حب خردلة وسل إلهاً براك من طين
فرزقه للعباد ذو سعة ليس بفان ولا بممنون

وقوله يصف حاله حين دخل الجزائر:

يا ويح ناء شط عن أحبابه وسقاهُ طول البعد مر شبابه
قذفت به أيدي النوى في معشر ولم يحفلوا طراً بعظم مصابه
يمسي ويصبح هائماً متحيراً قد عضه صرف الزمان بنابه
ما زال يجعله دريئة سهمه حتى غزاه بشريه وبصابه
أم الجزائر كي يراه ملطفاً يكسو الذي يشكوه من أوصابه
فإذا الأنام غدوا بثدي واحد في كل قطر آهل بسحابه
لا يطمع السبروت فيما عنده كالقفر لا يرجى شراب سرابه
حقاً لقد ذهب الكرام من الورى لم يبق إلا كل جلف حبابه
إن كان جار علي دهر جائر فالدهر أغرى باللبيب النابه
ورفلت في سمل الثياب فلم يضع شرف المهند مسترث قرابه
حر كساه العدم ثوب خموله وكأنما قارون في أثوابه

توفي رحمه الله، سنة 536.

و«أحمد بن عبد الله بن خميس بن معاوية بن نصرون» الأزدي البلنسي الفقيه الأديب هو الآخر غادر بلاده وقصد الجزائر بعدما جال هنا وهناك. تخير سكنى جزائر بني مزغنة، وأقام بها يبث العلم إلى أن توفي رحمه الله سنة 547.

أما «أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري» فولد ببجاية، ولكن أصله من «أبدة»، وجده «عمر» هو الواصل إلى بجاية مستوطناً، أخذ عن علماء هذا البلد واقتبس من أنوارهم، وتضلع من أصول الدين والفقه والمنطق ومن الكتابتين الشرعية والأدبية. سمع «الغبريني» «أبا المطرف بن عميرة» يقول عنه: «أما الكتابة الأدبية فنحن

فيها وإياه على نسق، وأما الشرعية فقد انفرد بها عن الناس»، نعم حصل على شهرة واسعة في الشريعة فعرض عليه قضاء بجاية فامتنع منه، ووصل إليه كتاب «المستنصر» الحفصي من تونس بقضاء قسنطينة، فاعتذر وتلطف في الاستعفاء عنه.

وقد سمع «الغبريني» كثيراً من أهل العلم يثنون عليه وقال هو نفسه عنه: «إنه لم يكن في وقته بمغربنا الأوسط مثله».

ومن شعره هذه القصيدة:

سفرت على وجه الجميل فأسفرا ... وبدا هلال الحسن منها مقمرا
ودنت فكاشفت القلوب بسرها ... وسقت شراب الإنس منها كوثرا
ورأيتها في كل شيء أبصرت ... عيناي حتى عدت كلي مبصرا
وسمعت نطق الناطقين فكلهم ... بالحمد والتسبيح عنها أخبرا
وبها ركبت زواخرا من حبها ... ولبست سر السر ثوباً أحمرا
وبها فنيت عن الفناء وغصت في ... ماء الحياة مسرمداً ومدهرا
في الماء يظهر كل شيء كائن ... وبه يرى مثل الوجود مصدرا
وأنا أرى في كل ماء ماءه ... وأرى وراء الماء ماء آخرا
فإذا وصلت به إليه فراجعن ... تلك المنازل نقله متنكرا
فمتى أردت إبانة عن بعض ما ... في القلب من سر مصون عبّرا
فارفع به ظُلم الحجاب فرفعها ... تجنيك من غرس المنى ما أثمرا
فتراه حين تراك ذاتاً رافعاً ... للبس حتى لا ترى إلا العرا
فهناك يفتح بابه ولطالما ... قد كان دونك مبهماً متعذرا
إفصاح قولي لا يفي بمواجدي ... وبيانه لا يستقل بما جرى
لو كان نسر الله يكشف لم يكن ... سراً ولكن لم يكن ليذكرا

وأبدى «الغبريني» رأيه في هذه القصيدة فقال: «هذه القصيدة حسنة قدسية المعنى». توفي أبو عبدَ الحق رحمه الله في الثامن

والعشرين لربيع الأول[1] من عام خمسة وسبعين وستمائة، ودفن بخارج باب المرسى، «وكان له مشهد لا يكون إلا لمثله»[2].

وكان حظ تلمسان من المهاجرين الأندلسيين وافراً أيضاً. فمن الوافدين عليها من الأدباء «أبو بكر بن خطاب»، وذلك على إثر فتنة وقعت بمرسية في أواسط القرن السابع. قد أخبرنا «العبدري» في رحلته أن «أبا بكر محمد بن خطاب» لقي ببلده الأستاذ النحوي «أبا بكر بن محمد المعافري وأبا علي الحسن بن عبد الرحمان الكناني الشهير بالرفاء وأبا بكر محمد بن محرز الزهري، وأبا المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي، والقاضي أبا عيسى محمد بن أبي السداد، وأبا بكر ابن جهور الأزدي، وأبا العباس الطرسوني، وأبا عبد الله السمار، وأبا عبد الله بن فتح، وأبا عبد الله النجار»[3]. كان «أبا بكر بن خطاب» فقيهاً شاعراً ناثراً. فجاء في الإحاطة عن صلة «ابن الزبير» أن «أبا بكر بن خطاب» كان كاتباً بارعاً شاعراً مجيداً مشاركاً في أصول الفقه وعلم الكلام وغيرهما. ويؤيد هذه التحلية تحلية «يحيى بن خلدون» حيث يقول في بغية الرواد: «كان من أبرع الكتاب خطاً وأدباً وشعراً ومن أعرف الفقهاء بأصول الفقه». أما «الحافظ التنسي» فقال في الدرر والعقيان: «إنه خاتمة أهل الآداب المبرز في عصره على سائر الكتاب». وقد أثنى عليه «العبدري» في رحلته وأتانا بأبيات من شعره وهذه الأبيات والأبيات التالية تدل ـ على قلتها ـ على مكانته في ميدان القريض. فقال في «ابن خميس» التلمساني:

رقت حواشي طبعك ابن خميس ... فهفا قريضك لي وهاج رسيسي
ولمثله يصبو الحليم ويمتري ... ماء الشؤون به وسير العيس
لك في البلاغة، والبلاغة بعض ما ... تحويه من أثر محل رئيس

---

(1) في نيل الابتهاج: ربيع الأخير.
(2) الغبريني، صـ: 35 من عنوان الدراية.
(3) صـ: 16، 17.

نـظم ونثـر لا تبـارى فيهمـا   عـززت ذاك وذا بعلم الطوسي

فإن ما وصل إلينا من كتابته وترسله ينم عن باع طويل في هذا اللون من الأدب، ولا يستغرب من ذلك، فقد كان رئيس ديوان الرسائل السلطانية بغرناطة. «ولما دخل تلمسان جعله ملكها (يغمراسن بن زيان) صاحب القلم الأعلى»[1].

كانت الحركة الأدبية قوية وقتذاك بتلمسان، فزادت قوة بأثر «أبي بكر بن خطاب»، وغيره من النزلاء الأندلسيين، فقد حدثنا «عبد الرحمان ابن خلدون» عن أثر رسائله في المغرب فقال: «وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوقل وحفظ». ففهم من هذا القول أن «أبا بكر» كان قدوة للكتاب في المغرب يحاكون ديباجته في رسائلهم. فقد تـوفي، رحمه الله، بتلمسـان يوم عاشوراء سنة 636 على قول «يحيـى بن خلدون» و«ابن مريم» أو بعد الثمانين وستمائة على قول «لسان الدين بن الخطيب» الذي هو أرجح لأن «ابن خطاب» كان حياً في هذه السنـة. فقد أفـاد هؤلاء النزلاء بمواهبهم وثقافتهم اللامعة أسواق العلم والأدب والفنون، فراجت رواجاً لم ير من قبل ببجاية وبتلمسان وبمدن أخرى. كيف لا والأندلس، على الرغم من الضعف السياسي الذي كانت عليه في عهد ملوك الطوائف، كانت تزخر بالعلماء والأدباء وأهل الفن، إذ كان كل أمير يحاول أن يتشبه بالخلفاء في بسط اليد وتقريب الشعراء.

وقد وجد هؤلاء النزلاء أعلاماً جزائريين في الميدان الثقافي في مثل «أبي علي المسيلي» و«ابن أبي نصر» وغيرهما.

وقد هاجر في تلك الفترة رجال من الجزائر. فانتقل «أبو الحسن زين الدين أبو زكريا يحيـى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي» إلى المشرق، وكان أحد أئمة عصره مبرزاً في العلوم العربية وشاعراً محسناً

(1) التنسي: الدر العقيان صـ: 13.

كثير الحفظ. دخل الشام واستقر بدمشق فسمع بها «لابن عساكر»، ولم يلبث أن أصبح أستاذاً يقرىء النحو، وانتقل إلى القاهرة بأمر الملك الكامل وتصدر هناك لتدريس الأدب العربي بجامع القاهرة العتيق، فأقبل عليه جمهور المتأدبين يأخذون عنه. فأتحف معاصريه بالألفية في النحو المشهورة باسم «الدرة الألفية في علم العربية» وللنحاة عليها شروح. وشرح لأبيات «سيبويه» نظماً كما نظم الجمهرة «لأبن دريد» في اللغة، ونظم كتاباً في العروض وكتباً أخرى، وقد انتقل في طلب العلم إلى الأندلس.

وقد انتقل في طلب العلم إلى الأندلس «محمد بن أبي بكر بن السطاح»، ودخل «إشبيلية» ثم «مرسية». ولقي بهما الأئمة وأصبح أستاذاً وتصدر للإقراء سنة 618 «بمرسية».

وهناك شخصية أخرى جزائرية تتمثل في «ابن السكيت». راح يتجول في الأندلس ويأخذ عن أئمتها مثل «ابن العربي وأبي موسى الجزولي».

أما ابن مناس فقد ذهب إلى تونس وقد شخص أبو موسى الجزولي إلى الجزائر سنة 580هـ (1184م) فقصده ابن مناس ولازمه ملازمة ظله.

و«أبو زيان بن مزنى» الفزازي البسكري انتقل إلى مصر بعد أن لازم الأئمة مثل «أبي الحسن على التوزري وابن عرفة وعبد العزيز بن يحيى الغساني البرجي ومحمد الخطيب وعيسى. بن محمد الغبريني» وفي بلاد الكنانة اتصل بالشيخ «ابن حجر» فاستفاد كل منهما من علم صاحبه. فنبغ في التاريخ.

فكان الجزائريون، كما ترى، يرحلون شرقاً وغرباً طلباً للمعرفة فتفعل فيهم فعلها مؤثرات البيئات الاجتماعية والثقافية التي يقضون فيها ما شاء الله من الأيام، ويرجعون متبحرين في شتى الفنون. فبرحلتهم

وبهجرة الأندلسيين وغيرهم إلى بلادنا نفقت سوق الثقافة في الجزائر الحفصية. فكل من بجاية وقسنطينة وعنابة ووهران كانت زاخرة برجال العلم والأدب. قال أبو علي المسيلي: «أدركت بجاية ما ينيف على تسعين مفتياً... فما ظنك بالأدباء والنحاة والمحدثين وغيرهم»؟

الفصل الثالث عشر

الثقافة بالجزائر على عهد الزيانيين

1) الشخصيات التي نبغت في هذا العصر ورحلت شرقاً وغرباً، ابن خميس، ابنا الإمام، العبدري الآبلي، ابن مرزوق، المليكشي.
2) اتصال لسان الدين بن الخطيب وابن زمرك بالجزائريين.
3) ملكة التعليم في الجزائر وموقف ابن خلدون منها.
4) الطب بتلسمان.
5) نزلاء تلمسان من الاندلسيين قبيل أخذ غرناطة.
6) هجرة الأندلسيين عند سقوط غرناطة في يد الأسبان سنة 1492 : ابن الحداد الوادي آشي.
7) العلاقات التجارية مع المغرب والبلاد الاستوائية وأوروبا.
8) الفنون.

عندما أعلن الوالي الحفصي استقلاله بتونس[1] استقل بنو عبد الواد بتلمسان[2] وجهز على المغرب الأقصى بنو مرين[3].

وكان الحفصيون والزيانيون والمرينيون يتنافسون في نشر الثقافة. فمن الطبيعي أن تصبح تلمسان في مصاف حواضر العلم والأدب بالعالم الإسلامي حينئذ وأن تنجب كبجاية وقسنطينة وغيرهما من مدن الجزائر الحفصية شخصيات أدبية وعلمية يكون لها صيت في الميدان الثقافي وشهرة حسنة في الأوساط الإسلامية.

ومن تلك الشخصيات شخصية فذة تمثل في أبي عبد الله بن عمرو ابن خميس» التلمساني. كان أديباً ناثراً شاعراً. كتب «لعثمان الأول بن يغمراسن» سنة 681هـ (1282م)، ولكنه رغب عن الوظيفة وأراد أن يسافر. فغادر تلمسان سنة 693هـ (1294م)، وأم المغرب الأقصى وزار عواصمه العلمية، ومدح رؤساء سبتة من «بني العزفي». ومن ثم أبحر قاصداً الديار الأندلسية. فدخل المرية سنة 702هـ (1303م). فنزل فيها في كنف القائد «أبي الحسن» من خدام الوزير «ابن الحكيم». فأكرم وفادته وآثره. وجال شاعرنا في الأندلس وقعد لإقراء العربية بحضرة غرناطة أواخر سنة 703هـ (1304م). فطار بها صيته وضمه الوزير «ابن الحكيم»

(1) سنة 627هـ 1229م.
(2) سنة 633هـ 1262م
(3) سنة 668هـ 1269م.

إلى مجلسه، وأغدق عليه من نعمه. فخلع عليه «ابن خميس» بدوره أثواب نثره وشعره.

لما توجه «التنسي» إلى المشرق اجتمع هناك بقاضي القضاة «ابن دقيق العيد». فقال القاضي: «كيف حال الشيخ العالم «أبي عبد الله بن خميس»؟، وجعل يحليه بأحسن الأوصاف ويطنب في ذكر فضله. فبقي «التنسي» متعجباً وقال: «من يكون هذا الذي حليتموه بهذا الحلي ولا أعرفه ببلدي؟» فقال: «هذا القائل: عجباً لها أيذوق طعم وصالها؟». فقال «أبو إسحاق»: «إن هذا الرجل ليس هو عندنا بهذه الحالة التي وصفتم، إنما هو عندنا شاعر فقط». فقال القاضي: «إنكم لم تنصفوه وإنه لحقيق بما وصفناه». وأخبر «الآبلي» «أبا عنان» بأن «ابن دقيق» كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة تعلو موضع جلوسه للمطالعة، وكان يخرجها من تلك الخزانة ويكثر تأملها والنظر فيها. وقال «الآبلي» أيضاً: «لقد تعرفت أنه لما وصلت هذه القصيدة إلى قاضي القضاة «العيد» لم يقرأها حتى قام إجلالاً لها. وكان «أبو عنان» كثير العناية بشعر «ابن خميس»، فبقي هذا في كنف الوزير «ابن الحكيم» إلى أن توفي بغرناطة قتيلاً ضحوة يوم عيد الفطر سنة ثمان وسبعمائة هـ (14 آذار 1309م) إثر انقلاب حكومي أودى بصديقه «ابن الحكيم».

نبغ في عهد أبي حمو ابنا الإمام. ارتحلا إلى تونس ثم وليا وجههما شطر المغرب الأقصى، واجتمعا هناك بشيوخ فاس «كالسطي والطنجي واليفرني» وتلامذة «ابن زيتون» والشيخ «الدكالي». ثم قصدا المشرق سنة 720هـ (1320م)، فلقيا هناك أكابر العلماء: «علاء الدين القوني والجلاني القزويني» صاحب التلخيص في البلاغة، واجتمعا بشيخ الإسلام «تقي الدين بن تيمية»، فناظراه وظهرا علبه. وعادا من المشرق، وقد اشتهرا بالبحث في العلم حتى صارا يعرفان بالإمامة والاجتهاد. لما ملك «أبو الحسن علي المريني» تلمسان سنة 737هـ، استدعاهما، وأدنى مجلسهما، ورفع محلهما من أهل طبقتهما، وأجمل مجلسه بهما. ثم حضرا معه واقعة

«طريف» سنة 740هـ (1340م). وعادا إلى بلدهما وقضيا ما بقي لهما من العمر معززين مكرمين من طرف «أبي حمو».

وهناك شخصية أخرى تتمثل في «أبي عبد الله محمد العبدري الآبلي». اشتغل بالمعقولات فأصبح فيها واحد عصره، وعكف الناس عليه في تعلمها. لما استولى «يوسف أبو يعقوب» المريني على تلمسان استخدمه. فكره ذلك وقصد البقع المقدسة آخر القرن السابع الهجري. فدخل مصر ولقي فيها «ابن دقيق العيد» ، قاضي القضاة و«ابن الرفعة والتبريزي» وغيرهم من أهل المعقول. ووصل إلى الشام والعراق، ثم رجع إلى مسقط رأسه بعد أداء فريضة الحج. وكان السلطان «أبو موسى» الأول قد اتسعت رقعة مملكته، وقد علم أن للآبلي دراية بعلم الحساب، فطلب منه أن يشتغل بأمر الحساب وضبط أموال الدولة، فتفادى الشيخ من هذا الوظيف. ولكن السلطان ألح عليه ثم أكرهه. ففر إلى فاس ونجا من «أبي حمو موسى» وذلك في حدود 710هـ. واختفى هناك عند شيخ التعاليم «خلوف المغيلي» اليهودي. فأخذ عنه التعاليم ومهر فيها. ثم دخل مراكش، وكان بها الإمام «ابن البناء»، فلازمه وتضلع عليه من علم المعقول والتعاليم والحكمة. ثم عاد إلى فاس، فانثال عليه الطلبة . وبهذه المدينة انتشر ذكره وذاع صيته وصار يدعى بعالم الدنيا. لما فتح السلطان «أبو الحسن» المريني تلمسان لقي بها أبا موسى بن الإمام. فذكره له بأطيب الذكر ووصفه بالبراعة في العلوم، وكان السلطان يعتني بجمع العلماء. فاستدعاه من فاس، وأجمل مجلسه به، ونظمه في طبقة العلماء. فعكف على التدريس. وحضر معه وقعتي «طريف والقيروان» . وفي هذه المدة اتصل أهل تونس بالشيخ وانتفعوا به. وبعد مهلك «أبي الحسن» طلبه «أبو عنان» من صاحب تونس فأسلمه. وقدم الشيخ إلى بجاية وأقام بها شهراً قرأ عليه طلبتها مختصر «ابن الحاجب» في الأصول. ثم انتقل إلى تلمسان، فدخل على «أبي عنان» فنظمه في طبقة أشياخه من العلماء. وكان يقرأ عليه إلى أن توفي بفاس سنة 757هـ. ومن أشهر تلاميذه «أبو عنان وعبد الرحمان بن خلدون وأخوه يحيى وابن الصباح والمكناسي والشريف

الرهوني وابن مرزوق الجد وأبو عثمان العقباني وابن عرفة والوالي عباد والشريف التلمساني».

الشريف التلمساني كان مائلاً للنظر والحجة، أصولياً متكلمًا جامعاً لكثير من العلوم العقلية. جال الشريف في أنحاء المغرب العربي. ارتحل في أول الأمر إلى تونس سنة 640هـ، فأخذ عن علمائها. ثم قصد المغرب الأقصى، فأخذ عنه العلم «أبو عنان» وأئمة كولده و«الشاطبي وابن زمرك وإبراهيم الثغري وابن خلدون وابن عتاب وابن السكاك ومحمد بن علي المديوني وإبراهيم المصمودي» وغيرهم. ويشهد له كل من عرفه بوفور العقل والنجابة والتحصيل. فقد أثنى عليه الإمام «عبد السلام والآبلي وابن عرفة وابن خلدون الونشريسي» الذي قال: «إنه كان إماماً في العلوم العقلية كلها منطقا وحساباً وفرائض وتنجيمًا وهندسة وموسيقى وتشريحاً وفلاحة». إن الشيخ «موسى العبدوسي»، كبير فقهاء فاس، كان يبحث عما يصدر عن «أبي عبد الله» من تقييد أو فتوى فيقيده وكان أسن من أبي عبد الله. وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره وأكثرهم تعظيمًا له حتى أن العالم الشهير «لسان الدين بن الخطيب» كلما ألف تأليفاً بعثه له وعرضه عليه وطلب منه أن يكتب عليه بخطه. وكان الإمام المفتي «أبو سعيد بن لب» شيخ علماء الأندلس وآخرهم كلما أشكلت عليه مسألة كاتب الشريف بها وطلب منه بيان ما أشكل مقراً له بالفضل.

ومن الشخصيات البارزة في أواسط القرن الثامن شخصية «شمس الدين أبي عبد الله بن مرزوق» التلمساني. لما بلغ الثامنة عشر ارتحل مع أبيه إلى المشرق، فحج وجاوز وسمع من شيوخ الحجاز. ثم ترك أباه وأم أولاً الشام فمصر. فأخذ عن عدد كبير من علماء المشرق هناك، وسمع من علماء تونس وبجاية وفاس. فبرز في علوم مختلفة وخاصةً في الحديث، وألف فيه أكثر من سواه. قد لقي بتلمسان السلطان «أبا الحسن» المريني محاصراً تلمسان، فضمه وقربه إليه بحيث إنه صار لا يفارقه حضراً وسفراً وحرباً وسلمًا، ورافقه في الحرب في وقعة طريف بالأندلس سنة

740هـ (1340م). واستعمله في الرسالة إلى الأندلس، ثم إلى ملك «قشتالة» في تقرير الصلح، واستنقذ ولد السلطان المأسور يوم «طريف». لما عاد من الديار الأندلسية طلب من «أبي عنان» أن يعفيه من الخدمة فأعفاه. فرجع إلى تلمسان وعليها وقتئذ «أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمان» وأخوه «ثابت» والسلطان «أبو الحسن» بالجزائر وقد حشد هناك. فأرسل «أبو سعيد» «ابن مرزوق» إليه سراً في الصلح. فلما اطلع أخوه «أبو ثابت» على الخبر أنكره على أخيه. فبعث من حبس «ابن مرزوق» فأسر وأودع السجن. لما أطلق سراحه أجيز إلى الأندلس. فنزل على «أبي الحجاج» سلطان غرناطة سنة 752هـ (1351م). فقربه واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء. فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه «أبو عنان» سنة 754هـ (1352م) بعد مهلك أبيه واستيلائه على تلمسان. فنظمه في أكابر أهل مجلسه، ثم بعثه إلى تونس يخطب له بنت السلطان أبي يحيى الحفصي. فردت الخطبة واختفت البنت. فوشي إلى «أبي عنان» أن «ابن مرزوق» كان مطلعاً على مكانها. فسخطه لذلك ورماه في غياهب السجن، إلا أنه أطلق سراحه. ولم يلبث أن رجع إلى السجن إثر انقلاب حكومي سنة 762هـ. وهي النكبة الثالثة. وعند سراحه التحق بتونس ومن هناك قصد المشرق. فرحب به السلطان «الأشرف» وولاه الوظائف العلمية فلم يزل بها ملازماً للتدريس في مدارس شتى إلى أن هلك. وقدتتلمذ له لسان الدين بن الخطيب. وأخذ عنه في البلاط الغرناطي النصري. وكانت بين الرجلين مراسلات اشتملت على شعر ونثر. فقد اشتهر بالخطابة، ولكنها لم تمنعه من أن يقول الشعر الرائق. وإليك مطلع رائيته العصماء التي قالها بين يدي الملك الغرناطي ليلة الميلاد المعظم سنة 763هـ:

قل لنسيم الفجر لله بلغ خبري[1]

ولما شرح «ابن مرزوق» كتاب الشفاء للقاضي «عياض» طلب أهل العدوتين نظم مقطوعات تتضمن الثناء على الكتاب المذكور. فأجابه الكثير

(1) تجد ما بقي من القطعة في تاريخ الأدب الجزائري صـ 302.

نذكر من بينهم «ابن الخطيب وابن زمرك». فقال الأول ثلاث قصائد بعثها إليه. إليك مطلع كل منها:

شفاء عياض للصدور شفاء　　　فليس بفضل قد حواه خفاء

أأزاهـير ريـاض　　　أم شفـاء لعيـاض

حيث يا مختط سبت ابن نوح　　　بكل مزن يغتدي أو يروح

وقال الثاني قصيدة مطلعها:

ومسرى ركاب للصبا قد ونت بـ　　　ـه نجائب سحب للتراب نزوعها

وأنشد «الزمخشري» في كشافه يعرض بأهل السنة والجماعة وينصر مذهبه وكان معتزلي الاعتقاد:

لجماعة سموا هواهم سنة　　　وجماعة حمر لعمري موكفه
قد شبهوا بخلقه وتخوفوا　　　شنع الورى فتستروا بالبلكفه

وقد تصدى للرد عليه من أهل السنة جم غفير منهم الخطيب بن مرزوق.

فقال:

وجماعة عرفت لعمري بالسفه　　　وتمسكت بضلال أهل الفلسفه
عدلت على النهج القويم فلقبت　　　عدلية وعدولها عن معرفه
ضلت وقالت لن يرى رب الورى　　　يوم الجزاء فألزمت نقي الصفه
هذا وكم من زلة وكم　　　من مذهب ذهبت به متلفه
وكذاك أسلمت الأمور لنفسها　　　هيهات تنقذ نفسها من متلفه
كيف السبيل لصرفها عن غيها　　　والعدل يمنع صرفها والمعرفه

فإن «ابن مرزوق» بسؤاله «والزمخشري» بانتقاده أفادا الأدب إذ استجليا مكنون قرائح الشعراء وبعثا فيهم نشاطاً، فجاءوا بشعر غزير.

والمليكشي الأديب الفقيه هو الآخر رحل إلى الأندلس وأقام طويلاً «بمالقة»: ورحل إلى المشرق حاجاً. ثم عاد واستوطن تونس. قلده بها السلطان الحفصي خطة الكتابة. وتوفي بتونس.

كان «أبو حمو موسى»، ملك تلمسان، كريم الأخلاق يتبرع في كل سنة على أهل الأندلس بالمال والخيل والزرع، ويرى ذلك من الجهاد في سبيل الله تحريراً لأرض الأندلس، مسقط رأسه، من أزمة الأسبان. وكانت له مواقف مشرفة في إنقاذ أهل الأندلس من الهلاك. فقد وجه إليهم سنة 763هـ (1361م) خمسين ألف قدح من الزرع. وقد شكره على ذلك «لسان الدين بن الخطيب» الوزير الشهير الطائر الصيت المثل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها»[1]. تتلمذ لكثير من الفضلاء منهم المحدث «أبو الحسن» التلمساني والقاضي «أبو عبد محمد المقري» التلمساني المولد والمنشأ والمقبر قاضي الجماعة بفاس، وعن الخطيب الرئيس الرواية «أبي عبد الله بن مرزوق». وله تآليف عدة. قال «ابن الأحمر»: «هو شاعر الدنيا وعلم المفرد والثنيا، وكاتب الأرض إلى يوم العرض». تقلد الكتابة أيام السلطان «أبي الحجاج» في أخريات دولته بعد شيخه «ابن الجياب». ولما توفي «أبو الحجاج» ازدادت منزلة «ابن الخطيب» عند ابنه «أبي عبد الله» إلى أن كانت عليه الدائرة. فقبض على «ابن الخطيب» وعلى أملاكه. إلا أنه تخلص من هذه النكبة بشفاعة المستعين بالله «أبي سالم إبراهيم» ابن السلطان الشهير «أبي الحسن» المريني صاحب المغرب الأقصى، وكان تحريك عزائم السلطان «أبي سالم» للشفاعة فيه بسعاية الحاجب الرئيس الخطيب «أبي عبد الله بن مرزوق». ولما تخلص «ابن الخطيب» من هذه الأنشوطة لحق بسلطانه «أبي عبد الله» وورد صحبته المغرب واستقر «بسلا» تحت الجراية التامة. لما رجع «أبو عبد الله» إلى غرناطة عاد هو في صحبة أولاده. فألقى إليه مقاليد رئاسته وأزمة سياسته ورقاه إلى الذروة التي لا فوقها. ولكن «لسان الدين»

(1) أزهار الرياض صـ: 186 للمقري.

سئم الخدمة وتسخط النعمة وأضمز الفرار عندما سمع بأن الملك استوثق للسلطان «أبي فارس بن أبي الحسن» المريني وأنه ملك تلمسان. فأظهر الذهاب إلى تفقد أحوال بعض الثغور. فكان آخر عهد الأندلس به[1].

وكثيراً ما كان يوجه إلى «أبي حمو» بالأمداح. ومن أحسن ما وجه له قصيدة سينية فائقة وذلك عندما أحس بتغير سلطانه عليه، «فجعلها مقدمة بين يدي نجواه لتمهد له مثواه وتحصل له المستقر إذا ألجأه الأمر إلى المفر».[2] وبما أن هذه القصيدة طويلة نكتفي بذكر مطلعها:

أطلعن في سدف الفروع شموساً ضحك الظلام لها وكان عبوسا[3]

وقد وصل هذه السينية بنثر بارع يخاطب به السلطان «أبا حمو». إليك منها فقرة:

«هذه القصيدة أبقى الله أيام المثابة المولوية الموسوية ممتعة بالشمل المجموع والثناء المسموع والملك المنصور والمجموع، نفثة من باح بسر هواه، ولبى دعوة الشوق العابث بلبه، وقد ظفر بمن يهدي خبر جواه إلى محل هواه...»

ومن مقطوعاته البديعة في مخاطبة هذا السلطان «أبي حمو» قوله يشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس.

لقد زار الجزيرة منك بحر يُمِدُّ فليس تعرف منه جزرا
أعدت لها بعهدك عهد موسى سميك فهي تتلو منه ذكرا
أقمت جدارها وأفدت كنزاً ولو شئت اتخذت عليه أجرا

---

(1) أزهار الرياض، جـ 1 صـ: 193

(2) أزهار الرياض، جـ 1 صـ: 249.

(3) قال الحافظ التنسي: إن لسان الدين حذا في هذه القصيدة السينية حذو أبي تمام في قصيدته التي أولها:

أقشيب ربعهمُ أراك دريسا تَقْري ضيوفك لوعةً ورسيسا

وقوله:

وقالوا الجزيرة قد ضوحت ... فقلت: غمام الندى تنتظر
إذا وكفت كفُّ موسى بها ... غماماً يعود الجناب الخضر

وفي آخر سنة أربع وسبعين وجه إلى السلطان «أبي حمو» أبياتاً لزومية في غرض الهناء وهي:

وقف الغرام على ثناك لساني ... رعياً لما أوليت من إحسان
فكأنما شكري لما أوليته ... شكر الرياض لعارض النسيان
أنا شيعة لك حيث كنت، قضية ... لم يختلف في حكمها نفسان
ولقد تشاجرت الرماح فكنت في ... ميدان نهرك فارس الفرسان
ورويت غر مآثر أسندتها ... لعلاك بين صحائح وحسان
ولأنت أولى بالتشيع شيمة ... لم تتفق لسواك من إنسان
الشمس أنت قد انفردت وهل يرى ... بين الورى في مطلع شمسان
جبرت بجبرك كل نفس حرة ... وشدا بشكر الله كل لسان
وبدت سعودك مستقيماً سيرها ... وعلت ففرّ أمامها النحسان
فاستقبل السعد المعاود سافراً ... عن أي وجه للرضا حُسّان
وابغ المزيد بشكر ربك ولتثق ... بمضاعف الأنعام والإحسان
فالشكر يقتاد المزيد ركائباً ... تنتاب بابك منه في أرسان
ثم السلام عليك يُزرى عرفه ... طيباً بعرف العود والبَلَسان

لما فتح «أبو سالم» تلمسان كتب له لسان الدين بن الخطيب وهو «بشالة»[1]، كتاباً يهنئه يوم الخميس 17 شعبان 761 فقال: «مولاي، فتاح الأقطار والأمصار، فائدة الزمان والأعصار، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار، قدوة أولى الأيدي والأبصار، ناصر الحق عند قعود الأنصار».
وهي طويلة وأردفها بقصيدة بديعة مطلعها:

(1) النفح، جـ 6 صـ: 337

أطاع لساني في مديحك إحساني وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان[1]

وها هو يصف تلمسان:

«تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ووضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجه، وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه، عبادها يدها وكهفها كفّها، وزينتها زيانها، وعينها أعيانها، هواها المقصور بها فريد. وهواؤها الممدود صحيح عتيد، وماؤها بَرود صريد، حجبتها أيدي القدرة عن الجنوب، فلا نحول فيها ولا شحوب، خزانة زرع، ومسرح ضرع، فواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرها فريدة الانتفاع، وبرانسها رقاق رفاع، إلا أنها بسبب حب الملوك، مطمعة للملوك، ومن أجل جمعها الصيد في جوف الفرا، مغلوبة للأمراء، أهلها ليست عندهم الراحة، إلا فيما قبضت عليه الراحة، ولا فلاحة، إلا لمن أقام رسم الفلاحة، ليس بها لسع العقارب، إلا فيما بين الأقارب، ولا شطارة، إلا فيمن ارتكب الخطارة».

ومن مخاطباته للحاجب ابن مرزوق هذه:

«سيدي، بل مالكي، بل شافعي، ومنتشلي من الهفوة، ورافعي وعاصمي عند تجويد حروف الصنائع، ونافعي الذي بجاهه أجزلت المنازل قراي، وفضلت أولاي، والمنة لله أخراي، وأصبحت وقول الحسن هجيراي:

علقت بحبل محمد آمنت به من طارق الحدثان
تغطيت من دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسأل الأيام ما أسمى مادرت وأين مكاني ما عرفن مكاني

وصلت مكناسة، حرسها الله تعالى، تحت غيث حذاني حذو نداك، وسحائب لولا الخصال المبرة قلت يداك، وكأن الوطن لاغتباطه

(1) المصدر السابق.

بجواري، وما رآه من انتياب زواري، أو عزالي بهت يقطع الطريق، وأطلق يده على التغريق، وإشراق القوافل مع كثرة الماء بالريق، فلم يسمع إلا المقام أياماً، قعوداً في البر وقياماً، واختياراً لضروب الإنس واعتياماً، ورأيت بلدة معارفها أعلام، وهواؤها برد وسلام، ومحاسنها تعمل فيها ألسنة وأقلام، فحيا الله سيدي، فلكم من فضل أفاد، وأنس أحياه وقد باد، وحفظ منه على الأيام الذخر والعتاد، كما ملكه زمام الكمال فاقتاد، وأنا أتطارح عليه في صلة تفقده، وموالاة يده، بأن يسهمني في فرض مخاطباته مهما خاطب معتبراً في هذه الجهات، ويصحبني من مناصحته بكؤوس مسرة، يعمل فيها هاك وهات، فالعزّ بعزّه معقود، والسعد بوجوده موجود، ومنهل السرور بسروره مورود، والله عز وجل يبقيه الدهر، ويجعل حبه وظيفة السر، وحمده وظيفة الجهر، ويحفظ على الأيام من زمنه زين الدهر، ويصل لنا تحت إيالته العام بالعام والشهر بالشهر آمين آمين»[1].

فقال «لسان الدين» الشعر الكثير وأتى بالنثر الغزير، كان فيما عرفنا من هذا الشعر وهذا النثر أديباً متفنناً. وله مؤلفات ناطقة ببعد غوره وانفساح ذرعه فهي على حسب «المقري» تربو على الستين مؤلفاً منها الإحاطة والإشارة وبستان الدول، وله موشحات منها هذا:

جادك الغيث إذا الغيث همى   يا زمان الوصل بالأندلس

ومات رحمه الله، قتيلاً سنة 779هـ (1374م).

بعد فراره من غرناطة تولى مكانه «أبو عبد الله محمد بن يوسف الصريحي» المعروف «بابن زمرك». أصل هذا الكاتب الشاعر من شرق الأندلس، وسكن سلفه بالبيازين من غرناطة وبها ولد رابع عشر شوال من عام ثلاثة وثلاثين وسبع مائة. اشتغل أول نشأته بطلب العلم والدؤب على القراءة، وأخذ نفسه بملازمة حلقات التدريس. أخذ العربية

(1) نفح الطيب، جـ 8 صـ: 310 وأزهار الرياض، جـ 1 صـ: 286.

أدرها ثلاثاً من لحاظك واحبس فقد غال منها السكر أبناء مجلس
إذا ما نهاني الشيب عن أكواس الطلا تدير علي الخمر منها بأكؤس
عذيري من لحظ ضعيف وقد غدا يُحكِّمُ منا في جسوم وأنفس
وروض شباب ماس غصنُ قوامه وفتح فيه اللحظ أزهار نرجس
وما زال ورد الخد وهو مُضعَّف يُعير أقاح الثغر طيب تنفس
وكم جال طِرف الطَّرف في روض حسنه يقيده فيه العذار بسندس
أما وليالي الوصل في روضة الصبا ومألف أحبابي وعهد تأنسي
لئن نسيت تلك العهود أحبتي فقلبي عهود العامرية مأنسي
وحاشا لنفسي بعدما افتر فَوْدُها من الشِّيب عن صبح به متنفًّس
وألبسها ثوب الوقار خليفة «به لبس الإسلام ملبس»
وجدد للفتح المبين مواسمًا أقام بها الإيمانُ أفراحَ معرّس
وأورثه العلياء كل خليفة نماه إلى الأنصار كلُّ مُقدَّس
فيا زاجر الأظعان وهي ضوامرٌ بغير الفلا والوحش لم تتأنس
إذا جئت من دار الغنى بريّه مُناخ العلا والعز فانزل وعرِّس
فإن شئت من بحر السماحة فاغترف وإن شئت من نور الهداية فاقبس
أمولايَ والى السعدُ منك ولاية أنارت بها الأكوانَ جذوةُ مُقْبس
إذا شئت أن ترمي القِصيّ من المنى تدور لك الأفلاك مرفوعة القسي
فترمي بهم من سعودك صائبٍ سديدٍ لأغراض الأماني مُقَرْطِس
أهنيك بالإبلال ممن شفاؤه شفاؤك فاسكر من تلاقي وقدس
ودعني أرِدْ يمناك فهي غمامة تُبَخِّلُ صوب العارض المتبجس
أقبل منا راحة إثر راحة أتتك بها الركبان من بيت مقدس
ومن نَسَبَ الفتحَ المبين ولادة إليه بغير الفخر لم يتأسّس
فيأيها المولى الذي بكماله خلائف هذا العصر في الفجر تأْتسي
(لآمنت) موسى عن عوادي سَميّه ولولاك لم يبرح بخيفة مُوجِس

عن رحلة الوقت في فنها[1]: «أبي عبد الله بن الفخار» ثم عن إمامه القاضي الشريف إمام الفنون اللسانية «أبي القاسم محمد بن أحمد الحسيني»، والفقه والعربية عن الأستاذ المفتي «أبي سعيد بن لب»، واختص بالفقيه المحدث «أبي عبد الله بن مرزوق» الوافد على «أبي الحجاج» في عام ثلاثة وخمسين وسبع مائة وإليه جنح وإياه قصد عند تغربه إلى المغرب في دولة «أبي سالم» المريني، وأخذ علم الأصلين عن الحافظ الناقد «أبي منصور الزواوي»، وبرع في الأدب أثناء الانقطاع وأول الطلب «لأبي عبد الله بن الخطيب». وقرأ بعض الفنون العقلية بفاس على الشريف «أبي عبد الله التلمساني» قدوة الزمان. وحصلت له الإجازة والتحديث بقاضي الجماعة «أبي البركات بن الحاج» وبالخطيب البليغ «أبي عبد الله اللوشي» وبالخطيب «أبي عبد الله بن بيش العبدري». ولقي القاضي الحافظ «أبا عبد الله المقري» عندما قدم من الأندلس وذاكره، وروى عن المحدث «أبي الحسين التلمساني». قال «المقري» في أزهار الرياض[2]: «وقد رأيت بتلمسان كتاباً ملوكياً من تأليف بعض سلاطينها بني الأحمر وهو حفيد «ابن الأحمر» المخلوع سلطان الأندلس، الذي كتب له «ابن زمرك» المذكور بعد « ابن الخطيب» وأورد فيه كلام «ابن زمرك» وسماه: «البقية والمدرك من كلام ابن زمرك» هو سفر ضخم، ليس فيه الأنظمة فقط». هذا دليل على أن «ابن زمرك» كانت له شاعرية فياضة، ولا نذكر من شعره الغزير إلا ما يتعلق بالموضوع الذي نبحث فيه حول علاقة الجزائر بالخارج في ميدان الثقافة. فقال «المقري»: «من قصائده[3] التي يود الصباح سناها والنسيم اللدن رقة معناها يهنىء مولانا الجد، رضي الله عنه، عند وصول خالصة مقامه، وكبير خدامه، القائد «خالد»، رحمه الله تعالى، من تلمسان بالهدية، وتجديد المقاصيد الودية ووافق استئناف راحة من الذات العلية، ومن بعض فروع دوحتها الزكرية:

(1) أزهار الرياض، جـ 2 صـ: 9 (2) جـ 2 صـ: 11.

(3) ابن زمرك: أزهار الرياض، جـ 2 صـ: 40، ونفح الطيب، جـ 10 صـ: 38.

بعثت بميمون النقيبة في اسمه		خلود لعز ثابت متأسَّس
فجاء بالمال العريض هديةً		بها الدين أثوابَ المسرة يكتسي
وشفعها بالصافنات كأنها		وقد راق مرآها جآذر مَكْنِس
تَنُصُّ من الأشراف جيدَ غزالة		وترنو من الإيجاس عن لحظ أشوس
لك الخير موسى مثل موسى كلاهما		بغير شهار الود لم يتلبس
فلا زلت في ظل النعيم وكل من		يعاديك لا ينفك يشقى بأبؤس
عليك سلام مثل حمدك عاطر		تنفَّس وجه الصبح عنه بَمعْطِس»

فقد نوه «المقري» بشعر «ابن زمرك» في أزهار الرياض قائلاً: شعره مترام إلى هدف الإجادة، خفاجي النزعة، كلف بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة غزير المادة.

وهذه السينية تؤيد قول «المقري» فيه كما تؤيد القصيدة التي قالها في مدح كتاب الشفاء امتثالاً لطلب الفقيه «أبي عبد الله بن مرزوق» عندما شرع في شرحه.

خصه سلطان غرناطة عام 773 بكتابة سره واستعمله في السفارة بينه وبين ملوك عصره، وقام بمهماته أحسن قيام، وقعد بجامع مالقة ثم بمسجد الحمراء يلقي على الكرسي مكنون قرائحه. واستحسن دروسه كل من سمعها وأثنى عليه.

ولقد قصد عاصمة بني زيان طلاب العلم من كل جهات العالم العربي. كيف لا وقد استقل علماؤها بملكة التعليم. قد تلقى في أول الأمر هذه الملكة الإمام «المازري» عن الشيخ «اللخمي»، وأنتقلت إلى الشيخ «ابن عبد السلام»، مفتي البلاد الإفريقية، واستقرت في تلميذه «ابن عرفة الورغيمي» وفي الشيخ «ابن الإمام» التلمساني «أبي عيسى موسى»، ونال من هذا الأخير هذه الملكة تلميذه «أبو عبد الله الشريف» التلمساني (710-771م)، وانتهت طريقته لولده «أبي يحيى» المفسر العالم. واستقرت أيضاً طريقة «ابن الإمام» في تلميذه «سعيد العقباني»

التلمساني، وانتهى ذلك إلى ولده «أبي الفضل قاسم العقباني» وقد ألف التصانيف المفيدة. وزاحموا كلهم رتبة الاجتهاد من غير منازع، ونجد أثر العلوم النظرية بتلمسان استقل بها «أبو عيسى موسى ابن الإمام» المذكور.

ولقداستحسن «ابن خلدون» التعليم الذي كان قائماً بتلمسان وبجاية، ولا نتعجب من موقفه من هذا التعليم. فإنه، هو نفسه، قد تلقى العلم في الجزائر وتتلمذ لعلمائها قبل أن يشرع في تدوين مقدمته في سنة 776هـ. بقلعة بني سلامة بنواحي «تيارت» هذه المقدمة التي بها اشتهر وبها أصبح للتاريخ اتجاه جديد وبها يعد «ابن خلدون» المبتكر لعلم الاجتماع وواضع أسس العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصاد الاجتماعي والسياسي وفلسفة التاريخ والقانون العام.

فإن أخاه «أبا زكريا يحيى»، كاتب «أبي حمو موسى» الثاني، كان هو الآخر مؤرخاً ولكنه لم يبلغ شأوه في كتابه التاريخ، فإن مبادىء عبد الرحمان كانت ثورة على الطريقة المتبعة قبله ودستوراً مشى بمقتضاه من جاء بعده من المؤرخين والباحثين في كل مكان.

برز في الطب حينئذ شخصية ازدان بها البلاط الزياني، وهذه الشخصية تتمثل في «أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلاليسي». اشتغل بالطب والجراحة حتى برع فيهما ونما صيته إلى السلطان «أبي حمو موسى» الثاني. فقربه إليه واتخذه طبيباً لنفسه. وعلاوة على حذقه في الطب كان «التلاليسي» متميزاً في العربية والأدب. وقد دخل السجن مع غيره من التلمسانيين. ولا غرابة في ذلك. أليس هو القائل مخاطباً «أبا حمو موسى» ومعرضاً بني مرين أعداء ملك تلمسان.

كريم حليم حاتمي نواله	حسام على الباغين في الأرض سلا
بدت لمليك الغرب شدة بأسه	وأنعامه وللمعتفين وما أولى
فبادره بالصلح خوف فواته	وسالمه إذ كان ذاك به أولى
أحساده موتوا فإن قلوبكم	بجمر الغيض مما بها أبداً تصلى

وهناك شخصية أخرى في الطب تتمثل في «محمد بن علي بن فشوش» التلمساني. فقد مارس الطب وبرع فيه مثل اليهودي «موشي بن الأشقر». إن «عبد الباسط بن خليل» المصري من علماء القرن التاسع الهجري غادر بلاده وارتحل إلى الجزائر ليستكمل بها معلوماته في الطب، فنزل تلمسان وأخذ بها عن أطبائها. فقال في أستاذه «موشي»: «لا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم، وقصده كثير من الفضلاء للأخذ عنه. لازمته مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب وغيره». ويريد بغيره تركيب الأدوية والفلسفة، وكانت الفلسفة متصلة بالطب، فكل فيلسوف كان له إلمام بالطب. ومن أطباء القرن العاشر الإمام «السنوسي» شارح البخاري. له شرح على رجز «ابن سينا» في الطب، وله شرح كبير على الحوفية في الفرائض والحساب ألفه وهو ابن تسعة عشر عاماً و«داود بن عبد الله» البغدادي ثم التلمساني الطبيب الماهر. كان ضريراً. لقيه «ابن القاضي» في مصر عام 986هـ. ومعرفته بالطب عظيمة[1].

قد خرج جماعة من علماء الأندلس إلى تلمسان قبيل أخذ غرناطة وقد أحسوا بأن العدو رابض متربض للاستيلاء عليها، منهم القاضي الشهير «أبو عبد الله بن الأزرق» و«بنو داود» المذكورون في فهرست الشيخ «ابن غازي».

أما ابن الأزرق فهو الإمام العلامة الخطيب الحجة الأعرف المؤرخ الناظم الناثر الرواية قاضي الجماعة بحضرة غرناطة سيدي «أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي» الشهير «بابن الأزرق» الغرناطي[2].

قال السخاوي: لازم «ابن الأزرق» الأستاذ «إبراهيم بن أحمد بن فتوح» مفتي غرناطة في النحو والأصلين والمنطق، بحيث إنه كان جل انتفاضه به، وحضر مجالس « أبي عبد الله محمد بن محمد الشرقسطي»، العالم الزاهد مفتياً أيضاً في الفقه، ومجالس الخطيب أبي الفرج عبد الله بن أحمد البقني، والشهاب قاضي الجماعة أحمد بن يحيى الشريف التلمساني.

(1) درة الحرجال صـ: 142.

(2) أزهار الرياض، جـ 3 صـ: 317.

من جملة تآليفه روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام، وكتاب بدائع السلك في طبائع الملك.

ومن شعره هذه الأبيات في الاعتداد بالصبر عند الشدائد قالها عند نزول طاغية النصارى بمرج غرناطة:

مشوق بخيمات الأحبة مولع ... تُذَكِّرُهُ نُجد وتُغريه لَعْلع
مواضعكم يا لائمين على الهوى ... فلم يبق للسُّلوان في القلب موضع
ومن لي بقلب تلتظي فيه زفرةٌ ... ومن لي بجفن تنهمي منه أدمع
رويدك فارقبْ للطائف موقعاً ... وخل الذي من شره يتوقع
وصبراً فإن الصبر خير تميمة ... ويا فوز من قد كان للصبر يرجع
وبت واثقاً باللطف من خير راحم ... فألطافُه من لمحة العين أسرع
وإن جلَّ خطب فانتظر فرحاً له ... فسوف تراه في غد عنك يُرفع
وكن راجعاً لله في كل حالة ... فليس لنا إلا إلى الله مَرْجِعُ

وله عند وفاة أمه:

تقول لي ودموع العين واكفة ... ما أفظع البين والترحال، يا ولدي
فقلت أين السُّرى؟ قالت: الرحمة مَنْ ... قد عزَّ في الملك لم يولد ولم يلد

وله في المجبّنات.

ورب محبوبة تبدّت ... كأنها الشمس في حلاها
فأعجب لحال الأنام: من قد ... أحبها منهم قلاها

ومن بديع نظمه قصيدة مدح بها شيخه الإمام العلامة «أبا يحيى ابن عاصم» وبما أنها طويلة نجتزىء بذكر مطلعها:

خضعت لمعطفه الغصون المُيَّسُ ... ورنا فهام بمقلتيه النرجس

وذيلها:

وإليكها حللاً تناسب نسجها ... مثلي يفصلها ومثلك يلبس

واهنأ بعيد باسم متهلل   وآفاك يجهر بالسرور ويهمس
واحبس لواء الفخر موقوفاً فـ   ـإن الحمد موقوف عليك محبّس

فإن «ابن الأزرق» يستخدم فيها الطبيعة سبيلاً إلى ممدوحه، وهذا شأن الأندلسيين في أمداحهم، وإذا أردت أن تقرأها فعليك بأزهار الرياض جـ 3 صـ: 320. طلب منه شيخه قاضي الجماعة «أبو القاسم بن سراج» الاجتماع به زمان فتنة. فظن أنه يستخبره عن سر من أسرار السلطان، فباعده معتذراً ولم يصدق الظن، فقال:

فديتك لا تسأل عن السر كاتباً   فتلقاه في حال من الرشد عاطل
وتضطره إما لحالة خائن   أمانته أو خائض في الأباطل
فلا فرق عندي بين قاض وكاتب   وشى ذا بحق أو قضى ذا بباطل

قد ارتحل «ابن الأزرق» إلى تلمسان بعد التسعين وثمانمائة، ثم غادر هذه البلدة قاصداً المشرق. ولم يقف المقري على تاريخ وفاته، رحمه الله.

استولى الأسبان على غرناطة سنة 1492 (شكل 48). فما كان على المسلمين إلا أن يهجروا الأندلس العزيزة. فنزح عدد كبير منهم إلى الجزائر وانتشروا في حواضرها ومن أهمها تلمسان التي كانت على صلة وثيقة بالأندلس، وحملوا بالطبع معهم علومهم وآدابهم وفنونهم، فقد نظموا حلقات تعليم بالمدارس والمساجد وخاصة بالمسجد الجامع. وكان هذا المسجد قبل هذه الآونة مركزاً من مراكز الثقافة العربية الإسلامية منذ عهد سحيق كمسجد كل من طبنة وتيهرت وقسنطينة وعنابة وبجاية ووهران ومدينة الجزائر، ولكن إثر نزوح الأندلسيين إلى تلمسان أصبح معهداً للتدريس لا يقل أهمية عن جامع الزيتونة أو القرويين. وتمتاز هذه الحقبة من الزمان بحركة التعريف في الربوع الجزائرية، وهذه الحركة التي قام بها أولئك النازحون تلاحق حركة التعريب في عهد الرستميين في تيهرت وفي عهد المأمون ببغداد وزيادة الله بالقيروان وعبد الرحمان الناصر والحكم بقرطبة.

ويلذ لنا أن نذكر شخصية أدبية من تلك الشخصيات التي وردت على تلمسان عند سقوط غرناطة في يد العدو. وهذه الشخصية تتمثل في «أبي عبد الله بن الحداد الوادي آشي». وجاء في الإحاطة عن النفح جـ 9 صـ: 238 أن «الوادي آشي» شاعر مفلق وأديب شهير مشار إليه في التعاليم منقطع القرين منها في الموسيقى مضطلع بفك المعمى، سكن المرية واشتهر بمدح رؤسائها من بني صمادح. وقال ابن بسام: «كان أبو عبد الله هذا شمس ظهيرة وبحر خبر وسيرة وديوان تعاليم مشهورة وضح في طريق المعار وضوح الصبح المتهلل وضرب فيها بأقداح ابن مقبل إلى جلاله مقطع وأصالة منزع، ترى العلم ينم على أشعاره يبين في منازعه وآثاره». خلف لنا ديوان شعر كبير، وله في العروض تصنيف مزج فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية.

كان لمترجمنا مصاهرة مع بني مرزوق، ثم آلت إلى مقاطعة. فقال في ذلك:

يلومني الأقوام من بعدما سطا ... علي بـن مرزوق ومنٍّ بإنفاق
فقلت لهم كفوا الملام فإنني ... تركت ابن مرزوق وأممت رزاقي

ومن شعره يرثي الشيخ الإمام الحافظ بل حافظ الإسلام «أحمد بن يحيى الونشريسي»[1] الأصل التلمساني نزيل فاس صاحب المعيار وغيره. يقول الوادي آشي:

لقد أظلمت فاس بل الغرب كله ... بموت الفقيه الونشريسي أحمد
رئيس ذوي الفتوى بغير منازع ... وعارف أحكام النوازل الأوحد
لـه دُرْبـةٌ فيهـا رأي مسـدّدُ ... بإرشاده الأعلام في ذلك تهتدي
وتالله ما في غربنا اليوم مثله ... ولا من يـدانيه بـطول تـردد
عليه من الرحمان أفضل رحمة ... تروح على مثواه فيضاً وتغتدي

وله في رثائه أيضاً:

(1) قد ترجمنا له في كتابنا «تاريخ الأدب الجزائري» صـ: 222.

أبَعْدَ ابن يحيى اليوم في الغرب عالم يُطبق بالفُتيا المفاصل مثله
ويعرف من فقه النوازل غاية يُوقّع منها ما به بان نبله
وإن جئت للإنصاف لم يبق مثله وهذا الجليل ليس ينكر فضله
فإذا كان جاء الموت فالصبر والرضا على ما قضى الخلاق فالحول حوله

وقوله في ذلك:

رأيت نجوم الدين تبكي حزينة على فقد حبر كان قطب أولي العليا
فقلت ومن هذا؟ فقالت مجيبة على الونشريسي رئيس ذوي الفتيا
فصحنا وقلنا: ويلنا ثم ويلنا على فقده مذ غاب أظلمت الدنيا
عليه من الرحمان أفضل رحمة تعاهَد مثواه مع الجَوْد والسُّقيا

وقوله وقد بدل القافية:

رأيت نجوم الدين تبكي حزينة على فقد من قد كان قطب زمانه
فقلت ومن هذا فقالت مجيبة على الونشريسي وحيد أوانه
إليه انتهت في الفقه كل رياسة ومعرفة زينت بحسن بيانه
ومذ غاب عنا أظلم الكون كله وصار الضحى ليلاً لفقد عيانه
وإن عزائي فيه للخلق كلهم خصوصاً ذوي فقه لعز مكانه

ومن نظم «ابن الحداد» متبرماً بسكنى تلمسان:

تلمسان أرض لا تليق بحالنا ولكن لطف الله نسأل في القضا
وكيف يحب المرء أرضاً يسوسها يهود وفجار ومن ليس يرتضى

وله أيضاً في ذلك:

غريب في تلمسان وحيد من الأحباب ليس له مُشَاكِلْ
وكم فيها من الأصحاب لكن بها المُناسب والمُماثل

قال المقري في أزهاره[1]:

---

(1) جـ 3 صـ: 308.

«كان كثير النسخ والتقييد، آية الله في ذلك حتى أني رأيت في خزائن أهل تلمسان بخطه نحو مائة سفر، ورأيت بفاس نحو الثمانمائة. وأخبرني مولانا شيخ الإسلام عمنا مفتي تلمسان، سيدي «سعيد بن أحمد المقري»، رحمه الله، أنه نسخ[1] (بخطه) نحو العشرين نسخة من توضيح خليل وكان يحترف بالنسخ، ونظمه نظم فقيه، وربما يقع له النادر».

ومن الوثائق التي كتبها «الوادي آشي» هذه:

«إن ذكر الموصي في كتابه أن تنفذ وصيته من سكة كانت تجري (في حين الوصية)، ثم توفي الموصي وقد انقطعت تلك السكة، فإن وصيته إنما تُنفذ من تلك السكة، التي كانت تجري يوم الوصية، إلا أن يكون نص في وصيته أن تكون وصيته من النقد الجاري يوم تنفذ الوصية، فيكون ما عهد، فإن وقعت وصيته مطلقة ولم يشترط صفة، فإنما يكون ذلك مما يجري يوم التنفيذ، وذلك بخلاف الكوالىء[2] والديون».

هذه القطعة تعطينا نظرة عن ديباجة ذلك الوقت في الوثائق. أما ديباجته في التأريخ فنراها فيما أثبته «المقري» في نفحه[3] فقال «الوادي آشي»: «حدثني الفقيه العدل سيدي حسن بن القائد الزعيم الأفضل سيدي «إبراهيم العراف» أنه حضر مرة لإنزال الطِّلَّسم المعروف بفروج الرواح من العلية بالقصبة القديمة من غرناطة بسبب البناء والإصلاح وأنه عاينه من سبعة معادن مكتوباً فيه:

إيوان غرناطة الغراء معتبر ... طلسمه بولاة الحال دوار
وفارس روحه ريح تدبره ... من الجماد، ولكن فمه أسرار
فسوف يبقى قليلاً ثم تطرقه ... دهياء يخرب منها الملك والدار

(١) أي الوادي آشي.
(٢) الكوالىء: جمع الكالىء وهو المتأخر من الصداق.
(٣) جـ 6 صـ: 254.

وقد صدق قائل هذه الأبيات، فإنه طرقت الدهياء ذلك القطر الذي ليس له في الحسن مثال، ونسل الخطب إليه من كل حدب وأنثال، وكل ذلك من اختلاف رؤسائه وكبرائه، ومقدميه وقضاته وأمرائه ووزرائه، فكل يروم الرئاسة لنفسه ويجر نارها لقُرصه، والنصارى، لعنهم الله تعالى، يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد، ويضربون عمرواً منهم بزيد، حتى تمكنوا من أخذ البلاد، والاستيلاء على الطارف والتلاد». وكلامه طويل نجتزىء بهذه الفقرة، فإنها على قلتها كافية لتمكننا من معرفة مقدرته في الإنشاء. وقد أورد لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة قصيدة تائية للوادي آشي.

إن التجارة كانت رائجة بالجزائر ولا سيما بتلمسان لأهمية موقعها الجغرافي، علاقاتها التجارية كانت قوية مع المغرب والبلاد الاستوائية والأندلس تستورد وتصدر السلع والبضائع المختلفة، كان التجار يرسلون سلعهم من تلمسان ووهران إلى ما وراء الصحراء عن طريق سجلماسة كذي قبل حيث تلتقي قوافلنا بقوافل المغرب الأقصى وتؤم جميعاً تنبكتو وغانا. وقوافل أخرى تخرج من سجلماسة أيضاً وتلتقي في طريقها بالقوافل الخارجة من الصويرة ووادي نون وتؤم موريتانية والسينيغال والمالي وغانا وغينية.

وقد تكونت شركة صحراوية هي شركة المقريين. فقد استوطن جدهم[1] «عبد الرحمان بن أبي بكر»، صاحب «أبي مدين»، مدينة تلمسان.

نقل «لسان الدين بن الخطيب» في الإحاطة عن شيخه «أبي عبد الله المقري» أنه كان لجده «أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمان» أربعة أخوة اشتركوا في التجارة، ومهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار، واتخذوا طبلاً للرحيل وراية تقدم عن المسير. وكان «أبو بكر ومحمد» بتلمسان و«عبد الرحمان» بسجلماسة و«عبد الواحد» و«علي»

---

(1) أصله من مقارة بإقليم الزاب.

بإيوالاتن الواقعة في الشمال الغربي لتنبكتو على بعد أربعمائة ميل. فكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع. وذاك يرسل له بالجلد والعاج والجوز والتبر. والسجلماسي بينهما كلسان الميزان يعرفهما بقدر الرجحان والخسران ويكاتبهما بأحوال التجار والبلدان. فاتسعت أموالهم وعظم شأنهم.

ولم تقتصر حركة التجار على جهة الصحراء فوجوههم كانت موالية أيضاً شطر الأسواق الأوروبية. فالسفن المشحونة بالسلع تخرج من هنين ووهران وتنس والجزائر وبجاية وعنابة قاصدة الأندلس ومرسيلية وموانىء إيطالية. وهذا التواصل بين تجار بلدان مختلفة يتولد عنه تواصل حضارات هذه البلدان وتفاعلها. فإذا ما عاد تجارنا أو التجار الأجانب إلى مواطنهم حملوا وإياهم عادات وأفكار وأساليب جديدة تفعل فعلها في حياة هذه المواطن، وفي أوضاعها الحضارية. وقد أشرنا إلى هذه الظاهرة آنفاً. فإن الأشخاص من أهم حملة العناصر الحضارية، ومن أفعل وسائل نقلها، فلا بدع أن تتواصل الحضارات عن طريقهم وأن تنتقل بانتقالهم من مجتمع إلى آخر الأشياء المادية والأفكار والمعتقدات ومذاهب العيش وأن تتفاعل. فإن السلع هي دليل على حضارة المجتمع الذي أُنتجت فيه ومظهر من مظاهرها. فإذا ابتغاها أبناء مجتمع آخر لم يستمدوا منها فائدة عملية فحسب بل تأثروا أيضاً بمحمولاتها الحضارية ولذا كانت التجارة سبيلاً واسعاً منتجاً من سبل التبادل الحضاري[1].

وقد قلنا إن جاليات متوالية جاءت من الأندلس واستوطنت الجزائر. فانتقال هؤلاء الأندلسيين عابراً كان أو دائماً وإقامتهم في البلاد قصيرةً أو طويلة، كل ذلك له أثره في تبادل المؤثرات وتلاقح المعائش والعوائد والأخلاق. فسوق الثقافة راجت رواجاً كبيراً، فزخرت المدارس والمساجد بالعلماء والأدباء وكثر الفنانون من معماريين وموسيقيين وغيرهم. وقيّض الله للجزائر أمراء يحبون العلم ويقربون أهله ويقيمون

(1) في معركة الحضارة.

المباني تكون شارة غزهم وسلطانهم. وشاءت الأقدار أن يستولي «بنو مرين» على تلمسان ردحاً من الزمان. فهم الآخرون أبوا إلا أن تكون تلمسان تحت ظلهم أحسن مما كانت عليه على عهد الزيانيين. فهذا التنافس بين المرينيين والزيانيين جعل من تلمسان جوهرة المغرب بلا منازع وآية من آيات الفن الجزائري. فإن الأسرى الأوروبيين وصناع الأندلس الذين استدعاهم الأمراء ومن أتوا مهاجرين كانوا بمساعدة الفنانين الجزائريين يداً ماهرة في تزيين العاصمة. فبنيت القصور وشيدت المساجد والمدارس وقد أعان الأمراء على ذلك حالة الجزائر الاقتصادية. فكانت التجارة، كما سبق أن قلنا، نافقة تدر على أصحابها وبالتالي على خزينة الدولة الأموال الطائلة، وقد وصف «ليون الإفريقي» تجار تلمسان وأرباب الحرف بالنشاط والعفة ورغد العيش، وفضل لباسهم على لباس الفاسيين. ورقي الفلاحة والتجارة (شكل 49) يستدعي رقي الحرف والصناعات[1]. فبنو زيان، رغم الاضطرابات التي ألمت بالبلاد حينئذ كانوا جادين في تشييد البنايات وإقامة المصانع والمتنزهات وإدرار الرزق على رجال السيف والقلم والشعراء. وحكي أن أحد متأخري بني زيان أهدى إلى ملك أسبانيا «فرديناند» دجاجة وستة وثلاثين نقفاً من الإبريز الخالص.

والجزائر الحفصية، هي الأخرى كانت تتمتع باقتصاد زاهر كانت القوافل التجارية على اتصال دائم بالشرق من جهة وببلاد السود من جهة أخرى، كانت تخرج من «وارجلان» قاصدة «مصر» عن طريق «طرابلس» تارة، و«تنبكتو» عن طريق «زيزة»، أو «النيجار» و«الفلطا» و«الدهومي» مارة «بالهقار» و«أقاديس» تارة أخرى. .

وقد قصد حواضر هذا الإقليم مهاجرون أندلسيون بكل ما يملكون

---

(1) ومما يدل على تقدم الصناعة تلك المنجانة التي اخترعها علي بن الفحام التلمساني والتي وصفها يحيى بن خلدون في بغية الرواد والتنسي في الدر والعقيان، ثم تلك الشجرة المصنوعة من الفضة وعلى أغصانها تماثيل طيور بقصر أبي تاشفين الأول التي ذكرها عبد الرحمان الجلالي في تاريخه جـ 3 صـ: 232.

من متاع وعبقرية وعلم وأدب وفن لهم صلة بموطنهم القديم وصلة بموطنهم الجديد فأفادوا واستفادوا. فكل هذا من شأنه أن يساعد هذا الإقليم الواسع من البلاد على تبلور ما كان قائماً من ثقافة وحضارة على عهد الحماديين.

إن الفن الجزائري، قبل هذه الفترة، كان متأثراً بالفن الشرقي ولكنه أخذ يتفتح ولا سيما في الجزائر الغربية عند وصول تيار الفن الأندلسي المغربي[1] إليها (شكل 50). والفضل في وصوله يرجع إلى المرابطين ثم إلى الموحدين الذين اجتهدوا في اقتباسه ونشره في مملكتهم الواسعة. فكان اتصال بين الفن المغربي والعراقي السائدين في القلعة وبجاية والمهدية وتونس. فأمكن للموحدين تحقيق وحدة الإسلام السياسية من قشتالة إلى طرابلس وأن يساهموا في توحيد الفن الإسلامي في المغرب العربي[2]. وقد ساعد امتزاج الفن الجزائري بالفن الأندلسي وجود صناع حذاق من الجالية الأندلسية التي استقرت بالجزائر منذ القرن الخامس الهجري. واستمرت عملية الامتِزاج نحو ثلاثة قرون اتخذ بعدها هذا الفن الجديد إطاره النهائي، وذلك في عهد بني زيان. فإن هؤلاء بفضل ما أبدعوه من روائع تبوأوا المقام السامي في تاريخ الفن الإسلامي، ولا سيما في عهدي «أبي تاشفين» و«أبي حمو موسى» الثاني. فقد نشأ هذا الأخير وعاش غير قليل بالأندلس مع أسرته وتشبع بالثقافة الأندلسية الرائعة. فأصبحت تلمسان ببناياتها وحدائقها أشبه بإشبيلية وغرناطة في روائعها الفنية وطبيعتها الفتانة. كانت قصور بني زيان لا يعبر عن حسنها. اختطها «أبو حمو الأول» وابنه «أبو تاشفين» واستدعيا الصناع من الأندلس. فبعث إليهما «أبو الوليد بن الأحمر» بمهرة البنائين استجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين. وكان «أبو تاشفين» الأول مولعاً بالتعمير وبصيراً بالتشكيل والاختراع، وكان له

(1) يتمثل في جرالدا بأسبانيا وفي صومعة حسان بالرباط وفي الكتبية بمراكش.

(2) وليام مارسي.

الآلاف من الأسرى والأوروبيين. فمنهم النجارون والزلاجون والزواقون وغيرهم فابتنى قصوراً منها دار الملك ودار السرور وأبو فهر، ولعله ضاهى بأبي فهره أبا فهر «المستنصر» الحفصي بتونس. إلا أن هذه القصور تلاشت وانعدمت وأتت عليها يد الزمان واليد الآثمة الاستعمارية حتى لا تراها الأجيال المقبلة فلا يحي وعيهم القومي ولا يحاولون استرجاع قوميتهم ومن ثم وطنهم. فلم يبق من هذه المنجزات التي قام بها هذا العاهل الكريم إلا الصهريج البالغ طوله 150 متراً وعرضه 145 في عمق 3 أمتار، وكان إنشاؤه حوالى 716-738هـ (1313-1335م)، وكان يستعمل هذا الحوض للسباق بين الزوارق والقوارب في أيام الأعياد والاحتفالات الملكية وللسقي في الأيام العادية. وقد بنى «أبو تاشفين» مدرسة لم ير مثلها من قبل إزاء الجامع الأعظم. قال المقري: «رأيت مكتوباً بأعلى دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين «ابن تاشفين» الزياني (بل أبو تاشفين) ، وهي من بدائع الدنيا، إليك هذه الأبيات:

انظر بعينك بهجتي وسنائي — وبديع اتقاني وحسن بنائي
وبديع شكلي واعتبر فيما ترى — من نشأتي بل من تدفق مائي
جسم لطيف ذائب سيلانه — صاف كذوب الفضة البيضاء
قد جف بي أزهار وشي نمقت — فغدت كمثل الروض غب سماء

ومن آثاره أيضاً إحاطة الجزائر بسور وإنشاء قصبة «سيدي رمضان» جوار الجامع المعروف اليوم بجامع سيدي رمضان. وقد أمر بتوسيع الجامع الأعظم (شكل 51). ذكر الشيخ «أبوراس» أن هذا الجامع هو أيضاً من مؤسسات بني زيان وأن مؤسسه «أبو تاشفين». فالواقع أن «أبا تاشفين» لم يكن مؤسسه بل وسعه ورممه فقط. فهو من آثار بني حماد. وقد ذهب الأخ «عبد الرحمان الجلالي» وغيره من المؤرخين أنه من آثار المرابطين، والمرابطون لم يستولوا البتة على الجزائر ولم يقيموا بها شيئاً. فلو قال الشيخ «أبوراس»: «إن «أبا تاشفين» أدخل تحسينات على المسجد وأقام منارته لأصاب في قوله. فالمسجد حمادي، وإن كان يشبه

في شكله وهندسته المعمارية جامع تلمسان المنسوب إلى «علي بن يوسف بن تاشفين» باستثناء المنارة طبعاً لأن هذه من آثار «يغمراسن» مؤسس الدولة العبد الوادية. وقد جزم «مس ديامند»[1] حيث قال: «إنه لا تزال بشمال إفريقية عدة منابر هامة ترجع إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وأقدم هذه المنابر منبر المسجد الجامع بالجزائر الذي بناه المرابطون سنة 1082م (747هـ) وتتكون زخارفه من حشوات مربعة تزينها زخارف هندسية متشابكة وأشجار نخيلية وتوارق في أسلوب مغربي أسباني حمله إلى شمال إفريقية الفنانون الأندلسيون»[2]. فالتاريخ الذي ذكره «ديامند» صحيح، ولكن في ذلك الوقت كانت الدولة الحمادية قوية قادرة على صد المرابطين عن الدخول إلى عقر بيتهم. فلم يذكر لنا التاريخ إلا أن المرابطين استقروا ردحاً من الزمان بتلمسان وضواحيها فقط. فإنهم وصلوا إلى وادي شلف، ولكنهم لم يستقروا هناك لأنهم لم يأتوا إلى الجزائر كمستعمرين مزاحمين الحماديين بني عمهم، وإنما قصدهم كان غزو زناتة أعدائهم وأعداء الحماديين، ولم يلبثوا أن رجعوا إلى ديارهم. وأما المنبر فمن الممكن أن الأندلسيين هم الذين حملوه كما يحتمل أيضاً أن الأندلسيين المهاجرين هم الذين صنعوه في الجزائر نفسها، والأندلسيون كانوا حينئذ كثيرين بالقطر الجزائري ولا سيما ببجاية ودلس الصمادحية . فالشيء الذي غلط المؤرخين فقالوا : إن المرابطين هم الذين بنوا ذلك المسجد، هو أن المقري غلط في اسم باني المسجد بل حرفه فقال: ابن تاشفين عوض أبي تاشفين. والجدير بالملاحظة أن ناحية القبلة منه والقبة القائمة فوق محرابه هما من منشآت العهد التركي في القرن الحادي عشر الهجري أي السابع عشر الميلادي.

وكانت المساجد كثيرة في تلمسان تربو على الستين، فلم يبق منها إلا بعضها. بقي الجامع الأعظم الذي أنشأه المرابطون في جمادى الثانية

---

(1) عن عبد الرحمان الجلالي جـ 2 صـ: 240.

(2) المصدر السابق

530هـ (مارس 1135م)، كما هو منقوش. بباطن قبة المسجد. ويبدو أن زخارف هذه القبة والقبة التي تتوسط الممر الرئيسي (شكل 52) المؤدي إلى المحراب من صنع نحاتين أندلسيين. كما يلاحظ أن المحراب (شكل 53) قريب الشبه لمحراب جامع قرطبة (شكل 54) في شكل قوسه والنقوش التي تعلوه. وسقف المحراب علي صورة محارة مقسمة إلى فصوص زخرفية. ويلاحظ أيضاً أن هناك أقواساً تمتاز بفصوص تعطيها رشاقة وحسناً، والصحن مربع غير مغطى تتوسطه فوارتان (شكل 55) . والمسجد على شكل مستطيل ذي 60 متراً على خمسين متراً. أمامئذنته (شكل 56) فيبلغ ارتفاعها سبعين متراً جدد بناءها «يغمراسن». وهناك مسجد آخر أقامه السلطان «أبو سعيد عثمان بن يغمراسن» سنة 696هـ (1296م) كذكرى للأمير «أبي عامر إبراهيم بن يغمراسن». فإنه يعرف بمسجد سيدي «أبي الحسن بن يخلف التنسي». مسجد صغير لكنه آية من آيات الفن. فقاعة الصلاة تحتوي على ثلاثة أروقة وصفين من الأعمدة، كلها أسطوانية تصل بعضها ببعض أقواس، والجدران مغطاة بالزخارف النباتية اللينة المعروفة بالأرابسك، وبالفصوص المزينة بالنقوش. وعندما تصل إلى المحراب تعلوك قبة مقرنصة وقوس المحراب على هيئة حدوة الحصان تحيط به ثلاث حواش، الأولى على شكل دائرة مزينة بفصوص مستطيلة، والثانية والثالثة على شكل مستطيل وكلتاهما مزخرفة بنقوش نباتية وخطية كوفية وتعلوهما ثلاث نوافذ ذات نقوش على شكل وريدات متشابكة. ويحيط بهذا كله أفاريز خطية نسخية. أما تيجان الأعمدة فترى في أسفلها نقوشاً نباتية أيضاً. وللمسجد مئذنة قصيرة بالنسبة إلى منارة المسجد الجامع التي لا تبعد عنها، إلا أنها جميلة، ذات زخارف على جوانبها على شكل أقواس صغيرة متشابكة يتخللها قطع من الزليج خضراء وسمراء وبيضاء. فلا تقام فيه الصلاة اليوم، فهو متحف لبهجته وتفوقه بزخارفه ونقوشه الأنيقة. (شكل 57-58).

وعندنا مسجد آخر أقامه «أبو حمو الثاني» لابني الإمام سنة 710هـ (1310م) ويسمى الآن باسمهما. فإن محرابه يقع تحت قبة ذات

فصوص. أما الخط الكوفي والزخارف النباتية فيه فهي شبيهة بما يوجد في مسجد «سيد أبي الحسن» ومئذنته يبلغ ارتفاعها سبعة عشر متراً. ولا زالت بها أثر نقوش شبيهة بنقوش صومعة سيدي أبي الحسن وقطع من الزليج بيضاء وسمراء وخضراء.

بنى «يغمراسن» قصر المشور وعمره أوائل القرن الثالث عشر عند مغادرته القصر المرابطي الذي كان موازياً للجامع الأعظم. فقدوصف لنا «محمد التنسي» منازله الجليلة وحدائقه النضرة. هدم بعض حجراته باي الجزائر سنة 1670م إثر ثورة قام بها التلمسانيـون على الحاكمين، ثم قضى على ما بقي منه الفرنسيون سنة 1843م، هدموه واتخذوه معسكراً، إلا أنهم تركوا صومعة قصيرة جميلة تدل على أنه كان للقصر مسجد.

ولا ننسى ذلك المسجد الذي أقامه «أبو حمو موسى» الثاني على ضريح سيدي «إبراهيم» وهو معروف به إلى الآن.

ومن آثارات بني مرين بتلمسان المنصورة التي أقامها «أبو يعقوب يوسف» المريني، ولا زالت الصومعة (شكل 59) وقطع من السور بادية للعيان في ضواحي تلمسان، وتلك المجموعة الفنية المحيطة بضريح الشيخ «أبي مدين شعيب بن الحسين» الأندلسي (590هـ ـ 1193م)، المحتوية على قصر يدعى دار الفتح أقامه «أبو الحسن» المريني وتذكر ساحاته وأروقته وغرفه وبركته بقصر الحمراء، ثم على مدرسة وعلى ذلك الجامع المزخرف الزاهر. يقول لنا ابن مرزوق: «إن بني مرين بنوا جامع تلمسان (بالعباد)» الذي اتفق الرحالون وأجمع المتجولون على أنهم لم يروا له ثانياً[1]. يعلو مدخل هذا المسجد قبة مقرنصة منها تصعد إلى صحن مربع يتوسطه حوض (شكل 60). وقاعة الصلاة مستطيلة ذات خمس ممرات طولاً على ثلاث عرضاً. والمحراب تجويف في الحائط تعلوه قبة صغيرة مقرنصة. والجدران مغطاة بالزخارف الهندسية (شكل 61) وأما المنار فهو جميل وأطول من منار مسجد «سيدي الحلوي». يصف لنا «ابن مرزوق» هذا المسجد في

(1) المسند لابن مرزوق.

مسنده فيقول: «وأما الجامع الذي بناه[1] حذاء ضريح شيخ المشايخ وقدوة الأئمة المتأخرين من المتصوفة «أبي مدين شعيب بن الحسن». فهو الذي عز مثاله، واتصف بالحسن والوثاقة أشكاله. أنفق فيه مقداراً جسيمًا ومالاً عظيمًا. وكان بناؤه على يد عمي وصنو أبي الصالح «أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق» وعلى يدي. اشتمل على الوضع الغريب وهو أن سقفه كلـه أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة، كل جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع قد رقمت على نحـو ما يـرقم عليه أشكـال النجارة، فلا يختلج في النفسَ شائبة ولا يعرض لها وهم أنها أشكـال منجورة منفرشة، وهي كلها مبنية إحكاماً بالآجر والقصة. واشتمل على المنبر العجيب الشكل المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس، مذهب ذلك كله... وأما الباب الجوفي الذي يتفتح على المدرج الذي ينزل فيه إلى قبر الشيخ وإلى الشارع وهو باب النحاس المشتمل على مصراعين كل مصراع منها مصفح بالنحاس المخرم المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتركة العمل، وتخريمه على أشكال من نحاس ملونة. فهو من غريب ما يتحدث به السفار أخذ على صناعة المصراعين الصفارون نحو من سبعمائة دينار ذهباً عيناً. هكذا وجدته بخطي عدا ثمن النحاس والحديد والخشب والأصبغة. وعلى مدرجه قبة من عمل المقرنص غريبة الشكل قليلة المثل. وصومعته كذلك في غاية من الحسن والاتقان كل جهة من جهاتها الأربع تخالف الأخرى في النوع والإحكام. «وذهبت تفافيح جامورها بثلاثمائة وسبعين ديناراً ذهباً».

أمر أبو عنان ببناء مسجد بقرب ضريح سيدي الحلوي الأندلسي ومما يلاحظ أن تشابهاً بين تيجان أعمدة هذا المسجد وتيجان أعمدة مسجد المنصورة فهي اسطوانية وقصيرة فلا شك أنها نقلت من المنصـورة إلى تلمسان واستعملوها في بناء هذا المسجد. والمحراب تعلوه قبة مقرنصة. وأما المنار فهو شبيه بمنار مسجد العباد. وسقف المسجد الخشبي يذكرنا بسقف المدرسة (الأبو عنانية) التي بنيت بفاس في ذلك العهد و«بطاير دَلمورو» بطليطلة.

(1) أبو الحسن.

فإن الفن المعماري التلمساني، الزياني كان أو المريني، كله جميل. أخذت أساليبه من الفن الأندلسي الجميل. فإنه أجمل من فن غرناطة وفاس، فقد تآخت فيه أساليب الأندلس وآثار الفن الشرقي الذي كان سائداً في البلاد قبل هذه الفترة. فقد وصل الفن بتلمسان الزيانية والمرينية إلى أوج الكمال.

فهذه المساجد وهذه المدارس وهذه القصور لشاهد قوي على رقي الحضارة الإسلامية المغروسة في الجزائر. وقد تحول، كما رأيت، الاتجاه في التعمير إلى اتباع التقاليد الأندلسية المغربية. وقد عم هذا الاتجاه الموسيقي أيضاً. وقد أعان على جلبها وإقرارها في غرب الجزائر ملوك بني زيان وفي شرقها الحفصيون. فانساقت أوضاع الفنون الأندلسية المغربية وأساليبها واستحوذت على الأهواء والأذواق. ومن ذلك الحين تغير مجرى التأثير وأصبحت أمواجه تأتي من الأندلس بعدما كانت تأتي من الشرق في أغلبها، ودام هذا التيار ما يربو على ثلاثة قرون.

شاعت بين طبقات الشعب أغاني إشبيلية وغرناطة. وكيف لا تتأثر البلاد بالموسيقى الأندلسية وقد ورد عليها موجات من اللاجئين الأندلسيين. وهؤلاء كانوا مولعين بهذا الفن، غرس حبه «زرياب» في قلوب أجدادهم. استدعى «الحكم الأموي» «زرياب» إلى قرطبة. وفي طريقه أخبر بوفاة «الحكم»، ولكنه تابع سيره. فدخل الأندلس. فاستقبله «عبد الرحمان بن الحكم» بحفاوة زائدة وقربه. ولم تقف مهارة «زرياب» عند جودة الغناء والحذاقة في العزف، بل تخطى ذلك إلى تحسين صناعة العود والوصول إلى درجة عالية في الفن، ومن مآثره على الموسيقى أن هيأ لنفسه مدرسة وطريقة مستحدثة في التعلم تصل بالراغب فيها إلى تحقيق الغاية. وكان، فوق مدرسته الموسيقية وعبقريته الفنية، عالماً جليلاً وشاعراً مطبوعاً وفلكياً بارعاً. ولم تبق الموسيقى وقفاً على الملوك، فكسرت أقفال القصور وخرجت إلى الشوارع والمنازل وأخذ بتلابيبها الشعب. وسقطت إشبيلية، مهد الموسيقى في منتصف القرن الثالث عشر: فهاجر الأندلس ما يقرب من نصف مليون من أهلها إلى شمال إفريقية واستقروا بها ونقلوا

إليها من كنوز الموسيقى ما كان في الأندلس. وصارت هذه البلاد وارثة هذه الفنون. وهناك أمر آخر كان له تأثير كبير على سير المـوسيقى في بلادنا، ذلك هو هجرة أهل الأندلس الأخيرة إلى القطر أوائل القـرن الحادي عشر الهجري إذ إنهم جلبوا معهم ما بقي لديهم من أغانيهم الكلاسيكية وألحانهم الشعبية. فانتشرت الموسيقى وارتكز الفن التلحيني على النوابات. والنوبة نوع من التأليف الموسيقي يتناوب التأليف الغنائي والتأليف الآلي. وتؤلف النوبة على قواعد محدودة وتتركب من هذه الأجزاء التي تتبع بعضها على نظام واحد لا يختلف في كل النوبات. وجميع ألحان النوبة الواحدة تكون عادة من المقام الذي تحمل اسمه. والألحان المقرونة بـأقاويـل قد يحفظ منهـا الموسيقيـون عدداً يختلف بـاختلاف النـوبات، فيختارون منها في كل وزن لحناً أو أكثر على حسب ما إذا كانوا يريدون اختصار الفاصل الموسيقي أو إطالته. والنوبة ابتكـار أندلسي من آثـار «زرياب» ورثته عن الأندلس بلاد المغرب. وبما أن الموسيقى لم تكن مكتوبة ضاع عدد من النـوبات. ولحسن الحظ أن بعضهم أخـذ في السنوات الأخيرة يحاول جمع شتات هـذا التراث وقام هـواة الموسيقى في كل من المغـرب والجزائـر وتونس بجمـع الألحـان التي أفلتت من يـد الضيـاع واستطاعوا أن يجمعوا إحدى عشرة نوبة في المغرب الأقصى واثنتي عشرة في الجزائر وثلاث عشرة في تونس[1].

(1) محمود أحمد الحفني: الأدوار والموشحات الأندلسية.

قضى الأسبان على العروبة والإسلام في الأندلس، ولم يقفوا عند هذا الحد، بل أغاروا على الشمال الإفريقي، واحتلوا المراكز الاستراتيجية، واستقروا في البلاد. والسلطة الزيانية عجزت عن صد العدو أو طرده. فتعين على الشعب مقاومة العدو بنفسه، ولكن هذه المقاومة مهما قويت شوكتها لا تكون نافذة المفعول إلا إذا كان لها قيادة حربية. والزيانيون لم يفكروا بل لم يقدروا على أن يكونوا قوة حربية، أشغلهم عن ذلك تنازعهم على السلطان والطموح إلى السيطرة والنفوذ. فقام الشعب بإعانة القوة البحرية التركية وطردوا العدو. ثم نظفوا بعد ذلك البلاد من أولئك السلاطين وأرغموا الحفصيين على التخلي عن مقاطعتي قسنطينة وبجاية. فاسترجع الشعب سيادته الكاملة. فإن تسلط الأسبان على البلاد كان له فعله البارز في تنبيه المجتمع وفي إعداد نهضته واسترجاع كيانه. إلا أن الأسبان ما كادوا يغادرون أرضنا حتى حل محلهم الأتراك، ولا تسل عما قاسى الشعب الجزائري من مرارات تصرفات الجند التركي. وفي أواخر القرن الثامن عشر تسلطت عائلتان يهوديتان، عائلتا بوخريص وبوشناق على الاقتصاد الجزائري، واحتكرتا أسواق الحبوب. أضف إلى ذلك تواطؤ الداي مع الفرنسيين حين وقع معهم معاهدة تضمن امتيازات للمركز التجاري الفرنسي وتسمح للفرنسيين بامتلاك قوة عسكرية داخل المركز مما يعد نيلاً من السيادة الجزائرية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى انفرد الأتراك بامتيازات على حساب أهل البلاد. فهذه الظواهر كلها كانت حافزاً رئيسياً لليقظة. فلجأ القادة إلى رجال الدين فأفتوا بشرعية

الثورة ضد الحاكمين، وأعلنوا حرباً عمت جميع البلاد، وفشلت لعدم قيادة خبيرة بأمور الحرب. ولكن لا يهمنا فشل هذه الثورة أو نجاحها، الأمر المهم عندنا هو أن الشعب أصبح واعياً يجسم أمة متلاحمة تشعر بواجبها وبالسهر على مصالح البلاد وعلى السيادة الوطنية، وأن البلاد لهم لا لغيرهم. أنهى الشعب على السلطة الزيانية، وأجلى الأسبان عن أرض الوطن. فصفا الجو ووقع استقرار نسبي كان له الأثر الحسن في الميدانين الاجتماعي والاقتصادي. فازدهرت حركة الفلاحة وتربية المواشي. وبجانب الزراعة نرى الصناعة أيضاً قد نشطت، فقد أحذق الصناع في النسيج والدباغة والأسلحة كالسيوف والمدافع الخفيفة، وفي صنع السفن في الموانىء الهامة. والفلاحة والصناعة تمدان التجارة، فنفقت في الداخل والخارج، والتبادل التجاري كان مع القطرين الشقيقين المغرب وتونس ومع بعض البلاد الأوروبية. كان يخرج من عنابة كل سنة اثنا عشر ألف قنطار من الصوف، ومن الجزائر ثمانية آلاف قنطار. وكان يخرج سنوياً من الجزائر أيضاً نحو 25 ألف جلد. وفي سنة 1788م خرج من مراسي الجزائر وعنابة وأرزو 150 ألف حمولة من القمح والشعير والخضر. وفي القمح الجزائري كمية كبيرة من السميد يستعمله أهل «جنوة» للعجين، ويصنعون منه الرغيف البحري الجاف والإطرية. وقد اشترى « محمد عثمان باشا» من الانجليز خمسين مدفعاً من الحديد على حساب الخزينة وجملة وزن هذه المدافع 1074 قنطاراً و75 رطلاً، ودفع ثمنها قمحاً، وثمن كل قنطار خمس كيلات. وباع رئيس السفينة التي نقلت هذه المدافع 3 أنجرات على سعر خمس كيلات قمحاً لكل قنطار. بجملة القمح الذي دفع ثمناً للمدافع 5373 كيلة وجملة القمح الذي دفع ثمناً للأنجرات 5506 كيلات. وهذا القمح أخذ كله من عنابة إلى انجلترا. إن هذا لدليل على كثرة القمح الذي كانت بلادنا تنتجه وقتئذ. فلم يكن كافياً للاستهلاك المحلي فحسب بل كان يصدر منه الكثير إلى أوروبا. فليس من العبث إذاً إن قيل: إن «نوميديا» كانت خزينة روما.

وكان يزرع الأرز في ناحية مليانة وجهة مينة، وينتج من الناحيتين

نحو ستة آلاف قنطار سنوياً وهي كافية لحاجة الشعب بحيث إن «جيمون» التاجر الفرنسي أتى إلى الجزائر بكمية من الأرز المصري، فلم يستطع بيعه إلا بعد أن تحمل خسارة وأرجع أكثره إلى مرسيلية[1]. وكانت الجزائر تستهلك كتانها لصنع أقمشة جيدة تستعمل في البلاد وترسل أحياناً منها الهدايا إلى «اسطنبول» ومن أهم المحصولات الجزائرية التبغ، فهو أطيب نوع للتدخين يرسل منه الكثير إلى تونس وليبيا.

ويلاحظ أن الأتراك لم يندمجوا في المجتمع الجزائري كاندماج الأندلسيين النازحين إثر الاضطهاد الأسباني المسيحي، وذلك لأن السياسة التركية كانت قائمة على التخوف من السكان الجزائريين وعلى حرمان هؤلاء من مناصب الإدارة والحكم، مما يفسر عدم انتشار اللغة التركية في الوسط الجزائري. إلا أن هناك من قربتهم السلطة إليها مثل الحاج محمد أمين السكة (1784م) وأخيه «عثمان خواجه». لما توفي هذا الأخير قام مقامه ولده «حمدان خواجه» الذي شغل الوظائف السامية إلى أن انقرضت دولة الأتراك. تثقف ثقافة متينة وأصبح أستاذاً في الحقوق. أخذ عن أبيه وعمه والشيخ محمد بن الشاهد والشيخ محمد بن عبد الرحمان والشيخ أحمد الحنفي والشيخ أحمد بن محمد المقايسي والشيخ الحاج أحمد الشريف الزهار والشيخ حسن بن أحمد والشيخ محمد بن إسماعيل والشيخ أحمد بن إبراهيم البابوجي والشيخ الحاج علي بن عبد القادر والشيخ محمد بن محمد الخوجة والشيخ محمد بن محمد بن علي والشيخ الحاج محمد بن أحمد بن مالك». وتعلم اللغة التركية مما جعله يشغل منصب ترجمان بالمطبعة العامرية بالقسطنطينية. وفي أثناء اشتغاله بالترجمة نقل كتابه «إتحاف المنصفين»، الذي قدمه وحققه الأخ «محمد بن عبد الكريم»، من اللغة العربية إلى اللغة التركية. وقد أهدى هذا الكتاب إلى السلطان «محمود خان الثاني بن عبد الحميد الأول» (1200-1255هـ) بالعربية، و«البروتوكول» يقضي بأن الهدية تقدم بلغة المهدى له. لم يتعلم اللغة

---

(1) توفيق المدني: محمد عثمان باشا.

التركية على مقاعد المدرسة، لأن ليس ثمة مدرسة تلقن اللغة التركية، فليس من شك أنه تعلمها من أبيه وعمه وباحتكاكه برجال الديوان، ثم اتقنها اتقاناً عندما نزح إلى القسطنطينية، لأنه سافر إلى عاصمة الأتراك مع عمه حين بعثه «محمد عثمان باشا» بهدية إلى الباب العالي وعمره حوالى ثلاث عشرة سنة؛ وقد ذهب إلى القسطنطينية مرة ثانية إذ يقول إنه مكث أسبوعاً بتونس عند رجوعه من العاصمة التركية وذلك سنة 1801، ولعل ذهابه إليها كان لتثقيف نفسه، لأنه لم يقصدها، على ما نعلم في مهمة سياسية أو تجارية. وكان يحب الأسفار ويتردد على فرنسا، وتعلم لغتها، وأمكنه هكذا أن يتصل بثقافتها «بما فيها من حضارة عريقة ومدنية حديثة ونهضة مزدهرة بأنوار العرفان التي سرعان ما شدا منها حمدان وكان لها قناطير الإطراء وأطنان المدح»[1]. وقد كتب بالعربية مؤلفاً أسماهُ «المرآة» ترجمه إلى الفرنسية «حسونة دغيز»، وزير الخارجية للحكومة الطرابلسية. ونشره بالفرنسية تحت عنوان «لمحة تاريخية وإحصائية على الجزائر المحمية»، وذلك في شهر أكتوبر سنة 1883م[2]. وتظهر اتجاهاته التقدمية لثقافته الواسعة بالنسبة إلى عصره ولاحتكاكه بالمفكرين في كتاب «إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء». وكانت الثقافة الإسلامية حينئذ بيد الفقهاء المتزمتين الذين ينبذون كل ما جاء عن الإفرنج من أسباب الرقي وتنوير العقول. فكتاب حمدان يعد ثورة على ثقافتهم التي ترفض كل ابتكار وتجديد وابتداع متواصل بينهم وبين غيرهم.

من مآثر الأتراك عدد لا بأس به من المنجزات المعمارية كالقصور والمساجد والقلاع العسكرية والسدود والسواقي. وكل هذا قام به صناع جزائريون وأبناء النزلاء.

يحدثنا «هيدو»[3] أنه كان بالجزائر العاصمة في آخر القرن السادس عشر الهجري مائة مسجد، و«دفلكس»[4] ثلاثة عشر مسجداً كبيراً ومائة

(1) محمد بن عبد الكريم: إتحاف المنصفين والأدباء صـ: 261.
(2) نفس المصدر.
(3) Haedo
(4) Devoulx.

وتسعون مسجداً صغيراً واثنا عشر معبداً واثنتا عشرة زاوية.

تولى الحكم بالجزائر سنة 1070هـ (1660م) «رمضان آغا». فإليه يرجع بناء المسجد الجامع الجديد الواقع بميدان الشهداء (شكل 62). تصميمه يشبه تصميم الكنيسة، ولهذا يقال إن المهندس الذي أشرف على تخطيطه وتشييده كان من الأسرى المسيحيين. والمحراب هو تجويف في الجدار القبلي كُسي بالزليج، والمنبر الموجود اليوم بهذا الجامع هو منبر مسجد «السيدة» الذي هدم بعد الاحتلال. أما مئذنته فهي مربعة على شكل برج تعلوها ساعة وضعها المستعمرون.

وقد قيض الله للجزائر في عصر الباشوات أميراً عالماً عادلاً زاهداً متفانياً في إعلاء سلطانه هو «محمد عثمان» باشا. لما مرض «علي باشا» وصى بأن يتولى الحكم بعده «محمد عثمان». فجلس هذا على كرسي الملك سنة 1179هـ (1766م) إلى أن توفي يوم الأحد الحادي والعشرين من شعبان سنة 1205هـ (1791م). له مآثر مشرفة: فقد بنى الأبراج، وهو أول من صنع اللنجور (الطرادة) وشيد مسجد «السيدة» وزينه باسطوانات الرخام الأبيض[1]، وكسا حيطانه بالزليج حتى لا يرى البياض بداخله إلا المنبر الذي حدثناك عنه أعلاه.

ومن إنجازاته التي يشكر عليها أنه أوصل ماء الحامة إلى العاصمة ووزعه على الأبراج والثكنات العسكرية والمساجد والميضات العمومية، وما بقي فرقه على العيون بأزقة البلد ليسد السكان منها حاجتهم.

قامت خلافات بين السلطات الجزائرية وفرنسا في عهد «محمد عثمان» باشا. فأوفدت فرنسا «فونتير دي باردي» إلى الجزائر لتسوية هذه الخلافات فقام هذا الديبلوماسي بمهمته ومكث سنتين بالعاصمة الجزائرية درس خلالها نظمها وترتيبها وكتب عنها المذكرات القيمة. وإثر ذلك توظف

(1) التي وضعت على مدخل الجامع الكبير إثر تهديم جامع السيدة.

في السفارة الفرنسية بدار الخلافة، وبقي فيها إلى أن دعاه «بونابـرت» لمشاركته في أعماله بمصر.

فإن أيام «محمد عثمان باشا» قد ازدانت برجلين قلما يجود الزمان بمثلهما وهما «صالح بن مصطفى» باي قسنطينة و«محمد الكبير بن عثمان» باي وهران. فلكلا الرجلين صفحات مجد وفخار كما قال «توفيق المدني»، أما الأول فقد ولد بأزمير سنة 1725م. وفي السادسة عشـرة من عمره شخص إلى الجزائر. فأولاه «محمد عثمان» باشا باياً على قسنطينة سنة 1771م، فكان عصره عصر نهضة ورخاء بتلك الديار. فسعى في تجميل العاصمة الشرقية أنجز أعمالاً مشرفة. أنشأ مسجد سيدي «الكتاني» سنة 1190هـ (1776م) والمدرسة الملاصقة له والتي بها ضريحه والقصـر الذي اختطه لسكناه وهو قريب من المسجد المذكور. وقد كان اليهود يسكنون في مدينة قسنطينة مختلطين مغ المسلمين. فأقطع جهة باب القنطرة على أن يبنوا بها «ملاحهم» ففعلوا. ثم أنشأ لطلبة العلم مدرسة. بجوار مسجد سيدي «الخضر» سنة 1789م. فقال عنه «فايسات»[1] «أنه نظام، لو قابلناه بنظام المدارس الفرنسية العليا في ذلك العصر لما كان دونه». ولقد تخرج من هذه المدرسة عدد كبير من رجال العلم.

ولقد زار في أيام هذا الباي العالم الطبيعي الفرنسي «دي قنتان». فقال في رحلته: «لقد أسكنني الباي داراً من دياره الخاصة، وأمر أن يقدم لي كل ما أحتاج إليه. وقد زرته، فاستقبلني بغاية الانعطاف، وقدم لي كرسياً رفيعاً للجلوس. وكان يتكلم الإيطالية بسهولة.

وللباي جماعة من العبيد الإيـطاليين، وطبيبـه الجراح إيـطالي من «نابولي». ولقد طلبت من الباي أن يمدني بحراس يصحبونني إلى مدينة عنابة. فقبل ذلك بغاية السرور... «وشوارع المدينة ضيقة إلا أن ديارها

Vaysettes (1)

حسنة البناء وسقوفها من القرميد، وأغلب أنهجتها مفرش بالحجارة»[1]. واستمر الباي «صالح» على حسن تدبير شؤون ناحيته إلى أن انتقل إلى رحمة الله.

وأما الثاني فهو «محمد باي الكبير». هو «محمد بن عثمان الكردي». وكان والده «عثمان الكردي»، قائداً بمدينة مليانة ثم بمقاطعة تيطري. تعاطى «محمد الكبير» العلم والفروسية فنبغ في كليهما. لما مات أبوه بقي تحت «إبراهيم» باي وهران. فزوجه ابنته وأشركه معه في شؤون الإدارة. وعندما توفي «إبراهيم»، عينه الداي «محمد عثمان» باي الناحية الغربية لشهرته بالشهامة والحزم والجد والتفاني فيما يرضي الله والناس. فقام بأعمال جليلة منها تهديم المسجد العتيق وإعادة بنائه بصفة بديعة بعد أن وسع أطرافه، وتجديد جامع السوق وإضافة رواقات جديدة إليه، وجلبه الماء في القنوات إلى المدينة وإجرائه أيضاً خمسين ديناراً ذهباً لكتاب في علم الطب اقتبسه من مؤلفات أخرى، ثم أجازه عندما قدم له كتابه في علم الأدب «عقود المحاسن» وكتابه شرح «العقيقة». قد امتدحه «ابن علال» إثر غزوة غزاها، فأعطاه خمسين محبوباً ذهباً. وجمع هذا الباي جماعة من الناسخين المشهورين بجودة الخط كانوا يشتغلون بصفة مستمرة بنسخ الكتب وتعمير مكتبة القصر الخاصة ومكتبة المسجد العامة. وكان في أوقات الراحة يغشى مكتبته ويطالع.

فكان متضلعاً في العلوم اللسانية حافظاً لأشعار العرب متوسعاً في علوم الدين، وكان له اطلاع على علم الطب كجل علماء الإسلام. فكان يجهز بنفسه الأدوية المختلفة ويوزعها على أفراد الشعب ويتفاخر بذلك فيقول: أنا طبيب الفقراء. فكان تقياً نقيّاً يرسل كل سنة هدية مالية إلى الحرمين الشريفين ويبعث كل سنة بمملوك لخدمة الحرم النبوي.

وإلى هذا الباي الشجاع يرجع الفضل في دحر الأسبان من وهران بدون قيد ولا شرط في التاسع والعشرين من شباط سنة 1792م، وضم

(1) عن توفيق المدني: محمد عثمان باشا صـ: 154.

المدينة إلى الرقعة الجزائرية، فأصبحت تحت رعايته وعنايته مدينة غنية زاهرة بعدما كانت خربة. وتمادى في أعماله التي خلدها أحد علماء عصره الشيخ «أحمد محمد بن سحنون» الشريف، في كتابه «ابتسام الثغر الجماني».

والجالس على عرش المملكة المغربية كان وقتئذ السلطان «مولاي محمد بن عبد الله بن إسماعيل العلوي». وكانت العلاقات بين هذا العاهل وبين الباي «محمد الكبير» على أحسن ما يرام صفاء وإيخاء وكانت الهدايا السنية دائمة بينهما.

-جلس «محمد حسن» باشا على عرش الملك بعد «محمد عثمان». ومن محاسنه إتحاف العاصمة بمسجد كتشاوة (شكل 63-64) وذلك في سنة 1209هـ (1794م). فإنه أهم مساجد العصر التركي. قاعة الصلاة يبلغ طولها أربعاً وعشرين متراً وعرضها عشرين. والأعمدة من الرخام جيء بها من إيطالية، والأقواس على شكل حدوة الفرس. يقول «ديفولكس»: «إن المسجد كان يحتوي على صور وكتابات جميلة»، ويتوسط هذا المسجد قبة عظيمة من الطراز التركي. وللمسجد مئذنتان مشطوفتا الأركان الأولى على يمين الباب والأخرى على يساره وعلى شكل مثمن، نجد الدورة الأولى ثم يستمر البناء مثمناً أيضاً، ونجد الدورة الثانية، وتنتهي المئذنة، في أعلاها، بمخروط مدبب. وهذا الطراز من المنارات، ومن القبب نجده في شرق البلاد وحتى بوهران. فجميع المنجزات المعمارية التركية بالجزائر دانت إلى موجة التأثير بالمشرق. وقد عمت هذه الموجة الفن الموسيقي أيضاً. أدخلوا عليها عناصر جديدة امتزجت أجزاؤها بالغناء القديم وركبت إدخالات تركية الأصل وفارسية وبعضها يونانية على قول الاختصاصيين في هذا الفن. وتسربت ألحان وأغان شعبية باجتهاد كبار الموسيقيين. إن أنصت إلى أنغام الموسيقى القسنطينية مثلاً وجدت أن الطابع التركي واضح ملموس فيها بيد أن هذا الطابع تحس به يقل تدريجياً حتى يتلاشى تماماً بقدر ما تبتعد من شرق الجزائر إلى الجهة الغربية وذلك لأن غرب الجزائر كان دائماً منذ

المرابطين تحت تأثير الحضارة الأندلسية المغربية. فجميع الآثار المعمارية والموسيقى بتلمسان لدليل قاطع على ذلك.

نلاحظ أن وجوه الأتراك كانت متجهة نحو الحروب، فلم يعطوا، باستثناء من ذكرنا منهم أعلاه، لأمر الثقافة ما تستحقه من عناية واهتمام ولهذا غلب على عهدهم طابع الجفاف الفكري. إلا أننا لا ننكر بأن مدناً مثل بجاية وقسنطينة وتلمسان ومازونة لم تزل محافظة على ما ورثته من التراث الفكري. فنبغ فيها رجال خلفوا لنا علوماً وأدباً. ونوافيك بأخبار من رحلوا واتصلوا بعلماء وأدباء الأقطار الأخرى حينئذ.

فقد ارتحل أحمد بن يونس بن سعيد بن عيسى الحميري القسنطيني إلى البقاع المقدسة وحج سنة 837هـ (1344م)، وتتلمذ هناك لكثير من العلماء، وجاور بالمدينة ومكة وتزوج هناك وأقرأ، وارتحل إلى القاهرة حيث لقي «السخاوي». فقال: «لقد لقيته بمكة ثم بالقاهرة واغتبط وسمع مني بعض الدروس وسمعت أنا كثيراً من فوائده ونظمه».

أما «أحمد بن يحيى بن محمد الوانشريسي» فكان متخصصاً في علوم الشريعة والأصول. ارتحل إلى فاس، فاستوطنها وانقطع فيها للتدريس. فتخرج على يده جماعة من كبار العلماء مثل ولده «عبد الواحد» و«أبي عباد ابن مليح» اللمطي والأستاذ «أبي زكريا السوسي» والفقيه «محمد بن عبد الجبار» و«الورتدغيري» المصمودي وقاضي فاس «محمد بن الغرديسي الثعلبي». وقد خلف كتباً عديدة منها المعيار.

وقد ارتحل إلى الحجاز «محمد النقاوسي» القسنطيني وعاد إلى بلاده، ثم ارتحل إلى تونس ومن ثم إلى الحجاز وقد لقي «السخاوي».

وعاصر النقاوسي «محمد بن عبد الكريم المغيلي». ارتحل هذا إلى بلاد التكرور. فوصل مدينة «كاغو»، واجتمع بسلطانها «ساسكي محمد الحاج»، وألف له تأليفاً أجابه فيه عن مسائل. وعاد «المغيلي» إلى توات» حيث توفي سنة 909هـ (1504م). وكان «جلال الدين السيوطي» قد حرم

علم المنطق. فراسله المغيلي ملاحظاً غليه موقفه هذا في قصيدة تجدها مصحوبة بجواب السيوطي في كتابنا تاريخ الأدب الجزائري ص: 336. وله تآليف كثيرة ذكرها «التنبوكتي» في «نيل الابتهاج».

ومن علماء القرن العاشر الهجري «محمد بن أحمد التلمساني بن الوقاد». أخذ العلم عن مشايخ بلدته منهم التنسي الذي ختم عليه البخاري ست عشرة مرة ونبغ. رحل إلى المغرب الأقصى ودخل تارودانت وولي بها قضاء الجماعة. ثم انتقل إلى مكناسة الزيتون ثم إلى فاس وتولى في كلا المدينتين الخطابة. ولكن لم يلبث أن رجع إلى تارودانت واستقر بها. توفي رحمه الله، سنة 1001هـ.

ولعل من أحرز قصب السبق في ميدان الثقافة في القرن الحادي عشر الهجري «شهاب الدين المقري التلمساني». رحل إلى فاس سنة 1009هـ، فأخذ عن علمائها ثم عاد إلى بلده، فمكث بها سنتين ثم غادرها ثانياً إلى فاس سنة 1012هـ. فانقطع هناك إلى الدرس. فتبحر في علوم الشريعة والأدب والتأريخ وانتهت إليه رئاسة علماء زمانه، وترامى صيته في الآفاق. ولقي من أولي الأمر هناك إعزازاً كبيراً. ولي الإمامة والخطابة بجامع القرويين، وقلد الفتوى، وبقي في هذا المنصب نحو ثلاث عشر سنة. ثم هاجر من المغرب في أواخر رمضان سنة 1027هـ (أيلول 1618م) فقصد مصر ثم الحجاز. فأدى فريضة الحج، ثم دخل القاهرة في شهر رجب سنة 1028هـ (حزيران 1619م). فسكنها وتزوج فيها. فاشتهر وعلت منزلته وتبارى الأدباء والشعراء في مدحه بقصائد ورسائل بليغة وجرت له معهم مساجلات شعرية ومطارحات علمية. وزار بيت المقدس، ثم عاد إلى القاهرة، ومنها كرر الذهاب إلى البقاع المقدسة وأملى فيها، على قصد التبرك، دروساً عديدة، ثم رجع إلى القاهرة. ثم تاقت نفسه إلى العودة إلى القدس حين ألقى هناك دروساً قيمة بالمسجد الأقصى كانت سبباً في اتصاله بكثير من علماء وأدباء فلسطين. ثم دخل دمشق، ففرح علماء الشام وبالغ أهلها في إكرامه. وهناك أملى صحيح البخاري بالجامع

الأموي، وحضره غالب علماء دمشق. وأما الطلبة فلم يتخلف أحد منهم. ودخل بعد ذلك إلى القاهرة واستقر إلى أن مات، وذلك في جمادى الآخرة سنة 1041هـ، إلا أن ذكره لم يمت. فقد خلف ثروة أدبية ممتعة نثراً وشعراً. ألف كتاباً مدة إقامته بفاس بين سنتي 1013 و1027 للهجرة وسماه أزهار الرياض. وكان الباعث له على تأليفه رغبة أهل تلمسان في التعريف بالقاضي عياض عالم المغرب. وقد ألم في هذه الترجمة بكثير من شؤون بلاد الأندلس وذكر طائفة كبيرة من الأخبار والنصوص المغربية. وألف كتاباً آخر لا يقل أهمية عن الأول بعد سنة 1038هـ، في القاهرة استجابة لرغبة بعض أعيان دمشق وعلمائها في التعريف «بلسان الدين بن الخطيب»، وأسماه: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر لسان الدين بن الخطيب». ذكر فيه كثيراً من أخبار ذلك الفردوس المفقود. وفرغ من تأليفه وإملائه سنة 1039هـ، أي سنتين قبل وفاته. فقد أفاد بكتابه المشارقة والمغاربة. وخلاصة القول فإن المقري كان من أكبر مثقفي عصره، له المقام الرفيع في الفقه والتفسير والحديث والشهرة الواسعة في التأريخ وفنون الأدب.

ومن اشتهر من العلماء في النصف الأخير من القرن الحادي عشر الهجري «يحيى بن محمد الشاوي الملياني». ولد بالعاصمة، لم يكتف بما قرأه من المعقول والمنقول ببلده وبمليانة، فقصد بلاد الكنانة ودرس بالأزهر. ومن ثم شخص إلى تركيا، فحضر مجلس العلم الذي انعقد بحضرة الخليفة العثماني. فشارك في مباحث، واعترف الجميع بفضله، وجلس للإقراء في دار الخلافة. ومن تآليفه حاشية على أم البراهين وأصول النحو. توفي سنة 1096.

وممن اشتهر في القرن الثاني عشر العالم «محمد بن عبد الكريم الجزائري» رحل إلى المشرق والمغرب، وقد اتصل بالشريف «مولاي إسماعيل» عاهل الدولة العلوية، ونال مكانة سامية عنده. توفي في سنة 1102هـ. ومعاصره «محمد بن أحمد القسنطيني» المعروف «بالكماد» هو

الآخر جال في الأوساط العربية شرقاً وغرباً بعدما أخذ عن «المقري» و«سعيد قدورة» و«محمد بن عبد المؤمن» قاضي الجزائر وغيرهم. وصل إلى تطوان ووقعت وحشية بينه وبين قاضيها الفقيه «عبد الله بن قريشي». توفي سنة 1116هـ.

والعالم «أحمد بن عثمان التلمساني» هو الآخر جاب الآفاق بين المشرق والمغرب ونفع الناس بعلمه الغزير. توفي سنة 1151هـ.

ومن رجال أواخر هذا القرن «علي بن محمد الجزائري»[1]. قصد دار الخلافة. فقربه السلطان وحظي عند الوزراء ولقي علماء كثيرين. توفي سنة 1185 ومن معاصريه «محمد أمزيان الملياني». انتصب للتدريس في موطنه، ثم رحل إلى المشرق واستقر بمصر، فاشتهر فيها وعلت منزلته لدى علمائها. قضى نحبه هناك سنة 1199هـ.

ومن علماء القرن الثالث عشر «حمودة المقائسي الجزائري» من أعلم علماء العاصمة. ارتحل إلى مصر وجاور بالأزهر، ولازم العلامة «محمد الدسوقي» حتى أجازه ورحل إلى بلاده. فمر في طريقه بتونس وأقرأ بها.

ونختم كلامنا على علماء هذا العصر بذكر «أحمد الشريف الزهار». ولد حوالى 1781م بمدينة الجزائر. اتصل بالإدارة التركية. أبعدته فرنسا عندما احتلت العاصمة سنة 1832م. فقصد حينئذ تونس بصحبة أولاده، واستقر بها بضعة أعوام، وحضر دروس العلامة «إبراهيم الرياض» والشيخ «الحاج الطيب بن عيسى الجزائري» وغيرهم. ومن هناك انتقل إلى قسنطينة وكتب لبايها. ولما دالت دولة الأتراك بالجهة الشرقية التحق بمعسكر «الأمير عبد القادر»، فتولى كتابة سره إلى أن كانت الطامة الكبرى فنجا بنفسه إلى بلاد المغرب الأقصى واستقر بتطوان مدة ثلاث سنين. ولما بسطت فرنسا نفوذها على الجزائر ولم تبق مقاومة علانية عاد الشريف إلى العاصمة بصحبة أولاده. ومن مؤلفاته كتاب ذكر فيه حوادث «أحمد باشا» باي قسنطينة و«الأمير عبد القادر».

---

(1) ولد بالجزائر سنة 1136.

الفصل الرابع عشر

الروابط الثقافية بين الجزائر وفرنسا

1) السياسة الإبادية لكل ما يربط النشء بماضيه.
2) سياسة الإجبار على التعليم بالفرنسية.
3) المقاومة الوطنية ونشر الثقافة العربية: إحياء اللغة وتطوير الأدب: القصة والمسرح
4) دور الأدب الفرنسي، اللغة في المعركة السياسية الاجتماعية.
5) أهمية اللغة الوطنية في بناء كيان المجتمع.

انقضت فرنسا على الجزائر سنة 1830م وأمكنها أن تستولي عليها لكثرة عُددها وعَددها. فأبعدت العنصر الإسلامي عن الحكم، وقسمت البلاد إلى عمالات ومقاطعات فرنسية. وكان المشير «دو برمون»[1] الفاتح الفرنسي، قد تعهد على احترام الدين وشعائره ومؤسساته. ولكن، لم يكد يستتب له الأمر حتى أعلن مصادرة كل أوقاف المسلمين من أرض وعقار، ومصادرة كل ممتلكات أبناء البلاد من الأتراك ووزعها على المعمرين، كما فرق كامل الأراضي التي تقيم فيها القبائل الرحالة. فهكذا أصبح بيد الاستعمار أكبر مساحة من الأرض. ولم يكتف الفرنسيون بالاستيلاء على ما فوق الأرض، بل استحوذوا على كل ما تحتها أيضاً. احتكروا المعادن والتجارة، وتعهدوا سياسة تفقير الأهالي وتجهيلهم، وجعلوا الدين الإسلامي ملكاً خاصاً من ممتلكات الدولة الاستعمارية تتصرف فيه بحسب هواها: أصبحت الأوقاف الإسلامية تحت نفوذها وكل المساجد والمؤسسات الإسلامية تحت مراقبتها. كانت قبل الاحتلال الفرنسي الكتاتيب والمساجد والزوايا منتشرة في جميع أنحاء البلاد يتلقى فيها الجزائريون ثقافتهم العربية الإسلامية ويشهد بذلك «أوجن لومب» حيث يقول: «مما لا شك فيه أن التعليم في الجزائر خلال عام 1830 كان أكثر انتشاراً وأحسن حالاً مما هو عليه الآن. فقد كان هناك أكثر من ألفي مدرسة للتعليم بدرجاته المختلفة

Le Maréchal de Bourmont (1)

فضلاً عن مئات المساجد». ولا يجهل الاستعمار أن العلم سيف قاطع. فإذا تسلح به الجزائري استطاع أن يقاومه، فسعى حينئذ في تجهيل الأمة الجزائرية وإبعادها عن تراثها الفكري وتحطيم المقومات الأساسية في مجالات التعليم والثقافة والصحافة والأدب والتأريخ واللغة العربية حتى يقضي على القومية العربية والشخصية الإسلامية، فلا يعرف الجيل الجديد العوامل الحية للأمة والكيان الجزائري العربي الإسلامي فيسهل عليه بلعهم وتقريبهم وفَرْنستهم.

وفي سنة 1883م، أخذ الاستعمار يفتح أبواب المدارس في وجه أبناء الجزائر، لكن التعليم كان فرنسياً بحتاً. فكيف لا والجزائر أصبحت عنده قطعة من فرنسا ولغتها الفرنسية. ولم يكن القصد في تعليم الجزائريين الاستجابة لصوت الأمة المتعطشة للعلوم والعرفان، وإنما تقريبهم من فرنسا بواسطة اللغة الفرنسية حتى يتأتى ابتلاعهم وإدماجهم. فأصبحت اللغة العربية، لغة البلاد، في المدارس الثانوية، لغة اختيارية، كأنها لغة أجنبية في بلادها. أما في المدارس الابتدائية فلا أثر لهذه اللغة التي تكون بها، في الماضي القريب، الشعراء والكتاب والخطباء والعلماء والمفكرون. فهكذا أمكن للاستعمار أن يخلق موظفين يساعدونه في توطيد نفوذه ومثقفين يؤمنون بالفكر الغربي. إنه عمل ما في وسعه في كتبه التاريخية لبث التشكيك في البطولات الجزائرية ولنفي فكرة أنه كان للجزائر دولة وأمة مترابطة لها ثقافتها وقيمها منذ عهد سحيق. والثقافة الإسلامية العربية لم تخب نارها في الجزائر رغم تعسفات العدو، فالبصيص الذي بقي منها قاوم هذه الأفكار وهذه الأعمال الهدامة وأكد للعدو الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية. هذا، ولم يغلق الشعب الجزائري على خير ما في الفكر الغربي، بل تقبله وانتفع به بدون أن يظهر منه إهمال على كيانه وملامح شخصيته وقيمه ومقوّماته وتراثه.

ولم يلبث الاستعمار أن أغلق المدارس العربية لأنها تعلم العربية

والتاريخ والأدب التي هي خطر عليه، وفتح مكانها المدارس الفرنسية ذات البرامج الفرنسية لا يجد فيها الجزائري إلا ما يضعف فيه الروح العربية الإسلامية ومن ثم شخصيته الجزائرية ومقوماتها. والمدارس العربية أغلقت بالقوة، ولا تعطى رخصة لفتح أبوابها من جديد إلا للذين يلتزمون تعليم القرآن فقط وبدون تفسير. فحرام عليهم أن يلقوا دروساً في اللغة أو الأدب أو التاريخ أو الجغرافية. وكل هذه المواد تبعث الوعي في عقل طالبها. فما اللغة إذن إلا لغة فرنسا وما الأدب إلا أدبها وما التاريخ إلا تاريخها وما الجغرافية إلا جغرافيتها. فإذا أراد الجزائري أن يتزود منها ويأخذ حظه من الثقافة فليقصد المدارس الفرنسية. فلا يمكن للنشء أن يبقى بدون ثقافة. فاضطر حينئذ إلى قصد تلك المدارس ينهل من حياضها. فقال «محمد فريد»: «إن حالة التعليم في القطر الجزائري سيئة جداً. ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل العربية في جميع المعاملات بل ربما تندثر العربية بالمرة مع مضي الزمان». ولكن قيض الله للجزائر جمعية العلماء. فقد رسمت مخططاً وتبعته بالتدقيق لإحياء اللغة العربية والإسلام. وقد أتم هذا المخطط وأتى بثمرات يانعة كانت ضربة قاضية على مخطط الأعداء. وكان وقتئذ جامعتان في إفريقية الشمالية على جانبي الجزائر ألا وهما الزيتونة و«القرويين». فأخذ الطلبة الجزائريون يقصدونهما ليأخذوا حاجاتهم من الثقافة الإسلامية. فتخرج منهما جميع حملة الأقلام والمفكرون الذين شمروا عن سواعدهم وقاوموا سبيل الأفكار الهدامة التي كان الاستعمار يفرغها في أذهان المثقفين بثقافتهم من الجزائريين أبناء البرجوازيين والأعيان.

فـ«الثعالبي» و«ابن باديس» و«أبو اليقظان» كلهم خريجو الزيتونة. إلا أن في الزيتونة وفي القرويين لم يجد طلابنا ما يحتاجون من العلوم الحديثة التكنولوجية التي بها يسايرون الواقع الحضاري فيكونوا مثل إخوانهم الذين تعاطوا الثقافة الغربية، إلا أن هؤلاء نبذوا التراث الثقافي وأصبحوا بعد حين يطالبون بمحو عقليتنا ونبذ الشخصية التي نتحلى بها

والتي هي، في زعمهم، أجنبية عنا حيث أخذناها عن العرب، وكأن الجزائريين ليسوا بعرب، وعن الأندلسيين الذين استوطنوا الجزائر. فالعقول عندهم لا تتفتح إلا بفضل اللغة والثقافة الفرنسيتين. فلمثل هذه الأفكار التي غايتها إذابة الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية قام المتشبثون بثقافتنا يناضلون بأقلامهم وخطبهم ويحاولون تكسير السد الذي أقامه المستعمر بيننا وبين إخواننا بالمشرق العربي. فأمكنهم الأخذ بتلابيب النهضة الشاملة بالمشرق . فأخذ نطاق الثقافة العربية الإسلامية بالجزائر يتسع بهم والنضال يقوى.

والجزائريون قد برهنوا، والتاريخ يشهد، على القابلية والتجريد والالتقاء مع الثقافات المختلفة. لم تعرف الثقافة الجزائرية جموداً ولا تحجراً البتة، وقد بينا ذلك أعلاه. فثقافتهم القومية هي التي ورثوها عن أجدادهم الذين هم مزيج من العرب والبربر وأصبحوا منذ عهد سحيق جزءاً من الحضيرة العربية لغة وأدباً وفناً وقيماً. وهذه الثقافة تربطهم بماضيهم الزاهر. فمن العبث إذن أن يتركوها ويتشبثوا بثقافة غريبة عنهم وحدها. يريدون أن يتقدموا في الميدان التكنولوجي ولكن بشرط ألا يسلخهم هذا التقدم من عروبتهم وإسلاميتهم .

فالشخصية الجزائرية الحديثة هي ثمرة التفاعل بين الحاضر والماضي. والإسلام ليس ديناً فقط فهو حضارة كاملة، هو دين وأدب وفنون وجهاز خلقي وجهاز قانوني. وأداة هذا كله هي اللغة العربية التي راح المستعمرون وخريجو المدارس الفرنسية يرمونها بالعقم وبالعجز. فهي أداة تلك الحضارة الإسلامية الزاهرة التي اقتبست من شعلتها أوروبا جذور حضارتها الحاضرة. فما بالها، أصبحت اليوم غير قادرة على تأهيل أصحابها إلى الرقي؟ فما الغرض بقذفهم العربية بنبالهم السامة إلا قتل هذه اللغة لما فيها من خطر على بقائهم في الجزائر لأهمية اللغة بين مقومات القومية. فقد نجحوا في نشر اللسان الفرنسي إذ اتصل الشعب بأدبهم من شعر ونثر وقصة، ولكنهم لم يقدروا أن يميتوا اللغة

العربية التي ظلت حية صامدة تدعو أهلها إلى مواصلة الكفاح والذود عن الكيان. فتمسك الشعب بلغته وضن بها. لا يهمه قول المستعمرين ولا خريجي مدارسهم وجامعاتهم من أبنائها. لقد أرغمت فرنسا الجزائريين على ترك لغتهم إلى لغتها وأوحت إلى كثير منهم أن اللغة العربية لا تساير المدنية وأن الإسلام ليس دين المدنية والعظمة. فكونت فيهم بهذا عقدا خطيرة أضر من الاستعمار نفسه إذ صاروا يحاربون نفسهم بنفسهم وهم لا يشعرون. ففرنسا لم تكن تهدف السيطرة الاقتصادية فحسب فسياستها كانت ترمي إلى تحويل الإنسان الجزائري إلى إنسان فرنسي ينفر من لغة آبائه وتاريخ حضارة الجزائر.

كل يعرف، أن الأمة الجزائرية كان لها قبل الاحتلال الفرنسي مقوماتها. لقد بينا أن الجزائر قد ساهمت في بناء صرح الحضارة العالمية وفي صنع تاريخ البحر المتوسط عبر العصور، وارتبطت بمختلف الصلات والعلاقات التجارية مع العالم الخارجي، ورحل من أبنائها الكثير إلى الخارج يبحثون عن الثقافة، ونزل بها مهاجرون من مختلف البلدان أثروا وتأثروا. فكانت أمة بمفهومها المعروف: أما لها حدودها الجغرافية. فكان الجزائريون يحسون دائماً بالوحدة الوطنية منذ عهد مصينيسا وقد تجسمت هذه الوحدة عند اعتداء الرومان والوندال والروم والأسبان وفرنسا مؤخراً عليهم. فقاوموا كرجل واحد وذادوا عن كل شبر من القطر الجزائري، وقد تجسمت أكثر عندما قام الشعب بأكمله لخوض المعركة الأخيرة التي كللت بالنصر المبين ودحر العدو نهائياً. فقد وجدت فرنسا عند تعديها على الجزائر مجتمعاً منظماً له حضارته وثقافته الموروثة عن الأجيال الماضية. وقد شنت عليه حرباً تريد بها إبادته. ولكنها لم تقدر، فظل صامداً، لأذاها. وأمكنه أن ينقذ نفسه من شرها ويخرج ظافراً في معركته ضد الطغيان. فمن ذا الذي يصدق فرنسا بأن الجزائر لم تسبق لها ثقافة. فلا يمكننا أن نتصور أمة لا تملك ثقافتها الخاصة بها. ولقد تختلف هذه الثقافات من مجتمع لآخر قوة وضعفاً تبعاً للظروف التاريخية والاجتماعية التي يعيشها هذا المجتمع أو ذاك، ولكنها

موجودة فعلاً. ومن السذاجة أن نتصور كذلك أن هناك حضارة يمكنها أن تتطور بمعزل عن غيرها من الحضارات الأخرى. فكانت للجزائر حضارة وقد أثبتناها أعلاه، وحضارتها جزائرية خالصة تطورت تحت تأثير علاقات ثقافية نشأت نتيجة الظروف التي عاشها المجتمع الجزائري نفسه. فكانت للجزائر مراكز تجارية في القديم وفي القرون الوسطى يختلف عليها مختلف الأجناس لهم عاداتهم وثقافتهم وتقاليدهم، فيتصلون بالجزائريين ويؤثرون ويتأثرون.

لقد استطاع الشعب الجزائري أن يطور حياة ثقافية بلغت ذراها في عهد الحماديين. وقد وجدت فرنسا الجزائر دولة مستقلة تعترف بها جميع الدول، وكان لها علاقات ديبلوماسية وتجارية مع أمريكيا (1795م) وفرنسا وإيطالية وغيرها من دول الشرق والغرب. وكان لها قوة بحرية حمت بها شواطئها. والحالة الاقتصادية كانت لا بأس بها: الزراعة مزدهرة والصناعة منتشرة ومعامل الأسلحة والمراكب والخشب موجودة بوفرة في غابات التل. وكانت القوافل غادية رائحة بين الجزائر والسودان، يستورد تجارنا الذهب ومنتوجات محلية ويبيعونها بالبلاد المحيطة بالبحر المتوسط. ولكن طرق تجارة الذهب التي كانت تدر على التجار وبالتالي على الخزينة المال الكثير تحولت نحو مصر ثم نحو سواحل إفريقية الشرقية بعد اكتشاف طريق الرجاء الصالح. فعرفت البلاد حينئذ تدهوراً ساعد عليه الاستعمار الفرنسي وقد فرض على الشعب ثقافته على حساب ثقافة الأجداد، واتخذ سياسة إبادية لكل ما يربط الشبيبة بماضيها. لقد صور العربي شخصاً فوضوياً والبربري سلبياً لا شخصية له، وبث هذه السموم في شبابنا حتى أخذ يعتقد أن الشعب الجزائري لم يكن له ثقافة ولم يكن له ماض يعتز به. فشك في قيم بلاده وفي كل ما تملك من تقاليد وتراث، بل صار يحتقر لغة أجداده وكل ما يتعلق بها من ثقافة. وكيف ، وقد تقطعت الأسباب التي تربطه بلغته وتاريخ بلاده وثقافتها التي هي ثمرات تفاعل الحضارة الجزائرية بحضارات البلاد التي

اتصلت بها سلمياً حيناً وحربياً حيناً آخر والتي ازدهرت في ظل الإسلام وتميزت بشخصيتها المنفردة.

وكانت الجزائر مركزاً هاماً لحركات دينية وسياسية كان لها أثرها في ذلك الحين، وكانت مركزاً تجارياً واقتصادياً هاماً ليس بالنسبة للشرق الإسلامي فقط، بل بالنسبة إلى أوروبا أيضاً. فلم يكن الشعب إذاً منطوياً على نفسه وأمكن لثقافته أن تنفتح على تأثيرات متنوعة استقت منها وتطورت معها دون أن تفقد مع ذلك صفاتها الشخصية التي تنفرد بها[1].

كانت مدن الجزائر ملتقى حضارات مختلفة منذ القديم، لأنها كانت مراكز تجارية. فلما دخل العرب البلاد تفاعلت الحضارة العربية مع حضارة السكان الأصليين، فنشأ عن ذلك التفاعل حضارة إسلامية وثقافة إسلامية لها خصائصها التي تميزها عن غيرها من البلدان في طرق حياة سكانها وملابسهم ومعمارهم وأدبهم، وأصبحت الجزائر، لا سيما في عهد الحماديين، مركز إشعاع فكري إسلامي ومركز حركة دينية. وظلت الجزائر مزدهرة حتى أواخر القرن الرابع عشر، وأفل نجمها بنتيجة للظروف التاريخية الخاصة التي عاشها العالم الإسلامي عامة تحت ظل الحكم التركي وظلت جميع أقطار الإسلام ترزح تحت نير حكم حطم جميع القيم الحضارية ودفع إلى سبات عميق لم تقف منه إلا وهي واقعة تحت ضغط الرأسمال الغربي في أواخر القرن التاسع عشر[2]. فالشباب معذور فتلك الظروف الخاصة هي التي جعلته يخضع إلى تلك السياسة الاستعمارية التي تبعتها فرنسا في الجزائر إلى تحطيم كل صلة التي تربط النشء بماضيه. أخذت تنشر الجهل بين الجماهير وذلك بإغلاق المدارس العربية وتحريم التعليم بلغة البلاد وإجبارها الناس على التعليم بالفرنسية، فهكذا حطمت جميع معالم الشخصية الجزائرية بتحطيمها اللغة العربية التي هي أداة الثقافة والحضارة. فلم تجد الثقافة الإسلامية مأوى إلا المساجد وانغلقت على نفسها أمام تأثيرات الثقافة الفرنسية. ولكن هذا البصيص من الثقافة

(1) الأدب الجزائري المعاصر. (2) نفس المصدر.

الإسلامية أخذ نطاقه يتوسع بطيئاً، وبمساعدة التيار المشرقي صار نبراساً ثقافياً أضاء للشعب طريقه إلى نهضته المباركة المتصفة بذلك الكفاح المرير ضد تأثيرات ثقافية أجنبية.أقوى منها، وضد أيديولوجية مؤثرة مسيطرة. فغاية هذه النهضة هي استرجاع مقومات ومعالم الشخصية الجزائرية التي يسعى الاستعمار في تحطيمها وتفتيتها. فتكتلت المجهودات وظهرت الجمعيات. قامت الطبقة المثقفة تقاوم الاستعمار بالقلم، فسجلت الفظائع التي قام بها الجندي الفرنسي وبينت مصادرة الأملاك والأرزاق والمظالم، وطالبت بالمساواة والحقوق المشروعة. وقامت جمعية نجم شمال إفريقية تقاوم الاتجاه الفرنسي في الخارج، وأخذت جمعية العلماء تقاوم نفس الاتجاه داخل البلاد، فحاربت أنصار الاستعمار، وقاومت وحطمت البدع والضلالات الدينية التي استغلها العدو أي استغلال تحت ستار الطرقية، ونشطت في توجيه السياسة توجيهاً عربياً إسلامياً. وتكونت بجانب هذه الجمعية أحزاب جزائرية: حزب الشعب الجزائري وحزب البيان والحرية المؤلفة من خريجي المدارس الفرنسية. وفرنسا نكلت بجميع هذه الأحزاب وبالجمعية، لكنها لم تقو على أن تجعل حداً لهذه المقاومة الذريعة التي نتجت عنها الثورة الكبرى في كل مكان من أرض الوطن والتي استرجع بها الشعب حريته واستقلاله الكامل. وها هو الآن يسعى بفضل هذه الحرية وهذا الاستقلال في تكوين استقلاله الاقتصادي. وقامت هذه الجمعية بالإصلاح ونشر الثقافة العربية وتحرير الفكر العربي الجزائري من شوائب التقليد وقيود الطرقيين الذين أصبحوا ألعوبة بين أيدي الاستعمار. أوصت الشعب أن يأخذ بناصية العلم، هو الطريق الوحيد للتخلص من العبودية. فقال رئيسها «عبد الحميد بن باديس»: «اخدموا العلم بتعلمه، وانشروه، وتحملوا كل بلاء ومشقة في سبيله، وليهن عليكم كل عزيز، ولتهن أرواحكم من أجله». فالتف الشعب بهذه الجمعية المنقذة له وتأثر بمبادئها. واستعانت بصحفها التي كانت مدرسة كبرى للوطنية ومصلحاً عظيمًا للمجتمع ومثقفاً كفؤاً للشعب ومنبراً للأدباء والخطباء. فلعبت دوراً كبيراً في إحياء اللّغة العربية وتدعيم الوعي القومي، «فاللغة العربية في

القطر الجزائري ليست غريبة، ولا دخيلة. بل هي في دارها وبين حماتها وأنصارها وهي ممتدة الجذور مع الماضي مشتدة الأواصر مع الحاضر طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم. فلما أقام الإسلام في هذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد وضرب بجرانه فيه، أقامت معه العربية لا تـريم ولا تبرح مـا دام الإسلام مقيـمًا لا يتزحـزح». فهكذا يجيب «الإبراهيمي» للقادحين في عروبة هذا الشمال الإفريقي. ثم يؤكد لهم قائلاً: «إن عروبة هذا الوطن جرت في مجاريها طبيعية مناسبة لم يشبها إكراه ولم يشنها عنف ولم يؤثـر فيها عـامل دخيـل ولم تقم على تحيـل واستغفال، وإنما هي الروح عرفت الروح والفطرة سايرت الفطرة والعقل أعدى العقل، وكأن الأمم التي كانت تغطي هذه الأرض قبل الاتصال بالعرب كانت متهيئة للاتصال بالعرب أو كأن وشائج من القربى كانت مخبوءة في الزمن، فظهرت لوقتها وكانت نائمة في التاريخ فتنبهت لحينها».

إن حركة الإصلاح التي قامت بها الجمعية قد فعلت فعلها في نفوس النشء، فكان له أدب من شعر ونثرساير الواقع القومي في جميع مناحيه، وكان لساناً صادقاً عبر عن آلام الشعب وطموحه وأحلامه، وكان ثورة على الحيـاة الاجتماعيـة القذرة وعـلى الجهل والفقـر والمرض، وعـلى أعداء الجزائريين من استعماريين ورجعيين ومشعوذين.

إن المشرق العربي قد عرف القصة قبلنا. وتأخرها عندنا كان نتيجة تلك الظروف الخاصة التي عاشتها البلاد. فإن الاستعمار عمل ما في وسعه ليقضي على اللغة والثقافة والشخصية. لكن الثورة خلصتها من العوائق والعقبات التي عرقلت خطواتها، فتطورت شكلاً ومضموناً ملتزمة بمبادىء الثورة وأهدافها معبرة بصدق على واقع الشعب. صدمة لم تكن للاستعمار في الحسبان. ظن أنه قضى على الشخصية الجزائريـة، فإذا بالجزائريين، والأدباء في طليعتهم، برهنوا له على أن شخصيتهم كانت ناراً تحت الرماد، ثم نفخت فيها الثورة مـا جعل جـذوتها تتـأجج لتـذيب

السلاسل التي قيدتها بها اليد الآثمة. فجنسر الشعر على الخروج إلى آفاق رحبة ليشارك الشعب همومه وآلامه، فهو لسان الثورة في جميع ميادينها، كله حماسة وثورة على العدو وعلى ما قام به من تخريب وتهديم. والنثر هو الآخر تطور وأصبح لساناً صادقاً عبر عن آلام الشعب وطموحه وأحلامه. وكان للصحافة أثرها في تطويره فمنذ ظهورها كانت عاملاً من عوامل نمو اللغة وإعطائها المرونة والحيوية. فكانت مدرسة كبرى للوطنية ومصلحاً عظيمًا للمجتمع ومثقفاً كفؤاً للشعب ومنبراً للأدباء كما سبق أن قلنا. وللقصة أيضاً دورها في رفع مستوى اللغة وتطوير الأسلوب الأدبي. بدأت على يد كتاب الإصلاح في صورة مقال يحمل بذور القصة منهم الزاهري ومحمد الصالح رمضان ومحمد العابد الجلاني.

ثم تطورت الأفكار وأصبح المقال القصصي داعياً إلى العلم وتعليم المرأة وإلى الوعي، ومنتقداً العادات البالية والتقاليد المستحدثة ومعرضاً بالشعوذة ومتعرضاً لقضايا سياسية. أما الأسلوب فأخذ يتحسن ويزدان والوحدة العضوية تتضح وتنجلي. ولعل من يمثل هذه المرحلة هو «محمد رضا حوحو والحفناوي هالي والهاشمي التيجاني».

وقبيل الثورة توقف المقال القصصي وحل محله نوع من القصة ينقصه في بدايته الشكل الفني. فالكتاب حينئذ لما يأخذوا بناصية مقومات الفن؛ والتقاليد لذلك العهد لم تسمح الحديث عن الحب أو العاطفة؛ والنقد البناء الذي يتطور به الأدب كان مفقوداً. ولكن القصة اقتحمت بتوالي الأيام هذه المعوقات وأخذت تخطو إلى الأمام بقدم ثابتة. وأعانها على ذلك اتصال بلادنا بالمشرق العربي على الرغم من السد السميك الذي ضربه الاستعمار بيننا وبين إخواننا العرب، وكانت سوق القصة رائجة هناك. فهذا الاتصال كان متنفساً لكتابنا ومشجعاً لنتاجهم إذ وجدوا من الحرية ما حرموا منه في عقر بيتهم لتلك الظروف الخاصة التي عرفتها البلاد من جهة وعثروا على شعب مثقف تواق إلى هذا اللون من الأدب. فلم يلبث ذلك النوع من القصة أن اتسع نطاقه بنتاج «حوچو وأحمد بن

عاشور والشافعي» الذين «أخذوا يهتمون بعناصر الفن من إيحاء ورسم الشخصية القصصية وتفاعلها مع الأحداث»[1] فقد تعرضوا لمشاكل الشعب. إلا أن القصة لم تصل، رغم ذلك كله إلى ما يرضي القراء قبيل الثورة. واندلعت الثورة وشملت مشاكل الشعب كلها السياسية منها والاجتماعية والثقافية. فأخذت حينئذ القصة شكلها الجديد يساير مضمونها الواقع ويواكب ثوبها الذوق الفني السليم. نعم أخذت تعالج مشاكل الشعب وتصور بدقة كفاحه ضد العدو الذي أراد قهر الإنسان الجزائري ومسخه إلى إنسان غربي. فالقصة القصيرة لبست ثوبها الواقعي: التزمت بالثورة وبواقع الثورة. وبهذا الالتزام وبهذه الواقعية خطت القصة القصيرة خطوات واسعة بأسلوب عربي رشيق، وغدت تأخذ مكانها كفن له تأثيره وفاعليته. فانظر إلى ما وصلت إليه اللغة التي كانت غريبة في عقر بيتها مضطهدة من طرف المستعمر، يريد استئصالها واضمحلالها من القطر الجزائري العربي. فأخذت من الحيوية ما جعلها أداة كفاح وسلاحاً ماضياً في يد الجزائري ضد من يسعى في صدها عن التطور والتفتح والانطلاق. فالعربية لم تبرح موطنها ولم تضمحل كما كان يريد الاستعمار بل خلعت ثوبها البالي وارتدت ثوباً قشيباً فاخراً اختارته لها الثورة، وراحت تناضل بالمقال وبالقصة لاسترجاع القيم الجزائرية وتوطيد الشخصية. فانطلق الأدب العربي في الجزائر العربية، وعبر عن أدق خلجات الشعب وعن نضاله لاسترجاع كيانه وحريته. إلا أن أدبنا، ويا للأسف، لا زال فقيراً من حيث الرواية الحديثة بعناصرها الفنية المعقدة. نريد من أدبائنا أن يسدوا هذه الثلمة وأن يقبلوا عليها إقبال مواطنيهم الناطقين بالفرنسية. فقد أتحفنا هؤلاء بأدب رائع نضعه في مصاف الآداب الأجنبية. فلماذا، يا ترى، لا يأتون بما يضاهيها بالعربية؟ فالشعب الذي استطاع أن يطهر البلاد من العبودية ومن الذل ومن الاستغلال لجدير به أن يأتي بما يذهل العقول في ميادين الفكر والأدب والثقافة بمعناها الواسع، فليس هناك قوة قادرة على صده عن ذلك وكيف وهو حر طليق في بلاده وميال إلى الابتكار

(1) عبد الله الركيبي (القبس عدد 5 سنة 3 آذار 1969).

والإبداع. فنتمنى أن يلبي أدباؤنا نداءنا كما نتمنى أن يتقدم مسرحنا تقدم القصة فيصبح قادراً على إبراز الصورة الحقيقية لواقع حياة المجتمع الجزائري بجميع مشاكلها. فليس الغرض منه التسلية فقط بل توجيه الشعب أيضاً وعلاجه من الأمراض الاجتماعية التي تلم بجميع طبقاته والصعود به إلى الكمال اجتماعياً وفكرياً. لا ننكر أنه أحرز على تطورات منذ نشأته. عرفته الجزائر على شكل الكراكوز سنة 1835م ولعله كان معروفاً قبل هذا العهد لأنه كان موجوداً في البلاد العربية في المشرق العربي. إن الانجليزي «توما شو» والشاعر الإيطالي «فيلبوبنانتي» لم يذكراه في تحدثهما عن الفنون الشعبية التي كانت معروفة في الجزائر حينئذ. كانت حفلات الكراكوز تقام في شهر رمضان، وكان يحضرها عدد كبير من المواطنين وحتى بعض الأوروبيين. والكراكوز هو أهم شخصية في المسرحية يرتدي لباساً بدوياً ويمتاز بطول القامة، لا يظهر فوق المنصة إلا ليتبادل الضربات مع الممثلين، ويثور ثائره عندما يراهم لابسين ثياب الجنود الفرنسيين، فيثب عليهم ويبادلهم اللكمات من بداية العرض إلى نهايته. ولعل موقفه هذا يرمز إلى استمرار المقاومة في البوادي والأرياف. فالشعب لا زال يضمر العداوة للأجانب المغتصبين. فرأى الحاكمون الأجانب أن مواضيع الكراكوز تتنافى والوجود الفرنسي حيث ينتقدهم ويسخر من أذيالهم. فأصدروا قانوناً يمنعه سنة 1843، فاختفى إلى الأبد[1].

وبعد الحرب العالمية جاءت إلى الجزائر فرقة مسرحية فرنسية، قدمت مسرحيات في مسرح الجزائر. ثم تلتها فرق أخرى. وفي سنة 1921 حل الممثل المصري «جورج أبيض» مع فرقة بالجزائر وقدم مسرحيتين «لنجيب الحداد»: صلاح الدين الأيوبي وثارات العرب. كل هذا أثر في عقول هواة المسرح، فكونوا فرقاً مسرحية وعرضت تمثيليات تصور جوانب من الواقع الجزائري، إلا أنها لم يقدر لها أن تعيش طويلاً. وفي إبريل سنة 1926 ظهرت مسرحية من تأليف «علالو» و«دحمون» قدمت للشعب بلغته مما

---

(1) عن «أبي العيد دودو» (القبس عدد 5 سنة 3 آذر 1969).

جعلها موضوع إقبال من طرف الجمهور، فقد فهمها وفهم مغزاها. ثم انتقلت الحركة التمثيلية إلى «رشيد القسنطيني» و«محيي الدين باش تارزي». وكانت تمثيلياتها بالدارجة التي يفهمها الشعب وتعرضا فيها للمشاكل الاجتماعية والعائلية واضعين تارة وآخذين من روايات «موليير» تارة أخرى. لكن فرقتها اختفت سنة 1956. وفي خلال الثورة أنشئت فرقة بإدارة الأستاذ «مصطفى كاتب». قدم المسرحيات في بعض البلدان العربية وأبرز فيها الدور الذي لعبه الجزائريون في استرجاع الكيان والعزة والحرية. وحاول معالجة موضوعات بالفصحى، ولكنها فشلت لأن الجمهور لا يفهم العربية. وكيف وقد انقطعت صلته بالفصحى منذ غير قليل. أما الممثلون فلم تكن لهم خبرة التمثيل كفن له أصوله وقواعده. وزيادة على هذا وذاك عدم وجود من يقوم ببعض الأدوار الحيوية الخاصة. وظهرت بعد ذلك رواية شعرية «لمحمد العيد» تحت عنوان «بلال». وفي سنة 1950 صدرت حنبعل «لتوفيق المدني» وهي مسرحية تاريخية سياسية، تمتاز بمواقف وأفكار تصور الحالة السياسية لذلك الوقت وتتحدث عن أسبابها المباشرة. وفي أثناء الثورة الوطنية نشر الأستاذ «الركيبي» رواية تمثيلية [1] من أربعة فصول تدل دلالة واضحة على تقدم هذا النوع من الأدب العربي في الجزائر. قدم لنا فيها صوراً أمينة لجزائر ما قبل التاريخ وعبر عما لحق شبابها من التشرد. والحب يلعب في هذه الرواية دوراً مهمًا. وبعد الاستقلال زودنا الجنيدي خليفة بمسرحية اجتماعية في أربعة فصول تحت عنوان في انتظار نوفمبر جديد. و«لأبي العيد دودو» مسرحية بعنوان «التراب». والأستاذ «واضح» هو الآخر كتب مسرحية في ثلاثة فصول تحمل عنوان «بئر الكاهنة». وظهرت هذه الأيام مسرحيات، الأولى «لعبد الرحمان مضوي» بعنوان «يوغرطة»، والأخرى «للطاهر وطار» بعنوان «الهارب». وكتاب المسرحيات لا يجدون تشجيعاً من طرف الجمهور، فإن مستواه الثقافي لا يجعله يرغب في المسرحيات المعروضة بالفصحى إلا أن حركة التعريب قائمة والشعب مكب على تعلم العربية. فإنتاج كتاباً

(1) تحت عنوان: مصرع الطغاة.

سيجد بعد حين من طرف المواطنين إقبالاً مشجعاً، فما على كتابنا إلا الإكثار من هذا الإنتاج، فالمجتمع في خاجة ماسة إليه لفوائده الكثيرة. وبجانب هذه المسرحيات العربية للجزائر مسرحيات كتبها أصحابها بلغة الأجنبي. فهي على مستوى فني عال لا تخاطب إلا الطبقة الخاصة التي تحسن اللغة الفرنسية. فكانت حينئذ بعيدة عن العامة التي تجهل الفرنسية. ولا تسل عما كانت هذه المسرحيات تتلقى من صعوبات من طرف السلطات الاستعمارية التي لا توافق عليها لمضمونها العدائي. فإنها تعالج مواضيع كفاحية. وهذه المسرحيات تقف في مصاف المسرحيات العالمية من حيث مستواها الأدبي الفني العالي. إنها متأثرة بتقاليد المأساة اليونانية إلى جانب تأثرها بالمسرح الفرنسي. ومن أشهر كتاب ذلك النوع من المسرحيات هو «كاتب ياسين» الذي كتب أشعاراً وقصصاً. فإنه يظهر في مسرحياته متأثراً بالمأساة اليونانية وبالمسرح الفرنسي. وقد ولدت المسرحية عنده في غمرة الصراع الدامي في سبيل الحرية والاستقلال، ولهذا يظهر على مسرحه صورة كفاحية. وقد كتب مسرحية «حلقة الضغط والإرهاب» بأسلوب رائع مملوء بالصور. صوّر أنواع الضغط الاستعماري والإرهاب والتعسف الذي ذاق الشعب منه ألواناً. فاتخذ المسرح الجزائري أداة تعبير له لغة العدو واستعملها ضد هذا العدو. وليس ذلك في المسرح فقط وإنما عندما يكتب في جميع ألوان وفنون الأدب الأخرى تقلد بسلاح فرنسي ضد الفرنسي. هذا جزاء فرنسا. فقد عملت ما في وسعها على حرمان الشعب الجزائري من ثقافته ولغته، وجعلت تحارب الثقافة العربية واللغة العربية والدين الإسلامي ظناً منها أن تمحو شخصية الجزائري وتاريخه العريق فيعود فرنسياً. نجحت في نشر لغتها وأدبها في الوسط الجزائري، فأصبح لكثير من المواطنين أدب غير أدب آبائهم، أخذوا أداة تعبير لغة العدو. ولكنهم استعملوه ضد العدو. فأصبح إذاً سلاحاً من أسلحة المعركة في سبيل التحرر من قبضة ذلك العدو. وهذا الأدب الغريب نشأ وتطور بعد الحرب العالمية الثانية حيث أمكن الأدباء الجزائريين أن يسيطروا على اللغة الفرنسية ويعبروا بها عن الواقع الجزائري وأن يسخروا هذه اللغة أداة

تساعدهم على التعبير عن قيمهم وأفكارهم وتقاليدهم. ظنت فرنسا أن الجزائريين بتعلمهم الفرنسية سينسون قيمهم وتقاليدهم وتسلب منهم شخصيتهم. فكان الأمر بالعكس. أصبحت اللغة الفرنسية أداة تعبير عن تلك الشخصية الجزائرية وعن تلك القيم الجزائرية وتلك التقاليد الجزائرية نفسها. فاللغة الفرنسية لم تجردهم البتة من جزائريتهم، بل كانت عاملاً من العوامل التي ساعدتهم على استيقاظهم من سباتهم وعلى فرض أنفسهم في جزائرهم المغتصبة. فقد تعلم الجزائري الفرنسية وتضلع منها وسخرها لحاجاته، استعان بها لخوض عباب المعركة بجانب جميع طبقات الشعب للدفاع عن البلاد وعن مقومات البلاد. فالظروف التاريخية الاستثنائية هي التي منعته من أن يدافع عن البلاد ومقومات البلاد بلغة البلاد.

فقد فرض العدو لغته على حساب لغتنا وعمل على نشرها بتصفية المدارس العربية والمكتبات العربية، وبتحريم التدريس باللغة العربية، فأصبحت اللغة العربية غريبة في عقر بيتها. ومضى قرن من الاحتلال الفرنسي والكتاب من أصل فرنسي يدافعون عن الاستعمار . ثم جاءت بعدهم فئة، منها: «فابر وروبلس وغبريال وكاموس»[1]. لقد تعرضوا لمشاكل جزائرية، ولكن لم يذهبوا إلى جذورها. فما حك جلدك مثل ظفرك. فالكتاب الذين أمدوا المعركة بأدبهم الكفاحي هم الذين وقفوا بجانب الشعب لأجل ذلك الشعب المظلوم المهدورة حقوقه في عقر بيته، هم الكتاب الجزائريون المعبرون بالفرنسية نظراً للظروف الاستثنائية التي عاشتها الجزائر وانتشار الأمية بتصفية المدارس العربية واقتصار التعليم على اللغة الفرنسية ثم فرض هذه اللغة الفرنسية. ولد بعد الحرب العالمية الثانية أدب واقعي جزائري تطور وبلغ المكان السامي، وولد وتطور في شكل قصة وشعر ومسرحية ومقالة. وكتاب هذا الأدب عاشوا حقيقة الشعب وأرادوا التعبير عن ذلك الواق. فلم يجدوا أداة لذلك التعبير إلا

(1) Fabre, Robles, Gabriel et Camus

اللغة التي تعلموها لتلك الظروف الاستثنائية. فإن أدبهم يعد سلاحاً من أسلحة المعركة المختلفة لبعث التقاليد والقيم والمحافظة على كيان الأمة ووحدتها بجانب الأدب العربي، وبذلك فهو أدب وطني، لقد انفتح ذلك الأدب على جميع الصلات الزاخرة القومية مع الأدب الفرنسي. فالديباجة فرنسية والمضمون جزائري. استمد من الأدب الفرنسي التقدمي تلك الموضوعات التي تتجاوب ومتطلبات تطوره وتعبيره عن الثورة والأدب الفرنسي قد تأثر في تطوره بتجارب أمم وشعوب كثيرة اتصل بأدبها وثقافتها على مر العصور. وأدب الجزائريين قد اتصل اتصالاً وثيقاً بالأدب الفرنسي صانع ثورة 1789 الفرنسية، ومن ثم فقد اتصل بصفة غير مباشرة بالآداب الأخرى، فاستفاد في موضوعاته وقيمه الفنية بموقف الأدب التقدمي من المشكلة الجزائرية.

ومن أعلام الأدب الجزائري الفرنسي اللغة في ميدان القصة أو الرواية «محمد ديب ومولود معمري وكاتب ياسين ومولود فرعون ومالك حداد ومصطفى الأشرف وآسيا جبار ومراد بربون». وقد عالج الجزائريون الشعر، فقد برز «محمد ديب وكاتب ياسين ومرسل موسى وجون عمروش». وشعر هؤلاء كان لهيب المعركة، فهو صيحات الألم والعذاب، إذ إنه يعد وثيقة تحكي التاريخ. والشعر الثوري في الجزائر هو صوت تلك الجماهير التي تعاني أكبر مأساة شهدها التاريخ.

والقصة كانت من أكثر الأنواع الأدبية تطوراً في الأدب الجزائري الفرنسي اللغة. وكتاب القصة الجزائريون قد ساهموا في بناء مجتمعهم الجديد، ولهذا فقد قدموا لنا قصصاً بلغت مستوى عالياً من حيث الشكل والمضمون ومن حيث الموقف الفلسفي والمبادىء الفنية. فاتجاههم واكب الاتجاه الاجتماعي والواقعي معاً. فيدل هذا على ثقافة اجتماعية متينة واعية لدى الكتاب. وهذا اللون فاق في تطوره ألوان الأدب الأخرى. اتصل الأدب المشرقي بالأدب الأوروبي، ولكن عن طريق الترجمة بينما في الجزائر كان الاتصال مباشراً وكان مفروضاً كما قلنا آنفاً. فكان في الأصل

وليس في الترجمة[1]. ثم جاءت تلك الظروف الخاصة فحددت اتجاهات ذلك التأثير هي ظروف المعركة التي شنها الشعب ضد الطغيان. وجميع أعلام القصة عاشوا تلك الظروف وتلك المعركة. وقد تأثروا بتقاليد الأدب الفرنسي الواقعي. وموضوعات تلك القصة هي حياة ذلك الشعب بمختلف طبقاته. لقد كانت المعركة من الأسباب القوية التي دفعت إلى ظهور القصة وإلى تبلورها.

والقصة الجزائرية بالفرنسية هي كمثيلتها العربية وسيلة من وسائل إعادة بناء المجتمع وإنقاذ الشعب من الظلم والقيود والسجون والتعذيب. إنها حياة الحرمان والفاقة، إنها البؤس والنضال من أجل لقمة خبز أو ملعقة حساء. وأبطال القصة هم الأبطال الذين ضحوا بالنفس والنفيس في سبيل الحرية، وهم الذين يشيدون الجزائر الحديثة. وموقف كل كاتب جزائري من الحقيقة الجزائرية هو انعكاس لهذا الواقع الذي عاشته الجزائر في تلك المرحلة المعينة. لم تستقل البلاد حتى كان لها بجانب أدبها الأصيل أدب فرنسي ناضج. فالطلاب الجزائريون كانوا لا يدرسون في المعاهد الجزائرية في عهد الاستعمار إلا الأدب الفرنسي الذي أنتجه الفرنسيون للفرنسيين، فأصبحوا اليوم يقرأون بجانب هذا الأدب الغريب أدباً جزائرياً أنتجه الجزائريون للجزائريين فهو صورة واقعية لوسطهم ووثائق تاريخية لتلك الفترة الخاصة ولما ألم الشعب أثناءها من محن. فقد وصف الكتاب كل ما كان يجري أمام أعينهم، ونحس ونحن نقرأ أدبهم، بتمرد على تلك الوضعية التي عاشوها وسط ذلك المجتمع الذي نكب في مقدساته ورماه الاستعماري في حمأة الفقر والجهل والمرض. وما هذا التمرد إلا نتيجة وعي وقاد أيقظه فيهم ما كانوا يشاهدون حولهم من تصرفات العدو وما كانوا يلاقونه أنفسهم من طرف هذا العدو ونتيجة الشعور بالحاجة إلى استرجاع ما فقد الشعب من حرية وعز ومن شرف وكرامة. فهم جزائريون عرب وإن كانت الفرنسية هي أداة تعبيرهم فيما كانوا يكتبون.

---

(1)الأدب الجزائري المعاصر.

فيقرأ الآن شبابنا قصص «محمد ديب». فـاللهيب والنول والبيت الكبير بالمقهى وصيف إفريقي تعطينا كلها صورة للوسط الذي عاش فيه الكاتب وسط الجوع والمرض والجهل، وصورة لذلك الصراع الفكـري الذي كان سلاحاً من أسلحة المعركة. لقد أشغـل هذا الكـاتب معلماً ونساجاً ومحاسباً وصحفياً، وكان يهتم بالنقد المسرحي. وبدأ حياته الأدبية بقول الشعر. وشعره يتميز بشكل أدبي خاص. إلا أن «محمد ديب» أراد أن يصف كل ما يعتمل في نفسه وكل ما كان يحدث أمام عينيه، فلم تساعده على ذلك إلا القصة. وكان قد تأثر بالقصص الفرنسية وبقصتين للكاتبة الانجليزية «فرجينيا وولفا»، الأولى هي «نزهـة الفنار» والثـانية «الأمواج». وأراد «محمد ديب» أن يخدم المجتمع، فقصصه صورة واقعية لحياة الشعب الجزائـري لتلك الفترة. وأبـطاله يتغنـون بماضي الجـزائر وبحاضرها.

وبجانب «محمد ديب» كان «مولود فرعون» وقد ولد في الثامن من آذار عام 1913 في قرية «تيزي هبيل» في بلاد القبائل. فمـارس مهنة التدريس، وقد شارك الشعب فيما دهاه من سجن وتعذيب إلى أن قتل على أيدي منظمة «الجيش السري الفرنسي في 15 من آذار عام 1962». وحياته الأدبية كانت زاخرة. قد نشر قصصاً ومقالات كثيرة، وجمع وترجم قصائد الشاعر البربري المعروف بالسي «محند» التي تطلعنا على حيـاة وعادات وتقاليد وأخبار شعب بأكمله. وهناك كاتب آخر ولد في اليوم السادس من آب عام 1929 في قرية «كوندي سمندا»، فهو «كاتب ياسين». فإنه يعتبر من أبرز الكتاب والشعراء الذين عبروا بصدق وعمق عن فترة قاسية من حياة الشعب. فقد كشف أمام الرأي العام العالمي حقيقة مأساة الجزائر. لقد تغنى بالثورة وبالجزائر، ووصف حرب الإبادة التي شنتها فرنسا، عبر عن آلام وآمال الشعب بقوة لم يستطع أحد قبله ولا بعده أن يعبر بها ولقد عبر عن ذلك كله بلغة تقف من حيث المستوى الفني في مصاف لغة من عاصره من كتاب وشعراء فرنسا الكبار. فقد ذاق ما ذاق وتجرع ذلك الشعب من العذاب، فوقف بجانب الشعب وكرس فنه من أجله. فساهم في الحركة الوطنية، وكان يلقي المحاضرات الأدبية السياسية. وقد تعاطى

الفن المسرحي كما ذكرنا آنفاً. وكتب مسرحياته من أجل الشعب، لكن اللغة التي استعملها أداة تعبير عن أفكاره وتحليل الظروف التي عاشها الشعب هي لغة غريبة عن هذا الشعب. فلم يفهمها إلا الذين أجبروا على الانفصال عن لغة الآباء. فكتبها بمستوى فني رفيع، كان متأثراً تأثيراً كبيراً بالمسرح اليوناني. والشعر يلعب دوراً هاماً في مسرح «كاتب ياسين»، وشعره لم يتفق بموضوع غير موضوع الجزائر ومعركتها في سبيل الاستقلال والتحرر. فالمعركة كانت بدورها وقوداً لشعره. والمعركة كانت الموضوع الرئيسي لقصائده الرائعة التي تغنت بالجزائر وبحب الشاعر لها . والأشكال الشعرية التي اختارها هي الشعر الحر والشعر المنثور المملوء بالصور الرائعة . فقالت الدكتورة «سعاد محمد خضر» عن شعره: «لقد كانت قصائده بحق لغة النار المشتعلة التي خاطبت الضمير العالمي محاولة إثارة اهتمامه بحقيقة المأساة التي يعاني منها الشعب. وقد اختار لنفسه طريقة فريدة في التعبير الفني تختلف تماماً عن طريق ما بقي من الكتاب. فقد كان ولا زال يشعر ويحس إحساساً عميقاً بالكلمة وبالصور وبالنغم. لقد خلق لنفسه عالماً مليئاً بالرموز وبالصور، ولكنها لا تبعد القارىء عن الحقيقة».

فقد ألفت «كاتب ياسين» الأنظار إليه بكتابه «نجمة». فقال عنه «موريس نادو»: «يا حبذا لو كان بالجزائر عقول كثيرة مثل عقل «كاتب ياسين» تحسن الموازنة بين ملكة الشعر العميق والفصاحة التي لا تعرف قيوداً». وقال «أميل هنريو» يمدح نفس الكتاب: «إنه مليء بالصحف العجيبة». وقال عنه «أندري روسو» من جهته في جريدة «الفيغارو» الأدبية: «لا أعرف تأليفاً قط كان أسلوب صاحبه أقدر على قطع الصلة مع أساليبنا المرعية (كهذا)». ويجدر بنا أن ننوه بنتاج «مولود معمري» الأدبي. فإنه هو الآخر يعطي دليلاً ساطعاً على وحدة العملية الأدبية الجزائرية التي تعبر عن حياة أمة بجميع طبقاتها. فإن قصصه تصور لنا بدقة حياة المجتمع القبائلي. ومستوى هذه القصص الفني يدل على مدى التطور الذي وصلت إليه القصة الجزائرية الحديثة من حيث القيمة الفنية. وقد أبدع

«معمري» في التغلغل في نفسيات أبطاله ووصف آلامهم وبأسهم وعواطفهم المختلفة. والكاتب يظهر لنا أنه سيطر كل السيطرة على اللغة التي عبر بها عن نتاجه الفني. فلم يتيسر له أن يستخدم العربية دونها لتلك الظروف الخاصة التي ذكرناها آنفاً. فكتب «الربوة المنسية ونوم العادل والأفيون والعصا» يصف فيها الأحداث التي ألمت بالشعب والمعركة التي خاضها لاسترجاع حريته وكرامته.

أما «مالك حداد»، فلا نجد فيها كتب أثراً للمأساة التي قاساها الشعب، فكان موقفه منها موقف المتفرج. فأبطاله عاطفيون يعيشون بعيدين عن المعركة مثله.

أما أسلوبه فهو جميل مليء بالصور، ولكنه لم يكن صوت الشعب ولم يطالب بالحرية والحياة الشريفة التي يسعى إليها هذا الشعب المهضوم حقه. فنتاج «مالك» من هذا القبيل يختلف عن نتاج زملائه الذين سبق الحديث عنهم. فإنه يعتبر حينئذ نتاجاً فرنسياً إذ ليس فيه ما يربطه بالوطن. ولعل عدم انفعاله بحقيقة المعركة يرجع إلى أن «مالك حداد» كان خارج البلاد منذ بداية الحرب، فلم يشهد تلك الأحداث المؤلمة التي ألمت بالبلاد، ولم يذق ما ذاقه الشعب من ألوان العذاب للحصول على الحرية والكرامة.

و«آسيا جبار» هي الأخرى لم ينفعل نتاجها بالمعركة للسبب نفسه. لا يختلف عن نتاج الفرنسيين. قد أخرجت قصة عنوانها «العطش» سنة 1957، وكانت وقتئذ الجزائر مسرحاً لحرب ضروس بين الشعب الجزائري الباسل والطغاة، فلم تتعرض لها في قصتها تلك، فاختارت طريقاً تختلف عن طريق الكتاب الجزائريين الذين وقفوا بجانب الشعب يشاركونه آلامه وأحزانه. فكان نتاجهم مرآة صافية عكست عواطف الشعب وكفاحه. عرفنا نتاجها بعيداً عن هذا كله حتى فاجأتنا بقصة عنوانها: «أطفال العالم الجديد». فتعرضت فيها للأحداث التي ألمت بالشعب الذي هي منه وإليه

تكتب. أبت أن يكون نتاجها دون غيره عاطفة ووعياً وإلماماً بالواقع. فإنها هكذا قد سدت الثلمة التي تميز بها نتاجها من قبل.

وعندنا كاتب آخر بدأ حياته الأدبية مع نهاية الحرب التحريرية هو «مراد بوربون». ولد بمدينة جيجل في الثالث والعشرين من يناير 1938. نشر كثيراً من القصائد تدور حول موضوع «مولد العهد الجديد والعالم الجديد». والعالم الجديد عنده يبدأ مع انتصار الجزائر على الغاصبين. وإلى جانب قصائده العديدة نشر قصة «جبل الرتم» سنة 1962 تتمتع بمستوى فني لا بأس به، متكاملة الأحداث وتعرض وجهة نظر الكاتب وموقفه من أحداث بلاده. وإذا نظرنا إلى أسلوب «بوربون» نجده رصيناً متأثراً بكتاب الجزائر الذين سبقوه وخاصة «كاتب ياسين». نحس بأنه يحاول أن يقلد طريقه وأسلوبه. ومن أدبه أيضاً «الحج الوثني». و«لبوربون» وجهة نظر خاصة تجاه مستقبل الثقافة الفرنسية التي هي ثمرات تلك الظروف الخاصة التي ألمت بالبلاد. يعتقد أن أدبه عربي وإن كتب بالفرنسية، «إن اللغة الفرنسية ليست ملكاً خاصاً بالفرنسيين وليس سبيلها سبيل الملكية الخاصة، بل إن أية لغة إنما تكون ملكاً لمن يسيطر عليها ويطوعها للخلق الأدبي ويعبر بها عن حقيقة ذاته القومية». ويؤيده «مالك حداد» فيقول: «نحن نكتب بلغة فرنسية لا بجنسية فرنسية». إلا أن «مالك حداد» يعتقد أن اُستخدام الفرنسية لترجمة أفكاره وعواطفه مأساة. وموقفه هذا تشاطره فيه «آسيا جبار». أما «معمري وياسين» وغيرهما فلا يرون مأساة في استعمالهم الفرنسية أداة تعبير عن أفكارهم. فإنهم يعتبرون تمكنهم من اللغة الفرنسية إلى جانب العربية يعد ثروة تميز الفكر الجزائري وتفتحه على آفاق العالم الخارجي. والشعب لا يلوم على هؤلاء الكتاب استعمالهم الفرنسية بل يشجعهم عليها وعلى تعلم اللغات الأخرى. فنحن في حاجة ماسة إليها جميعها. فبها نتعرف على ثقافات غيرنا. فنأخذ منها ما نحتاجه إلى بناء ثقافتنا. فإن الثقافة إذا انطوت على نفسها ولم تتصل بغيرها تتجمد وتتحجر. فإذاً، اتصالنا بالخارج أمر ضروري في جميع مجالات الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية. ولهؤلاء الكتاب الحق أن يعتزوا

بنتاجهم. فكانوا يعتبرون أنفسهم كجنود يحاربون في المجال الفكري. وقد حاربوا بتفان وحدة وإيمان قوي. فاستعمالهم الفرنسية أداة تعبير عن أفكارهم وعواطفهم لا يحط من جزائريتهم. فإن صرختهم كانت نابعة من الوعي واليقين. فإنهم جزائريون إلا أن الأقدار شاءت أن يكون الشعب مبعثراً من حيث اللغة، تجد هذا يستعمل الفرنسية وذاك القبائلية والآخر العربية الدارجة أو اللغة الفصحى. فتلك الظروف الخاصة هي التي شتت شملهم من حيث التعبير، ولكنها لم تقو على تفتيت وعيهم وشخصيتهم. كل فرد من الشعب ناضل بالوسيلة التي تيسرت له في دائرته لإحباط عملية التغريب والإدماج التي قام بها العدو. تبع الشعب طرقاً مختلفة، ولكنها تؤدي كلها إلى غاية واحدة هي تحطيم السلاسل التي قيدته ومنعته التكيف والتفتح على آفاق العالم الخارجي والتحفز إلى العلا.

فهذا النوع من الأدب دخيل وقد نبت في ظروف تاريخية غير شرعية وما هو إلا صورة لمرحلة من مراحل التاريخ ذات محن وذكريات أليمة لا يواصل الحاضر بالماضي. أدى الكاتب به شهادته وعبر عن الواقع الحي في بلاده والتقط الصور الناطقة في أصول بيته ومجتمعه، لكنه عجز عن الأداء الكامل للمشاعر العربية الإنسانية، وذلك للانفصال بين اللغة المعبرة والواقع، فإن للغة علاقة كبيرة بالعقلية وبالجانب الوجداني والانفعالي من الإنسان. فالأديب لا يفكر تفكيراً يتصل بالمشكلات الواقعية والاجتماعية إلا إذا تكوّن في إطار قومي، ولا يؤدي أفكاره وأحاسيسه تأدية خالصة صادقة كل الصدق إلا باللغة القومية. «وأملنا في خلق أدب كامل لا يقتصر على التعبير عن الذات القومية بل يتجاوز هذا النطاق الفني الخالص إلى اتخاذ إطار عربي تتجلى فيه الذات وتمارس قدرتها الفنية والجمالية»[1]. أضف إلى ذلك أهمية اللغة في بناء كيان المجتمع ودورها في تفتح شخصية الإنسان وتمييزه وربطه بأصالة ماضيه الحضاري وفي تفجير طاقاته ومواهبه. إذا كان تاريخ الأمة وحياتها المشتركة وحضارتها يمثل جسمها فإن اللغة هي

(1) الرسالة.

روحها. فالباحث الاجتماعي يستطيع من خلال اللغة فقط أن يستخاص عادات أمة من الأمم وتقاليدها وجوانب الضعف وجوانب القوة فيها وبالتالي يستطيع أن يكتشف عبقريتها وحقيقتها. وفرنسا عندما أرادت أن تدمج الشخصية الجزائرية عمدت إلى مقاومة اللغة العربية حتى تقضي عليها فتقضي بذلك على القومية. وهدفنا من الثورة ألا نكون فرنسيين، ن نسترجع قوميتنا وسيادتنا وجميع مقومات شخصيتنا، واللغة من تلك المقومات. فالعربية لا بد لها من المكان السامي في بلادنا، فهي لغتنا ولغة أجدادنا منذ عهد سحيق. وقد ترك لنا هؤلاء ثقافة واسعة فلا نرى مفتاحاً لهذه الثقافة غير لغتنا العربية. فبدونها يستحيل علينا أن نعرف هذا الفكر الذي خلفه لنا أسلافنا من الأدب والعلوم والفنون. وهناك طائفة في الجزائر لم يحصلوا من فرنسا ومن حضارتها إلا على اللغة الفرنسية. فأخذوا يدعون بكل حماس على بقائها في بلدنا كلغة حضارة وعلم ويذهبون في هذا الحماس إلى درجة تفوق حماس الفرنسيين أنفسهم. لا يخفى عنهم أن للجزائر لغة عربية تداولها أجدادهم منذ عهد سحيق، ولكن المصلحة الشخصية التي لم يستطيعوا التخلص منها دفعتهم إلى هذه الدعاية التي تتنافى ومبادىء الثورة، لا يهمهم إلا أنفسهم ضاربين صفحاً عن مصلحة الأجيال الصاعدة ومستقبل الأمة. فإن اللغة تابعة لعبقرية الأمة وأهم معبر عن ذاتيتها. فنسي هؤلاء الدعاة أن الأمة تريد تحقيق ذاتها والاندماج اللغوي الذي يرغبون فيه يؤدي إلى الاندماج الفكري، وهذا مناقض لمعنى الاستقلال. والتبعية عامل من عوامل التخلف ونقص في الشخصية. إن العلم والثقافة لا ينتشران في أمة متشبثة بشخصيتها الكاملة إلا بلغتها، ولا تلد أمة مخترعين ومبدعين إلا إذا تعلموا بلغتها وألا يبقوا عالة على غيرها تابعين لأصول أجنبية. يرمي هؤلاء الدعاة لغتهم بالعقم وبعدم التأهيل إلى الرقي. في الحقيقة، إن الشعب هو المتخلف، فوضعية اللغة القومية مرتبطة بالواقع القومي العام. هل الصينيون الذين كانوا متخلفين تقدموا باستعمال لغة أجنبية؟ حافظوا على لغتهم وضنوا بها وتعلموا بها وأمكنهم أن يلتحقوا بركب الحضارة وصنعوا القنبلة الذرية. ولنفرض أن اللغة

العربية متخلفة كما يزعمون، فالشعب هو الذي عليه أن يخرجها من جمودها وانغلاقها ويطورها حتى يجعل منها أداة صالحة لتقدمه والقضاء على التخلف الثقافي. فالشعب الجزائري الذي عرف كيف يناضل لاسترجاع سيادته السياسية لجدير بأن يخوض المعركة من أجل الخروج من التخلف الاجتماعي والثقافي وه ، ثم من التخلف الاقتصادي. فالثقافة التي عرفتها الجزائر في عصورها ذهبية عبارة عن كل لم يأت عفواً، وإنما وضع لبناته تدريجياً رجال متعاقبون منذ ما قبل التاريخ. وكانت اللغة من بين العناصر التي شيدوا بها حياتهم حسب أفكارهم ومشاعرهم. وهكذا شأن جميع الثقافات، فلا يمكن فطم أهلها من لغتهم دون المس بتوازن شخصيتهم بل النيل من وجودهم بكيانهم المعنوي. فإذاً، لمن العار أن نتبنى لغة من استعمرنا وأراد مسخنا والنيل من شخصيتنا ومنعنا من التحفز إلى الرقي وننبذ لغتنا التي هي صلتنا الأولى بماضينا «والعقد الذي نتدرج فيه مع الأسلاف والأجيال المقبلة». ولا نعرف أن لغة أقدر من الأخرى على شحن العلم والمعرفة. فكل لغة معبرة عما يعيش الناس ويساورهم ويخالج أفكارهم. فإن اللغة الوطنية كما قال «نيتشه» تلازم الفرد وتمتد إلى أعماق كيانه وتبلغ إلى أخفى رغباته وخطراته. إنها تجعل من الأمة الناطقة بها كلا متراصاً خاضعاً لقوانين، إنها الحقيقة الوحيدة الرابطة بين عالم الأجسام وعالم الأذهان[1]. ما كانت ثقافتنا سنداً لأي ظلم أو اضطهاد. عاش اليهود والنصارى في الجزائر ولم يعرفوا اضطهاداً ولا تعسفاً من طرف الجزائريين بل كانت ثقافتنا أداة التفاهم البشري والتحرر والتعاون. كانت العلوم ببجاية وبقرطبة وببغداد تلقى وتدرس بالعربية، وكان الأوروبيون يؤمنون هذه العواصم لأخذ العلم ويرجعون إلى بلادهم مزودين منه فيبثونه في أوساطم باللاتينية أو بلغتهم القومية . يدعي هواة اللغة الأجنبية من بعض الجزائريين أن التقدم في العلم لا يكون إلا بها. وهذا غلط، فإن التاريخ

(1) كلمة أوردها الدكتور عثمان أمين في محاضرته القيمة في الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الإسلامي بقسنطينة 17/8 جمادى الثانية 1390هـ (10/19 أوت 1970م). ونيتشه فيلسوف ألماني 1844-1900 F. Nietzsche.

يؤكد لنا أن الجزائر عرفت العلم كما عرفته الناس في ذلك الوقت، وكانت أداة التعبير عنه العربية التي يرمونها اليوم بالعقم والجمود. واتصالنا بالحضارة العصرية الغربية يرجع إلى عهد بعيد عن طريق الوقوع تحت سيطرتها الثقافية. فماذا استفادت الجزائر من المدة الطويلة التي وقعت فيها تحت نفوذ الثقافة الأجنبية؟ هل وصل أحد الجزائريين إلى الأفكار التي تخلق التكنولوجية فأبدع في هذا المجال الذي هو ظاهرة القرن العشرين؟ لم نحصل إلا على شيء واحد هو أننا أصبحنا منذ حل بديارنا الاستعمار سوقاً لإنتاج الحضارة الغربية وبعض قوقعات أفكارها[1] فالجادة إذن التمسك بلغتنا التي هي جزء مهم من تراثنا الثقافي الذي نلمسه في لباسنا وفي مساجدنا وفي صناعتنا التقليدية وفي موسيقانا وفي فلكلورنا وفي عوائدنا المختلفة.

فقد مكننا هذا التراث الذي لا زالت جذوره ثابتة في كل شبر من وطننا العزيز من مقاومة نوائب التاريخ ومن البقاء صامدين على ما نحن عليه من ماض مجيد والاستمرار فيما نحن عليه في نهج من الحياة. وبفضل صيانة ثقافتنا استطعنا أن نتفادى كل محاولة ترمي إلى جعل شعبنا بلا روح ولا تاريخ. فقدنا حريتنا ردحاً من الزمان تحجرنا أثناءه، ولكننا اليوم أحرار، نريد أن تسلك بنا هذه الثقافة سبيل النمو والرقي بعد أن كانت عاملاً في صنيانة شخصيتنا وحفاظنا. فإن الثقافة، إن كانت بوصفها ابتكاراً وإبداعاً متواصلاً تصل بين الناس وتبرز الشخصيات، فهي قادرة أيضاً على بعث التقدم والرقي.

فالتخلف الثقافي الذي نعيش فيه منذ عهد بعيد ليس باعث اللغة (فما هو إلا صورة من صور الانحطاط الذي مني به العالم العربي). لقد انقضى عصر الوضع والاستنباط وتلاه عهد ونت فيه الهمم، فأصبح المتأخرون من العلماء يلوكون ما ورثوه عن الأجداد ويعدون كل محاولة الاجتهاد والابتكار والتجديد بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة للنار، فمن نهج طريقاً غير طريقهم رموه

(1) دعوة الحق: العدد الأول. السنة الخامسة. اكتوبر 1961.

بالكفر والإلحاد واضطهدوه، بحيث أن تلك الحريات النسبية التي كان أهل العلم والقلم يتمتعون بها أيام النهضةِ الإسلامية قد تلاشت شيئاً فشيئاً، أتى عليها المتزمتون، فساد حينئذ الانحطاط الفكري العالم العربي، ومن البديهي أن يعتري بلادنا ذلك الداء العضال. فتخلف الجزائر داخل إذاً في نطاق تخلف الرقعة الإسلامية. وقد بدت بوادره منذ انقراض الدولة المؤمنية. فأخذت الأقلام تجف وزاد ذلك الجفاف خطورة في وقت النفوذ العثماني نلمسه في دائرة الأدب والعلم والفلسفة. وزاد الاحتلال الفرنسي الطين بلة بتصفية المدارس الوطنية. فأخذ التخلف يتجلى في حياتنا الاجتماعية العادية التي هي «المرآة الصادقة لمستوانا العقلي» نلمسه في اللباس والمآكل وفي الأخلاق. أما الهندسة المعمارية فأخذت تتحجر بل تتأخر لضعف وازع الابتكار. وصناعتنا التقليدية لا زالت كما عرفها أجدادنا لم تخرج عن نماذج وضعت لها منذ أجيال. والتراث الموسيقي لم يتطور، فتعيش الموسيقى على ما بقي من الأدوار كما تلقيناها من الأندلس. وإذا انتقلنا إلى ميدان الثقافة بمعناها الضيق يتشخص لنا الركود الفكري. فأجدادنا أشهروا حرباً تحت تأثير المتزمتين من الفقهاء وتأثير الاستعمار في خفاء على كل جديد لا يوافق سياسة هؤلاء ولا عقلية أولئك البالية، أغلقوا أبواب الابتكار والاجتهاد أمام المتأخرين من العلماء والباحثين. فمن البديهي أن تضعف الثقافة الوطنية ضعفاً يشبه الموت. فليكف حينئذ المؤمنون من أولادنا بتفوق اللغة الأجنبية على لغتنا من الطعن على هذه. إذا رجعنا إلى تراثنا الثقافي في العصور الذهبية وجدنا العربية هي أداة التعبير عنها، واللغة الوطنية هي المقياس الوحيد للثقافة الوطنية. فبمقتضاها يتم إحياء ثقافة واقعية محلية يمكن لها المشاركة في المجهود الثقافي العالمي. فالثقافة، كما نطق بذلك الوفد الجزائري في المهرجان الثاني الإفريقي، تنطلق من الشعب لكونه الخلاق المبدع لذاته وبيئته. وهذه الثقافة ليست أمراً يعطى بل يقوم جموع الناس بخلقها. فهي صورة للإنسان، وبالتالي فهي فكر وأنظمة وإيديولوجية وعلم. وهي تمثل تأثير الإنسان على ذاته وعلى العالم من أجل تغييره. وهكذا تشمل الميادين

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية. واللغة الوطنية هي دعامة الثقافة وعنصرها المحرك والضمان لقاعدتها الشعبية في مرحلتي تكوينها واستهلاكها. نحرص إذن على تراثنا نبعثه لنصل حاضرنا بماضينا. فهو جزء من الحياة العامة، ننظر إليه نظرة تقديس. فإنه يحيي فينا الوعي القومي. لم نفرط في تراثنا في العسر، تحت السيطرة الاستعمارية ، فكيف نفرط فيه في اليسر ونحن أحرار مستقلون. وعلى النشء أن يكشف ما فيه ليفيد منه في شتى الميادين الثقافية، «لنجمع عليه الصغار مع الكبار حتى لا يشعروا أنهم أجانب عنه».

إن الثقافة التي نحن في حاجة إليها هي كل ثقافة لا تعارض المبادىء الإسلامية السامية التي تحمي مقوماتنا الخلقية، والثقافة التي تجعلنا نؤمن بأن المعرفة بحر لا تحد شواطئه، هذه الثقافة التي نريدها تقوم عليها نهضتنا الحضارية التي نأخذ بأسبابها لنصل ماضينا بحاضرنا ولنبني عليه أسس مستقبلنا كأمة عريقة ترعى أمجادها وتحمي مقدساتها. وليس معنى هذا أننا نعارض مبدأ دراسة اللغات الأخرى بل هو ضروري في هذا العصر، عصر الصراع الفكري وتفاعل الثقافات أكثر من أي زمن مضى، وإنما الذي لا نقبله هو التبعية و«طرح الأثقال الموروثة». والحضارة هي نضال الإنسان للتعبير عن آماله وأهدافه وأخلاقه وتغيير للطبيعة الخارجية ليستجيب لحاجاته وهي من ناحية أخرى كمال أخلاقي وعقلي.

الفصل الخامس عشر

في طريقنا نحو ثقافة واعية متفتحة منتجة تضمن القضاء على التخلف وتعين على الصعود الى ذروة المجد والسعادة.

1) السعي في تحريرنا من التبعية الثقافية.
2) تكوين الطاقة الخلاقة بتعميم الثقافة وتكيفها.
3) اقتران التطور الثقافي والتطور الاقتصادي وما يتطلب ذلك من التخطيط.
4) الجزائر تأسر أنظار الدول.

ما أكثر ما كان المتزمتون يرمون بالكفر كل من حاول الاستعانة بعلوم الأوروبيين أو بأساليبهم التقنية. كنا نعيش قبيل الاحتلال ونحن أقرب الناس جغرافياً إلى أوروبا، فلا نستفيد من علومهم ولا من فنونهم الصناعية. لم يكن اليابان حينئذ أكثر منا حضارة، ولكنهم أرسلوا البعثات العلمية إلى أوروبا، فساعدهم ذلك على تبوئهم المكان العالي في الميدان الحضاري. وبقينا نحن تحت سيطرة المتزمتين حتى انقض علينا الاستعمار فجردنا مما هو عزيز علينا، من حريتنا ومقومات هذه الحرية. فنحمد الله على أننا لم ننسلخ عن شخصيتنا ومكوناتنا التي أيقظت وعينا الذي كان عمدة مقاومتنا وقوام حقنا في الحوار البشري وسلاح كفاحنا التحريري.

استيقظنا الآن وتغير نظرنا إلى الأشياء، وأخذنا نقلع عن عبادة الماضي، بدون أن ننساه، ونتجه نحو المستقبل الذي نريده زاهراً.

وصل الإنسان إلى مرحلة من التقدم حتى أنه وطىء القمر بقدميه، فكيف نسمح لأنفسنا أن ننطوي وننكمش. فالإنسانية عند المثقفين الأوروبيين هي الإنسانية المتطورة الراقية مادياً، المنتجة التي حققت مستوى من التقدم جعل في إمكانها أن تصنع الصواريخ والأقمار الصناعية والآلات المدهشة، الإنسانية التي حلم بها «نيتشه» وظن وما زال غيره يأمل في أن تلد يوماً إنساناً أعلى، ولا نشك في أن هذا المفهوم النيتشي للإنسانية ستتسع دائرته بفعل الخطوات التي حققها التقدم العلمي في غزو

الفضاء[1]. يقول «أوغست كونت»[2] في تحديده للإنسانية: «إن الإنسانية التي نقصدها هي الإنسانية المنتجة أما الإنسانية التي تستهلك ولا تنتج فهي أقذار الإنسانية». والفلاسفة يؤمنون بالإنسان المتحرر من نفسه، ونحن لا زلنا في طور التنمية لما نصل بعد إلى طور الإنسان الذي يعني «كونت»، ولسنا من المتحررين من نفسنا، والذنب للاستعمار الذي ليس من مصلحته أن نكون من طبقة الإنسان النيتشي، ولا الإنسان المتحرر من نفسه. فمفهوم إنسانيتنا يختلف عن المفهوم الفلسفي التجريدي، ويختلف كذلك عن المفهوم العنصري التمييزي. فمفهومنا الذي نريد أن نتشبث به في المستقبل يتمثل في مراعاة جميع أبعاد الإنسانية الكاملة والحرص على تحقيق التوازن بينها دون أن يطغى جانب على الآخر، مفهوم تلغى فيه فوارق العرق واللون والمعتقد أي تحقيق المفهوم الذي اهتم به الإسلام، دين الثقافة والحرية والمساواة.

والثقافة المنتجة مهدها الغرب. فتطلب منا نبذ شخصيتنا الوطنية ونراثنا الثقافي. فثقافة الإنسانية المنتجة قد تؤدي بنا إلا إنكار الأصالة في إنسانيتنا. ومن جهة أخرى إن التشبث بثقافتنا وحدها ونبذ الثقافة الأخرى يؤدي بنا إلى التحجر والتخلف. فكلتا الطريقين غير مجدية. فالطريق الوحيد الذي يفيد هو القيام بنوع من الصهر لعناصر الأصالة في الثقافة الوطنية مع عناصر الثقافة العصرية التي تنقصنا والتوصل إلى ثقافة لا تنكر الماضي المجيد ولا تنفصل عن الشعب ولا تدير ظهرها للعصر.

فلسنا مضطرين لتبني مجموع المفاهيم والقيم المرتبطة بالثقافات الأجنبية العصرية. نقتصر على أن نأخذ منها ما ينقصنا لتطعيم ثقافتنا وضمان انفتاحنا على العصر، فهكذا نحرر أنفسنا من التخلف فيزول عنا الفقر والجهل ونبني شخصيتنا الوطنية. ولهذا اختارت حكومتنا المظفرة سياسة قوامها الاشتراكية. فبهذا النظام الاشتراكي نسعى في تحريرنا من

---

(1) المجاهد، العدد 466 صـ: 4 (13جمادى الأولى 1389 ـ 27 تموز 1969).
(2) Auguste Comte رياضي وفيلسوف فرنسي 1798-1887.

التبعية اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً. فأعلنت الحكومة على لسان رئيسها يوم افتتاح الملتقى الثقافي الإفريقي سنة 1969، أنها تبني سياستها على اقتران التطور الثقافي والتطور الاقتصادي. فبهذا الشرط تثبت ذاتنا ويثبت استقلالنا الاقتصادي. حصلنا على الاستقلال السياسي بدحر الاستعمار، وما هذا إلا مرحلة من مراحل المعركة، فليس غاية ولا نهاية. فالاستعمار خلق فروفاً اقتصادية وجذوراً ثقافية انغرست طيلة وجوده في بلادنا ليس من السهل القضاء عليها، فلا بد من أن نتسلح بما يمكننا من أن ننظف بلادنا من هذه الرواسب.

فللجزائر إمكانيات كبيرة ولا ينقصها إلا الطاقة الخلاقة، وهي الإطارات التكنولوجية، فما علينا إلا تكوين التقنيين، وذلك في الداخل وبالبعثات إلى أوروبا. فهكذا لا نبقى عالة على الأجانب في تسيير معاملنا وإنجازاتنا المختلفة، بل نصير بدورنا نساهم في بناء الإنسانية. فقد فرضت الجزائر وجودها في القرون الوسطى بثقافتها وباقتصادها، وتريد اليوم أن تسترجع مكانها في هذا العالم الذي هي مسؤولة عن تشييده كغيرها من الأمم، نريد أن تكون ناهضة في عالم عصري متطور باستمرار لا تعرف انزواء ولا انكماشاً على النفس فسياستها هي التي أعلن عنها بوضوح الأخ الرئيس «أبو مدين» في قصر الأمم أمام الوفود الإفريقية يوم افتتاح المهرجان الإفريقي، يقول الرئيس: «قررنا أن لا نرضى بزيف المصير والتخلف الثقافي والتنكر للروح والفكر والانسلاخ عن شخصيتنا ومكوناتها العديدة»، لا تكون هذه الثقافة منعزلة عن المجتمع بل ظاهرة تعكس صورة الحياة وإنباط الاقتصاد والروابط الاجتماعية بين الأفراد لأن التفاعل والتبادل أمر لا بد منه. فإن البلاد المنعزلة المنكمشة على نفسها مصيرها التخلف والتلاشي. والثقافة لها دور حاسم في تلك الروابط تربط كل مجتمع بشري وتكون وسيلته الأولى للتخاطب والتعرف على العالم الخارجي، كما هي مراته التي تعكس روحه ووجوده وقابليته لكل تطور. فالثقافة بمعناها الواسع الشامل هي تلك التي تمكن الناس من تنظيم حياتهم وتثبيت قدمهم في السعي نحو السعادة والرقي. فلنعمل لتكون

واسعة متكيفة مع العالم المعاصر عالم العلم والتكنولوجية: تجعل الجزائري مواطناً ذا حق كامل في الحضارة التقنية للقرن العشرين. وهذا مع المحافظة على شخصيته الخاصة. يجب خلق عقلية جديدة لا تنكر الماضي وقادرة على الدفع بنا إلى مسايرة العالم المتقدم. فإن ما يعطى لحضارة ما هو الكيفية التي عرفت بها كيف تندمج في علم وتكنولوجية عصرنا، فهكذا لا نبقى فقراء في الميدان التكنولوجي، ونلحق العالم في صنع الكواكب والأقمار، ولا نبقى متخلفين مستهلكين عرضة للنفوذ الرأسمالي الأمبريالي. وللوصول إلى هذه الغاية عزمت الحكومة على نشر ثقافة صحيحة تقودنا إلى التنمية وإلى العالم الحديث، هذا العالم الذي نطمع أن نحتل فيه مكاننا الطبيعي، فالثقافة التي لا تدفعنا إلى عالم العلم والتكنولوجية تعد ترفاً لا طائل وراءه، يجب تسخيرها في ترقية الإنسان الجزائري اقتصادياً واجتماعياً، نريد أن الثقافة التي تحققها الجماهير وتعيشها تصبح عاملاً من العوامل المحركة للتنمية الاقتصادية وذلك بالتفتح والعمل على أن تتفاعل الثقافة الوطنية مع القيم العالمية. وعندما نتحدث عن الثقافة الجزائرية فإننا نجد أنفسنا مدفوعين للتساؤل: هل خلقت هذه الثقافة الشروط الاقتصادية الاجتماعية المناسبة والقادرة على إعطاء الجزائري حظوظاً حسنة من أجل ازدهاره الكامل؟ فيمكننا القول بالإيجاب في الفترات الرستمية والحمادية والزيانية، إن الثقافة قد سمحت للجزائري أن يتطور في مختلف قطاعات النشاط الإنساني ولخلق قيمه الخاصة للتكيف في الظروف المحيطة وبالمشاركة زيادة على ذلك في تنمية ثقافات أخرى وإغناء الثقافة العالمية لمكسب إنساني. وهذا التكيف لعهد الحرية الكاملة صار لا تكيفاً مع الاستعمار، وهذه التبعية الثقافية للأجنبي أدت إلى تباينات اجتماعية واقتصادية وثقافية وإلى فوارق خطيرة بين المناطق المتقدمة في البلاد وغيرها وعمقت الهوة بين النخبة والشعب. فالحكومة تسعى الآن في أن تسد هذه الهوة في تعميم الثقافة بين طبقات الشعب وفي التوازن بين الثقافة الوطنية والثقافة العالمية. فعلاقات حكومتنا مع حكومات العالم المختلفة في الميادين الثقافية والاقتصادية كثيرة ومفيدة. فلا تألو جهداً في تطعيم ثقافتنا

واقتصادنا بثقافات واقتصاد غيرنا بدون أن تترك الإنجازات الاجتماعية والاقتصادية الأجنبية تهيمن علينا، تريد أن تحتك حضارتنا بحضارات غيرنا، ولكن بخطى ثابتة لا تؤدي بنا إلى ما لا يحمد عقباه. فإن سياسة حكومتنا تهدف إلى القضاء على التأخر الشديد الراجع إلى أسباب تاريخية، وذلك بتغيير البناء الاقتصادي والاجتماعي. ولكن تحقيق هذه المطامح العاجلة يتطلب إطارات كفوءة كافية، وبلادنا تركها الاستعمار فارغة منها. فلا ندحة لها عن المبادرة إلى وضع الإمكانيات لمعالجة هذا الوضع، وذلك بإرسال البعثات وبإنشاء المعاهد التكنولوجية التي هي مكسب من مكاسب المعركة الكبرى لإعداد الكفاءات الجزائرية التي تضمن نجاح ثورة البناء الوطني. فالطلبة لا يجدون في هذه المعاهد الثقافة الواسعة مثل الجامعات بل تعليمًا خاصاً في محتوى البرامج والطرق يهدف إلى خلق إطارات لها كفاءة في سائر الميادين.

والعالم يتغير باستمرار تحت ضغط الاختراعات العلمية وتطبيقاتها الفنية والعلمية الأمر الذي أدى بالمسيرين الجزائريين إلى الحرص على تكوين الإنسان الجزائري وتطويره. فما هذه المعاهد التكنولوجية إلا مقدمة للتعديل في البرامج العلمية والفنية حتى يفضي إلى تكوين كليات تكنولوجية عالية إلى جانب الكليات الأدبية والعلمية والتقليدية التي تحتاج إلى إصلاح التعليم فيها، لأنها إذا بقيت على ما هي عليه فلا يمكنها أن تلعب دورها الخطير في مجتمعنا الثوري الجديد. فلا بد أن تدخلها الثورة وتغير هياكلها الحالية الموروثة من النظام الفرنسي الاستعماري تغييراً جذرياً. ينبغي تخلصها من قيود التبعية بتجديد مجموع الجهاز الذي تتوفر عليه حالياً: تجديد في البرامج وتجديد في الميدان البيداغوجي. فهكذا يمكن للجامعة أن تلبي المطالب الخاصة بالإطارات التي تفتقر إليها البلاد، الإطارات الواعية القادرة المتفتحة الخلاقة المتشبعة بالشخصية الجزائرية والواقع الاجتماعي والاقتصادي. فسيكون في بلادنا هكذا منابع للعلوم الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية من جهة، ومن جهة أخرى للعلوم الرياضية الركيزة الأساسية للتعليم التكنولوجي. فمعاهد الثقافة ستصبح

تقارن بالمعاهد التي عرفها العالم المتحضر المنتج تتكون فيه الإطارات الكافية القادرة التي تذهب بالبلاد صعداً حتى تصل إلى مستوى رفيع في الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية فيتأتى لها بثقافة ذات أبعاد إنسانية المشاركة الفعالة في بناءالحضارة العالمية ، تخترع وتخلق وتأتي بما يدهش العقول.

وبجانب السعي في بناء مستقبل ثقافي إنساني تأبى الجزائر إلا أن تحقق استقلالها الصناعي. فهذا التحدي يتطلب طبعاً تضحية جسيمة، ولكن الشعب قادر على تحملها بكل صبر. فقد تحمل محن الحرب التحريرية وخرج منها مظفراً فما يمنعه إذاً من نجاحه في معركته الصناعية. فإن الجزائر تملك طاقات هائلة ببترولها وغازها ورجالها تساعدها على خوض ثورتها الصناعية والزراعية والثقافية التي بها تحقق غدها الأفضل. وتقدم الجزائر في الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية تشهد به الدول.

تصدر مجلة بألمانيا الغربية تسمى مجلة التبادل الثقافي(1) في كل ثلاثة أشهر. وقد ظهر مؤخراً عدد منها خاص بالجزائر مساهمة لتوطيد العلاقات الحسنة بين الجزائر وألمانيا، وفي أوائل صفحاتها أشار مدير العلاقات الخارجية إلى التقدم الذي أحرزته الجزائر المستقلة في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والتربوية، وقد نوه فيها «هانس يورغن فيشنيفسكي»(2)، الوزير السابق ورئيس الجمعية الجزائرية الألمانية بأهمية الجزائر من الناحيتين السياسية والاقتصادية وتحدث عن العلاقات الجزائرية الألمانية التي تشمل ميادين مختلفة. وأتحفنا فيها الأستاذ «هورست مينشينغ»(3) بدراسة تناول فيها جغرافية الجزائر الطبيعية، وتحدث عن الموقع الذي خصتها به الطبيعة مما جعل فرنسا تتخذها بعد احتلالها منطلقاً لتوسعاتها في إفريقية، ووصف مناطقها من حيث الناحية النباتية والمناخية ومن الناحية الزراعية والطبيعية،

---

(1) Zeitschrift Für Kulturaustausch

(2) Hans-Jurgen Wischnewski

(3) Horst Menschnig

ولم ينس كذلك الجوانب الاقتصادية والصناعية والتربوية. فإنها دراسة ثمينة تنبىء القارىء بإمكانيات الجزائر الكثيرة التي تضمن لسكانها مستقبلاً زاهراً. وتتلو هذه الدراسة القيمة دراستان كتبهما «هانس رودولف سينغر»[1] تحدث في الأولى عن نمو الجزائر وفي الثانية عن الأصل واللغة والدين في الجزائر. أما «يوهانس ماس[2]» فيقدم دراسة مطولة بعنوان «مصائر الجزائر السياسية» وقد عالج المؤلف موضوعه تحت العناوين الفرعية التالية: السلام الروماني، السلام العربي، الحرب القذرة، الجزائر تثور، البطل الشعبي عبد القادر، اصطياد البشر، كثيبة السيف، الليل الاستعماري، الفجر في وهج الليل، فرنسا تفقد وجهها، النار في جميع القديسين (أول نوفمبر 1954)، المعركة حول الجزائر، من جعلك ملكاً، فجر الآلهة الرهيب، المعجزة الجزائرية. والمعجزة الجزائرية في نظر هذا الكاتب ليست ظاهرة محددة مكانياً، وإنما تعتبر الجزائر مثلاً لتطور العالم الثالث كله. فقد أظهرت حركات التحرر في الشعوب التي كانت مستعمرة قوة هائلة، بحيث إن هذه الشعوب ستغير في المستقبل من توازن العالم، سواء آمن الإنسان بذلك أو لم يؤمن. ثم يقدم الكاتب إحصائيات للخسائر المادية والبشرية التي نتجت عن حرب التحرير الجزائرية، ويرى أن المستعمرين كانوا ينتظرون أن تنهار الجزائر وتعمها الفوضى بعد إعلان الاستقلال مباشرة: وذلك ما استهدفوه حين أبعدوا دائماً، الجزائريين عن جميع الأجهزة الرئيسية، كانوا ينتظرون إفلاس الدولة والشعب، ولكنهم لم ينجحوا فأكد الجزائريون عبقريتهم وجلدهم فتغلبوا على الأزمة الناتجة عن زوال الاستعمار من ضيق في المعيشة والإطارات. ولعمري أن ذلك أول معجزة لفائدة الجزائر.

ونقرأ بعد هذه الدراسة مقالاً للمؤلفة الألمانية «سيغريد هونكة»[3] عن اكتشاف الشخصية الجزائرية من جديد، ثم يلي هذا المقال حديث

---

(1) Hans-Rudolf Singer

(2) Johannes Maass.

(3) Sigrid Hunke

«يوسف شرام»[1] عن تحولات في الصحراء الجزائرية، فسكان الصحراء جزائريون يتعاونون مع باقي المواطنين على بناء الدولة وتشييدها في ظل الاستقلال ويقصدون المدارس والمعاهد المهنية التي تنشئها الحكومة في الأمكنة الآهلة بها وبالمؤسسات الصناعية يتطورون ثقافياً واقتصادياً.

ويتحدث لنا بعد ذلك «فولفغانغ فرويند»[2] عن وادي مزاب. فيقدم لنا حقائق عن تاريخه ونهضته التاريخية خلال الفترة الاستعمارية. أما «فيرنر بلوم»[3] فقد أتحفنا بمقال عن إصلاح البلديات الجزائرية، ذكر فيه أن فرنسا لم تقض على نظام البلديات المحلي التقليدي في أي بلد استعمرته مثلما قضت عليه في الجزائر الأمر الذي أوقع البلديات إبان الاستقلال في أزمة خطيرة. فبعد هجرة الأوروبيين بقيت جميع الوظائف تقريباً شاغرة، ومن ثم كان لا بد من إصلاحها شيئاً فشيئاً وعلى أسس جديدة. وتحتوي هذه المجلة أيضاً على دراسة عن التربية في الجزائر اشترك في كتابتها «يورغن هـ. فولف»[4] و«بيتر فالتسينغر»[5] وتتصدر الدراسة كلمة كتبها أحد الموظفين الفرنسيين وهو «أوجن فورميسترو»[6]، سنة 1880 قال فيها: «لقد تركنا تعليم أهالي البلاد دون المستوى الذي كان عليه قبل الاحتلال». ويرى المؤلفان أن هذه الكلمة يمكن اعتبارها أساساً للسياسة التربوية الاستعمارية في الجزائر المستعمرة حتى بداية الثورة التحريرية. وفي المجلة دراسة أخرى تتعلق بالتعليم المهني للكبار في الجزائر كتبته «أورزل كلاوزن»[7] وقد نشرت دراسة قبل هذه سنة 1969.

وتتضمن المجلة دراسة «لمارتين كريمر»[8] عن الاقتصاد الجزائري في طريق التخطيط وعن الأهداف التي تسعى الجزائر إلى تحقيقها بواسطة المخطط الرباعي، وذلك في مختلف الميادين الصناعية. ويقدم قائمة

---

(1) Josef Schramm
(2) Wolfgang Freund
(3) Werner Plum
(4) Jürgen H. Wolef
(5) Peter Walzinger
(6) Eugene Fournestraux
(7) Ursel Clausen
(8) Martin Krämer

بالأرقام التي بلغتها المؤسسات الصناعية خلال السنوات الماضية والتي ستبلغها بعد انقضاء فترة المخطط الرباعي في السنوات الثلاثة القادمة.

ومقال «غونتر شتوكمان»[1] يحتوي على مشاكل الجغرافية المائية في الجزائر وعلى مشاريع الري في المناطق المختلفة، ويقترح الحل اللائق لاستغلالها. أما «أدولف آرنولد»[2] فيتحدث عن تطور الجزائر الصناعي وعن الأوضاع الصناعية قبل الاستقلال، ويؤكد أن الفرنسيين لم يهتموا بتصنيع الجزائر حتى لا تعود تزاحم فرنسا. فكانت الجزائر تدفع إلى فرنسا المواد الخام مقابل المنجزات الجاهزة. ثم يتحدث الكاتب عن التطوير الصناعي الذي حدث بعد سنة 1962، ثم التحول الذي طرأ عليه ابتداء من سنة1966 الأمر الذي انتقل بالجزائر إلى مرحلة التصنيع السريع مستدلاً على ذلك بعدة أدلة وموازناً بين الجزائر وبقية الدول النامية.

والباحث «كلاوس غيسنر» [3] يحدثنا عن الصحراء الجزائرية من الناحيتين التصنيع والاستثمار، فإن المنجزات الصناعية التي أحدثتها فيها الحكومة لمن الأسباب الحاسمة في تقدم اقتصاديات الجزائر.

ويتناول «هيرمان أشنباخ»[4] مسألة الفلاحة الجزائرية ومشاكلها. فقد استعرض الأوضاع التي مرت بها في عهد الاستعمار؛ ثم تحدث عن المراحل التي قطعتها نتيجة للإصلاحات التي أدخلت عليها حتى الآن، ويشير إلى الدور الذي ستلعبه في حياة الجزائر الاقتصادية في المستقبل.

وفي مقال تال تحدثنا «دوريس بندر»[5] عن الرحالين الألمان الذين زاروا الجزائر في القرن التاسع عشر، وتذكر منهم «هايريش بارت»[6] الذي وصل إلى الجزائر في 28 سبتمبر سنة 1845 فزار وهران والمدية وشرشال وتيبازا وبجاية وقسنطينة؛ ثم «غوستاف ناختيغال»[7] الذي أقام في الجزائر

(1) Günther Stuckmann

(2) Adolf. Arnold

(3) Klaus Giebner

(4) Hermann Achenbash

(5) Doris Binder

(6) Heinrich Barth

(7) Gustav Nachtigal

حوالى سنة، و«غيرهارد روهلفس»[1] الذي عاش في الجزائر خمس سنوات 1855-1860، وشارك كطبيب في العمليات الحربية. ورابع الرحالين فهو «بيرنهارد شفارتز»[2] زار الجزائر عام 1881 وأصدر عنها كتاباً بعنوان «الجزائر بعد خمسين سنة من الحكم الفرنسي»، قدم فيه صورة لجزائر ذلك الحين وسجل ملاحظاته الجغرافية والنباتية والحيوانية والمناخية، وحاول أن يربط ذلك كله بالظواهر التاريخية والعنصرية.

و«كوبيلت»[3] هو الآخر زار الجزائر عام 1884 وطاف بمعظم جبالها واهتم ببحث عالمي الحيوان والنبات.

أما «كارليطو»[4] فنشر كتاباً «من لا يبتسم إلى الصحراء» سنة 1886 أبدى فيه إعجابه بالمناظر الطبيعية في الجزائر وأسهب في وصف جمالها.

و«فريدريش كوخفاسر»[5]، رئيس تحرير هذه المجلة قدم دراسة خص بها الرحالة الألماني «هاينريش فرايهرن فون مالتسان»[6] وحلل رحلاته من خلال كتبه عنها ولا سيما كتابه «ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقية» الذي نشرت مجلة المجاهد الثقافي ترجمة عدة فصول منه. ولا يفوتنا التنويه بديوانه الشعري عنوانه «أصداف الحجاج»، خص الجزائر وطبيعتها بكثير من مقطوعاته وبقصة عالج فيها أسطورة قبر النصرانية نشرها عام 1865.

والمجلة تحتوي أيضاً على حديث أجري مع مدير المعهد الثقافي الألماني بالجزائر تحدث فيه عن نشاطات هذا المعهد المختلفة كالمعارض والمحاضرات والحفلات الموسيقية، ثم على مقال كتبه «فالتربوركرت»[7] عن الأطباء الألمان في الجزائر، ومقال آخر بقلم «فريتس هينكر»[8] عن العمال الجزائريين في ألمانيا الفيدرالية، وحديث أجرته «غودرون ايزنمان»[9] مع

---

(1) Gerhard Rohlfs

(2) Bernhard Schwarz

(3) Kobilt

(4) Carletto

(5) Friedrich H. Kochwasser

(6) Freiher Heinrich Von Maltzan

(7) Walter Burkart

(8) Fritz Henker

(9) Gudrun Eisenmann

طالب جزائري يدرس في ألمانيا، ومقال كتبه «فولغانغ هينسكه»[1] عن التعاون الاقتصادي بين الجزائر وألمانيا أكد فيه أن الجزائر لم تعد بلداً يتلقى المساعدات وإنما هي بلد سيصبح قادراً على التبادل التجاري مع غيره من الدول على قدم المساواة. وإدارة هذه المجلة تتصل برجال الأدب الجزائريين، فقد نشرت قصة «لأبي العيد دودو». وتنتهي المجلة بقائمة الكتب والمراجع الخاصة بالجزائر في مكتبة معهد العلاقات الخارجية وهي تزيد بكثير عن ثلاثمائة مصدر في مختلف الميادين، وهذا شيء قليل مما كتبه الألمان عامة عن الجزائر خلال السنوات الماضية. ويشارك في هذه المجلة العلماء المتخصصون فيهم أساتذة الجامعات والعاملون في معاهد البحوث العالمية مما يدل على أن ما جاء في هذا العدد من هذه المجلة عن الجزائر يعتبر وثيقة مهمة لكل ما يتعلق بالدراسات الجزائرية في شتى المجالات[2].

وللجزائر تبادل تجاري مع ألمانيا الاتحادية فقد نشرت الرسالة التي تصدرها إدارة الصحافة والاعلام لهذه البلاد في عددها الثاني من السنة (13) الثالثة عشرة تفاصيل هذه العلاقات خلال الأشهر التسعة الأولى من عام 1969 وعام 1970 بالأرقام وجميع الأرقام بملايين الماركات. إن الصادرات الألمانية إلى الجزائر قد بلغت 243,71 من يناير إلى سبتمبر 1969. أما من يناير إلى سبتمبر 1970 فأصبحت 281,02 . والواردات من الجزائر كانت 462,72 من يناير إلى سبتمبر 1969 فأصبحت 423,29 من يناير إلى سبتمبر 1970. فنلاحظ انخفاضاً ملموساً في التبادل التجاري القائم بين الدولتين في سنة 1970 بالنسبة إلى سنة 1969، وذلك يرجع إلى سياسة الجزائر الاشتراكية الاقتصادية التي ترتكز على استغلال الثروات الباطنية الوطنية. فإن بلادنا عزمت على ألا تبقى، كما كانت في عهد الاستعمار ، مصدراً للمواد الأولية وسوقاً لاستهلاك المواد المصنعة في البلاد الأجنبية فكل ما تستورده هو المواد الجهازية التي يحتاجها تصنيعنا الذي

(1) مجلة التبادل الثقافي الألمانية والمجاهد الثقافي عدد 15/14 أوت سبتمبر 1970.

(2) Wolfgang Henske

تعطيه ما يستحقه من الاهتمام. وهذا يفرضه طريق النمو، فإن النمو لا يتحقق إلا بازدهار القطاع الصناعي، لأن الصناعة هي التي تمكننا من إنتاج الوسائل الرأسمالية التي نعيد استخدامها في إنتاج سلع أخرى أو إنجاز خدمات جديدة في جميع القطاعات الاقتصادية والاجتماعية الباقية[1]، حرزت البلاد على استقلالها السياسي بكفاحها المسلح المرير، والآن تسعى سعياً لا تحيد عنه في استقلالها الاقتصادي حتى تصبح في الغد القريب في مصاف الدول المنتجة الراقية.

(1) المجاهد عدد 537 - 6 ديسمبر 1970

الخاتمة

يتراءى لنا مما تقدم أن للجزائر ثقافة وثقافتها عريقة، بدأت تظهر بظهور الإنسان الجزائري على هذه الأرض منذ عمرها. مشى دوماً في سبيل التطور وذلك بعامل التجربة من جهة وبالتبادل بينه وبين غيره من جهة أخرى. فإن الجزائري لم يعش البتة منكمشاً، اتصل بغيره عن طريق الرحلة والتجارة والغزو. فبالطبع أن تتصل ثقافته بغيرها فتشتد وتقوى، فالثقافات يلحم بعضها البعض فتتكامل ولولا هذا التكامل لذبلت المعرفة ولتجمد الفكر. مر الجزائري بالأطوار التي مر بها الإنسان الأول في جميع العالم يبحث باستمرار عن الأفضل لذاته ومحيطه فما اكتشف من آلات ذلك العهد يدل على مدى تقدم الجزائري، والرسوم على الصخور التي عثر عليها ولم تغيرها يد الزمان في المناطق الشمالية وفي الصحراء لبرهان قاطع على تكوين وتطوير ذوقه الفني.

وبما أن الجزائر كانت تتمتع بمناخ معتدل قصدها أقوام واستقروا بها وامتزجوا بأهلها الأولين، وما أتوا به من ثقافة امتزج بثقافة الأهالي، وهذا الامتزاج دفع بالثقافة الوطنية إلى الأمام، فخطت خطوات نحو التقدم. فلا سبيل لنمو العقل إلا هذا الاتصال الذي ينجم عنه تفاعل وتبادل الأفكار والمعلومات.

وهذا الشعب الذي تكون بامتزاج عناصر مختلفة على مر الأحقاب كان له لغة هي عماد ثقافته وقتئذ، ولكن هذه اللغة وجدها الجزائريون عاجزة عندما أخذوا يتصلون بالشعوب ذات حضارة أقوى من حضارتهم

ولغة أرقى من لغتهم مثل الفينيقيين فعمدوا حينئذ إلى الوضع والاقتباس، وإذا بالثقافة الوطنية تشتد وتقوى.

والتجارة جعلتهم يتصلون باليونان وبالإيطاليين والغاليين والأسبان وهذا الاتصال كان أحسن معين على نضوجهم الفكري وتفتح ثقافتهم. وشاءت الأقدار أن يبسط الرومان نفوذهم في بلادنا، وذلك للاستمتاع بثروات أرضنا. ولكن الجزائري متى اشتم من الطارىء على بلاده رائحة الطمع ولاحظ منه النيل من شخصيته وكرامته ثار في وجهه وقاومه إلى أن يدحره. فلم يبق من الرومان وممن جاء بعدهم من المستعمرين إلا الخرابات. لم يؤثروا في عقلية الجزائري، فصوره لنا التاريخ متشبثاً دائمًا بعوائده وبلغته وبشخصيته. لا ننكر أن هناك طبقة تعلموا اللاتينية فزاحموا الرومانيين فيها لكنهم صبغوها بصبغة الوطن وغيروها عن أصلها، فهي اللاتينية الدارجة، ذلك دأب الجزائريين الأقدمين في كل ما أخذوا عن غيرهم، وبذلك حافظوا على جنسيتهم وابتلعوا الأمم التي احتلتهم وأرادت أن تبلعهم.

والطبقة المثقفة لا بد أن تتأثر بهذه الحضارة في أفكارها وعاداتها فتأخذ حظها من النعيم والرفاه اللذين يتمتع بهما الرومان. فإن الجزائري القديم يأخذ بواسطة الاحتكاك ما يراه سبب الرقي مع الاحتفاظ بمقوماته الذاتية.

وكانت حروب مذهبية وحروب شنها الوندال ثم الروم على الجزائريين تأثرت منها البلاد ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً، ولكن الوحشية التي عومل بها الشعب من طرف المستعمرين. أيقظت وعيه وزادت حبه للحرية حدة.

ومن حسن حظ الجزائريين أن دخل وقتئذ العرب وبيدهم كتاب الله. فنشروا العقيدة السمحة التي تأمر بالتقوى والعدل والإخاء والمساواة والخير للإنسانية جمعاء، وأنقذوا ذلك الشعب الذي رماه الاستعمار في حمأة الجهل والفقر والعبودية، فوجد ذلك الشعب في الإسلام ضالته المنشودة،

فتشبث به وتعلم لغته التي وجدها راقية، لغة دين وثقافة. ثم شقيقتها الفينيقية التي سبقتها إلى هذه الديار مهدت لها السبيل للانتشار فتعلمها الجزائريون بدون مشقة لمعرفتهم للبونيقية التي لا تختلف عنها كثيراً. جاء العرب بحضارة، وحضارة أية أمة بما فيها من عقائد وعوائد وأخلاق ومعارف إنما تسري لأمة وتثبت فيها على سريان لغتها بين أفراد تلك الأمة الأخرى وثبوتها في أجيالها.

وتقاطر الشعراء من المشرق على الجزائر واجتهدوا في نشر اللغة العربية وتوطيد أركانها بحيث لم يأت القرن الثاني حتى كان من الجزائريين الخطباء والشعراء والعلماء. والحكومة المركزية، سواء في الشام أو في العراق اجتهدت في نشر اللغة والدين في بلادنا.

وتكونت في الجزائر دول في طليعتها الدولة الرستمية، وكان لها اتصالات مع المشرق والأندلس والمغرب الأقصى وتونس وبلاد السود.

ثم كانت الدولة الصنهاجية، عرفت الجزائر في عهدها مستوى حضارياً كبيراً، فقصدها التجار والصناع وأهل العلم. ورحل تجارنا وعلماؤنا هم الآخرون إلى أوطان أخرى. ولا تسل عما أفادت هذه الرحلات الجزائر في الميادين التجارية والاجتماعية والثقافية والعمرانية. فإن الأشخاص من أهم حملة العناصر الحضارية ومن أفعل وسائل نقلها.

وأخذت تدور منذ مطلع المائة الثانية مناقشات أثارتها الفرق المختلفة، فانعكست هذه المناقشات الكلامية على بلادنا. كيف لا والجزائريون يترددون في رحلاتهم على أرض المشرق للحج وللدراسات أو للتجارة.

أنجبت الجزائر أعلاماً في الفقه وروايات الحديث وفي العلوم اللسانية وفي الأدب والفنون.

والتبادل التجاري مع السود كان له أثر في تفاعل حضارة وثقافة الطرفين. كانت تلمسان وورجلان من القواعد التجارية الهامة فنشر تجارنا

في رحلاتهم الدين الإسلامي والأخلاق الفاضلة.

والشيعة أضرت بالحياة الاجتماعية والدينية، ولكن الثقافة عرفت ازدهاراً كبيراً من جراء الصراع القائم بين علماء وأدباء الشيعة وزملائهم السنيين. أما من الناحية الاقتصادية فإن الجزائر عرفت ازدهاراً يبعث على الارتياح فأنشئت معامل حربية لصنع الأسلحة وتكونت معامل الزجاج ونسيج الصوف. فنشطت التجارة وازدهرت الفنون وعلا شأن الثقافة في عهد الزيريين في القيروان وشارك فيها جزائريون نالوا الشهرة الحسنة. إلا أن البدو من هلال وسليم اكتسحوا إفريقية، فخربت الديار وتفرقت مجامع العلم، وكان حظ الجزائر من المثقفين وغيرهم كبيراً. وواصل الأعراب زحفهم على الجزائر، فانبثوا في أنحائها. ونزوح هؤلاء الأعراب قد أثر في الحواضر والبوادي سياسياً واجتماعياً ولغوياً وجنسياً واقتصادياً.

ويمتاز عصر الحماديين بحرية الأديان واحترام العقائد. استقرت بالجزائر طوائف مسيحية، فكان أولو الأمر يحسنون معاملتهم ويحفظون حقوقهم. وتلت هجرة القيروانيين هجرة أخرى كانت من الأندلس.

والهجرة الثالثة كانت من صقلية حيث فقد المسلمون سلطانهم السياسي لفائدة النورماند.

كانت وقتئذ الفلاحة ناشطة والصناعة مزدهرة. فولى أرباب التجارة وجوههم شطر الأسواق الأوروبية. وهذه التجارة درت على أصحابها ومن ثم على الخزينة أموالاً طائلة أعانت الحكومة على إنشاء حضارة من أرقى الحضارات. فاعتنى أولو الأمر بالفن المعماري الذي صار نموذجاً للفن النورماندي بصقلية. إلا أن حضارة الحماديين شرقية، أينما وليت نظرك في قصور بني حماد وأثاثها وجدت ما ينطق بأثر الفن الشرقي، وعاش الحماديون في قصورهم محفوفين بالعلماء والأدباء والفنانين. وكان لمذهب مالك السيطرة الكاملة في أنحاء الجزائر، ولكنه لم يمنع الجزائريين من الاهتمام بعلوم الحديث والقرآن الكريم.

ثم جاء الموحدون وحاربوا المذهب والشريعة والفلسفة لم نجدا من يوفق بينهما إلا في هذا العصر حين ظهر «ابن تومرت» و«ابن رشد»، فاستطاع كلاهما أن يوفق بين العقل والنقل، ولكن «ابن رشد» نالته محنة شديدة من طرف يعقوب المنصور ونالت أتباعه من جزائريين ومغاربة. إن الفن الجزائري، قبل هذه الفترة، كان متأثراً بالفن الشرقي، كما سبق أن قلنا، لكنه أخذ يتفتح ولا سيما في الجزائر الغربية عند وصول الفن الأندلسي المغربي إليها، والفضل في ذلك يرجع إلى المرابطين ثم الموحدين فأمكن الفن المغربي أن يتصل بالفنّين المصري والعراقي السائدين في القلعة وبجاية والمهدية وتونس. فقد حقق الموحدون وحدة الإسلام السياسية من قشتالة إلى طرابلس وأمكنهم أن يساهموا في توحيد الفن الإسلامي في المغرب العربي.

لم تعرف الجزائر في حياتها أيام أمن وعدل كأيام عبد المؤمن الكومي وبنيه. نشطت الحركة الاقتصادية وقوي اتصال المغرب بالمشرق تجارة براً وبحراً، ونظمت التجارة الأوروبية مع إفريقية الشمالية تنظيمًا دولياً. فعقد عبد المؤمن عقوداً تجارية مع دول أوروبا.

إن الجزائر كانت صلة وصل بين الأندلس والمشرق، فكان الأندلسيون يمرون بالجزائر في طريقهم إلى المشرق. وعند انهيار الدولة المؤمنية كانت هجرة الأندلسيين. استقر بالجزائر عدد كبير منهم. فأفادوا بمواهبهم وثقافتهم أسواق العلم والأدب والفنون.

ظهرت على أنقاض الأمبراطورية المؤمنية ثلاث دول: الحفصية والزيانية والمرينية، وتنافس سلاطين هذه الممالك في تقريب العلماء والأدباء من مجالسهم، فتعددت المناظرات العلمية وازدهرت الفنون في المغرب العربي.

كانت الحالة السياسية مضطربة بتلمسان عندما كانت الحرب سجالاً بين الزيانيين والمرينيين، ولكن الثقافة والفنون بالأخص ازدهرت وذلك للتنافس بين الدولتين.

أصبحت الصلة بالأندلس قوية في عهد بني زيان وفي سنة 1492 استولى الأسبان على غرناطة فهاجر المسلمون ودخل عدد كبير منهم الجزائر وانتشروا في حواضرها، وقد حملوا معهم علومهم وآدابهم وفنونهم وعوائدهم فأصبحت تلمسان من أعظم حواضر العلم ونبغ فيها عدد كبير من الأدباء والشعراء والعلماء.

والجزائر الحفصية كانت تتمتع بمستوى ثقافي رفيع واقتصاد زاهر، كانت بجاية وقسنطينة تنافسان تونس، ولم تزل ورجلان سوقاً هامة تخرج منها القوافل قاصدة المشرق وبلاد السود.

وقد ألم بالبلاد اضطرابات في عهدي الأسبان والأتراك، أثر ذلك في الحركة الثقافية فضعفت وفي الاقتصاد إذ انعدمت تلك الاتصالات التجارية التي كانت تربط المغرب العربي من جهة وإفريقية السوداء من جهة أخرى. وقد أثر فقدان هذه الاتصالات على الأسواق الداخلية الجزائرية، فضعفت ولم يبق منها إلا قسنطينة التي كان لها علاقات تجارية مع تونس، وتلمسان التي كانت تتاجر مع المغرب الأقصى. فإن النظام التركي أراد تعزيز المركزية الإدارية بمركزية اقتصادية، والقرصنة وصلت إلى أقصاها حتى ضعفت التجارة مع البلدان الأوروبية. فكانت التجارة بين أيدي العائلات اليهودية وبعض التجار الأوروبيين الذين كانوا يتعاملون مع الاحتكار الذي يمثل مصالح الداي ومصالح البايات. أما الدايات فكانوا يفرضون ضرائب فادحة على الصادرات ولا سيما القمح. والحاصل أن التجارة الخارجية الجزائرية قد لحقها تدهور محسوس. فإن سيطرة الأوروبيين الاقتصادية على الجزائر بواسطة إضعاف سلطة الداي ليبعث على القلق والتخوف، ومما يزيد الطين بلة تحريك الانجليز والفرنسيين ثورات داخل البلاد. فكل هذا يضعف أركان الدولة ويخدم التسرب الأجنبي، والشعب حينئذ مبعد عن الحكم حتى وجد نفسه في قبضة الاستعمار. فجاءت فرنسا واستقرت بالبلاد وتبعت سياسة من شأنها أن تحطم كل صلة تربط النشء بماضيه وأخذت تنشر الجهل بين الجماهير وذلك بإغلاق المدارس

العربية وبتحريم التعليم بلغة البلاد وإجبارها الناس على التعليم بالفرنسية. فهكذا أرادت أن تحطم جميع معالم الشخصية الجزائرية بتحطيمها اللغة التي هي أداة الثقافة والحضارة. ولكن الشعب لم يرد بديلاً عن هذه الثقافة وعن هذه اللغة وعن هذه الشخصية، تشبث بتراثه وبقي صامداً يقاوم الاستعمار بشتى الوسائل. فلم تقو فرنسا على أن تصده عن هذه المقاومة التي نتجت عنها الثورة الكبرى التي دحرت العدو وأرجعت السيادة الجزائرية. فأحرز الشعب الجزائري على استقلاله السياسي. وها هو الآن يسعى بخطى ثابتة إلى استقلاله الكامل المبني على سياسة واعية وثقافة متفتحة منتجة واقتصاد يضمن للشعب رفاهه وسعادته. فاسترجعنا لغتنا ومقوماتها واسترجعنا ثقافتنا فليست متحجرة. فرض علينا الاستعمار تخلفاً شاملاً، فآلينا أن نطهر أنفسنا من بواعث هذا التخلف. نحرص من جهة على تراثنا نبعثه وعلى الوصول إلى ثقافة عصرية لا تعارض المبادىء الإسلامية، ونبني عليها أسس مستقبلنا كأمة عريقة. وهذا العصر عصر الصراع الفكري وتفاعل الثقافات أكثر من أي وقت مضى، نريد أن تكون ثقافتنا متفاعلة، فكيف نسمح لأنفسنا أن تنكمش؟ فلا بد أن نحقق مستوى من التقدم يجعل في إمكاننا أن نصنع ما تصنعه البلاد المتقدمة ونساهم في بناء الإنسانية. فالثقافة التي نريد أن نصل إليها هي ثقافة منتجة متكيفة لا تؤدي بنا إلا إنكار الأصالة في إنسانيتنا. سياستنا التقدمية ترتكز على التطور الثقافي والتطور الاجتماعي والتطور الاقتصادي. ولا نصل إلى هذه الغاية إلا بتكوين طاقة خلاقة مبدعة وهي الإطارات التكنولوجية. فإنه يدفع بالبلاد إلى مساير العالم المتقدم المنتج الذي نريد أن نحتل فيه مكاننا الطبيعي وأن نكون خير خلف لخير سلف.

المراجع

ابن رشد فيلسوف قرطبة	ماجد فخري صـ: 369
إتحاف المنصفين والأدباء: تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم	حمدان خواجة
أخبار الأئمة الرستميين	ابن الصغير
أدب المعتزلة	عبد الحكيم بلبغ
أزهار الرياض	المقري
أعز ما يطلب	ابن تومرت
أخبار ملوك بني عبيد	ابن حماد الصنهاجي
الآثار الباقية عن القرون الخالية	أحمد البيروني
الإحاطة في أخبار غرناطة	لسان الدين بن الخطيب
الأدب الجزائري المعاصر	الدكتور سعاد محمد خضر
الأزهار الرياضية	الباروني
البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان	ابن مريم
البيان المغرب في أخبار المغرب	ابن عذارى المراكشي
التاريخ العام	عبد الرحمان الجلالي
التاريخ السياسي	حسن إبراهيم حسن
تاريخ المغرب العربي	دبوز
الثورة في الأدب الجزائري	صالح مؤيد
الأدوار والموشحات الأندلسية	محمد أحمد الحفني
الذخيرة في محاسن الجزيرة	ابن بسام الشنتريني

الرحلة المغربية	محمد العبدري البلنسي
الرسالة المذهبة	القاضي النعماني بن محمد
الضوء اللامع	السـخاوي
الطب والأطباء بالمغرب	عبد العزيز بن عبد الله
العمدة	ابن رشيق
الفكر والثقافة المعاصرة	أنور الجندي
الكامـل	ابن الأثير أبو الحسن
المسالك والممالك	البكري
المسلمون في جزيرة صقلية	أحمد توفيق المدني
المسند الصحيح الحسن في محاسن مولانا أبي الحسن	ابن مرزوق الخطيب
المعجب في تلخيص أخبار المغرب	عبد الواحد المراكشي
المقدمـة	عبد الرحمان بن خلدون
المهدي بن تومرت	البيدق
النبوغ المغربي في الأدب العربي	عبد الله كنون
أنباء الرواة	جمال الدين علي بن يوسف القفطي
بساط العقيق في تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق	حسن حسني عبد الوهاب
بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد	أبو زكريا يحيـى بن خلدون
تاريخ الأدب الجزائري	محمد الطمار
تاريخ الجزائر	مبارك الميلي
تاريخ الجزائر	أحمد توفيق المدني
تاريخ الدولة الفاطمية في مصر والمغرب	حسن إبراهيم حسن
تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية	يحيـى هويدي
حياة القيروان	عبد الرحمان ياغي
ديكارت: التأملات في الفلسفة الأولى	

(ترجمة)	عثمان علي
ذكريات مشاهير رجال المغرب	
(9-10-12-19)	عبد الله كنون
راحة العقل	الكرماني

روايات ديب ومعمري ومولود فرعون وكاتب باسين ومالك حداد وآسية جبار ومصطفى الأشرف وبوربون.

سياسة الفاطميين	محمد جمال الدين سرور
عصر المنصور الموحدي	محمد رشيد مولين
عيون البصائر	محمد البشير الإبراهيمي
عيون الدراية في تراجم علماء بجاية	الغبريني
فلاسفة الشيعة	عبد الله نعمه
في الثقافة والأدب	عبد الكريم غلاب
في معركة الحضارة	قسطنطين زريق
قصة الأدب في الأندلس	محمد عبد المنعم خفاجة
كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم	أحمد المقدسي
محمد عثمان باشا	أحمد توفيق المدني
مظاهر الحضارة المغربية	عبد العزيز بن عبد الله
معجم الأدباء	ياقـوت
معجم البلدان	ياقـوت
منتجات مغربية (بالفرنسية)	
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق	الإدريسي (الشريف)
نفح الطيب	المقري
نيل الابتهاج	أحمد بابا التنبكتي
هذه هي الجزائر	أحمد توفيق المدني
ورقات	حسن حسني عبد الوهاب

الثقافة: العدد 13، الثلاثاء 18-2-1964.
الرسالة: عدد 1529-15 جمادى الأولى 1383-3 اكتوبر 1963 السنة الثانية والعشرون .
آفاق: المهرجان الثقافي الإفريقي . العدد الرابع السنة الأولى سبتمبر سنة 1969 .
القبس: المسرح الجزائري : أبو العيد دودو ـ العدد الخامس السنة الثالثة، محرم 1389 آذار سنة 1969 صـ: 92، والعدد السادس السنة الثالثة أيار 1969 صـ: 50 .
القبس: القصة القصيرة: عبد الله الركيبي: العدد الخامس السنة الثالثة محرم 1369 ـ آذار 1969 صـ: 63.
الشعب: دور الثقافة في التنمية الاقتصادية الاجتماعية
دعوة الحق: العدد الثاني السنة الرابعة جمادى الثانية 138 نوفمبر 1960 صـ: 65.
العدد الأول السنة الخامسة ربيع الثاني 1381 اكتوبر 1961.
المجاهد الثقافي: 1) مشكلة الحضارة: عمار الطالبي ـ العدد الأول السنة الأولى أول حزيران سنة 1967.
2) طبنة العدد السادس ماي 1968 صـ: 54.
3) الجزائر: العدد 15/14 أوت سبتمبر 1970 .
المجاهد: العدد 467 - 20 جمادى الأولى 3 غشت 1959.
العدد: ـ 501 - 21 محرم 1390 - 29 آذار 1970 سدراتة.
المجلة: العدد: 151 تموز 1969: قصة الحمار الذهبي لعبد المعطي شعراوي.
لمحات: الكارثة الهلالية (بالفرنسية): الطويلي ـ رقم 2 سنة 1968.

Attilio Gandio	les Civilisations du Sahara
L'Abbé Bargès	Tlemcen
H. Basset	Essai sur la littérature des Berbères
A. Berque	Art antique et art musulman en Algérie
A. Berthier et l'Abbé R. Charlier	Le tombeau punique d'El Hofra à Constantine
G.L. de Beylié	La Kalaa des Beni Hammad
L.Didier	L'Algérie et sa civilisation

Dufourcq	L'Espagne Catalane et le Maghreb aux XIIIème et XIVème Siècles
E.F. Gautier	Le passé de l'Afrique du Nord
L. Golvin	Le Maghreb Central à l'époque des Zirides
L. Golvin	Le Maghreb Centralà l'époque des Zirides
L. Golvin	La césamique musulmane d'après les collections de S. Gsell
S. Gsell	L'Histoire de l'Afrique du Nord
L. Guernier	La Berbérie
Ch. A. Julien	L'Histoire de l'Afrique du Nord
Ely Le Blanc	Le problème Arabe
Lahbabi Med Aziz	Du clos à l'ouvert
H. Lhote	1) Les Touaregs du Hoggar
	2) A la découverte des fresques du
G. Marçais	Tassili. Manuel d'Art Musulman
G. Marçais	L'Art des Berbères
G. Marçais	Les bijoux musulmans de l'Afrique du Nord
W. et G. Marçais	Les monuments de Tlemcen
H. Marrou	Saint Augustin et l'augustinisme
V. Piquet	Les civilisations de l'Afrique du Nord
Ricard	Pour comprendre l'Art musulman
D. Rops	L'Eglise des Temps barbares
J. Trabucco	Saint Augustin: Les Confessions
Institut für Auslands-beziehungen Stuttgart	Zeitschrift für Kulturaustausch (Jg. 20; 1970 N°2-April, Juni)

Arabisches Bulletin: Streifbandzeitung
G. 20074 C. Bonn (Germany) 10/1/1971

الفهـرس

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية ـ بن عكنون
الـجـزائـر

للأمانة الكتاب من مصورات الأخ هشام عمور أحسن الله إليه، والشكر موصول أيضا لكافة أعضاء موقع طلبة التاريخ تلمسان، فقط قام العبد الضعيف بتنسيقه وتخفيض حجمه وأضفنا له فهرسة لتيسير مطالعته.